

حسابق مرقان
المقام

تولستوى

حياة - فلسفته - اعترافات

« فمن حقيقة في مائة الى تورة ، ولكثرها ليست تورة دسوية ،
بل تورة في ضمائر الأغنياء وفي قلوبهم » .

تولستوي

الى تلك العاطفة التي علمتني

أن أهم الناس .

صادق مرمبان

المواسي

« امر مستطیع اُمرأ انه تستغنی

عن قرائته لو استوی ».

برنارد شو

مقدمة

كان تولستوى رجلاً قوى العاطفة والعقل ، مخلصاً إلى أقصى حد ، فكانت الكلمات التى يكتبها قوية نفاذة ، تصل إلى قلوب الناس ، وتعمل فى نفوسهم ، وتتفاعل مع تفكيرهم ، فتجعل منهم أشخاصاً آخرين متجددين ، وكان هو الفيلسوف الذى طابق قوله فعله . ولم تنشر أو تترجم كتب أى فيلسوف فى حياته إلى لغات أخرى كثيرة مثل كتبه .

لقد كان أعظم رجل شغل أذهان الناس فى عصره ، ذلك لأنه كان موهوباً أميناً مجتهداً دقيقاً شجاعاً صابراً ، ممتعاً ببسطة عظيمة فى الملاحظة وجمال فى فن الاخراج ، مخلصاً كل الاخلاص فى خدمة الخير والحق ، منكرأ ذاته ، مهتماً بأهم المسائل البشرية العويصة ، محاولاً أن يضع آرائه فى سهولة ووضوح ، ويكاد يكون من المستحيل أن تجد شخصاً آخرأ مثل تولستوى ، أو حتى فى الدرجة التالية له ، رغم أن بعض آرائه فى بعض المسائل الاجتماعية تخالف آراء غيره ، وقد توصف بالغرابة والشذوذ أحياناً . .

لقد سجل هذا الفيلسوف اسمه وأثره فى قلوب الملايين من الناس ، وقد آمن إلى آخر لحظة فى حياته «بمبدأ المحبة» ، وظل يعمل بهذا المبدأ حتى مات ، ولا يوجد شخص يمتثل للثورات والشيوعية العنيفة مثله ، وكان أكبر معارض لآراء « لينين » .

وإنها لسعادة بالغة للهبة البشرية أن نجد فى تولستوى ، الفيلسوف الذى يمثل فعلاً الخلق السامى الرفيع ، والذى لم يخضع إلى سلطان ما سوى سلطان ضميره الصالح .

اعتزافى

لماذا أعىش ؟

ما الغرض من خلقى وخلق كل الناس ؟

ما الھدف الذى ىجب أن أضعه أنا وعىرى للحياة ؟

ما معنى هذا الصراع فى نفسى بین دوافع الخیر ودوافع الشر ؟

لاأى غاية وجد هذا الصراع ؟

کىف ىجب أن أعىش ؟

ما الموت ؟ کىف أنفذ نفسى منه ؟

لقد عثر المؤرخون على ورقة مکتوبة بخط « تولستوى » وهو فى سن الخمسین تقربىا ، وعليها الاسئلة السابقة التى كانت تشغله أیما انشغال ، لمدة سنین طويلة ، إبان كتابة كتابه المشهور « اعترافى » ، فعالجها هى وعىرها من بعض مشاكل الحياة الشخصية العميقة ، ووضعها فى هذا الکتاب بكل دقة وإخلاص ونزاهة ، دفعت بعض مشاهیر کتاب هذا العصر إلى أن یقولوا :—

« هذا کتاب کل ما فیه عظیم ، ىجدر بالناس قرائته ، ولو لم ىکتاب « تولستوى » غیره لظل أعظم کاتب وأعظم مفکر خدم الانسانية .
لهذا ترجمته بتصرف ووضعته فى نهاية هذا الکتاب .

صادق سرمد



تولستوى فى الستة اثنى نوفى فبرها (عام ١٩١٠)

ولد « ليوتواستوى » في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٢٨ بقرية (ياسنايا بوليانا) من أعمال ولاية تولا على بعد ١٣٠ ميلاً من موسكو .

وقد قيل بأن جده القديم « اندريس Indris » كما دلت مسجلات أشرف روسيا نوح من الامبراطورية الرومانية المقدسة (المانيا) الى بلدة شرنجوف بأكرانيا سنة ١٣٥٣ مع ابنه « اندرو Andrew » الى موسكو حيث رحب به الحاكم وخلع عليه لقب « تولستوى » .
وأحد أجداده هو بيتر تولستوى ولد سنة ١٦٤٥ وقام بخدمات جلييلة للحكومة الروسية في عهد القيصر بطرس حتى وصل الى أكبر المناصب وأخطرها ففتح الكثير من الضياع والأراضي . ثم منح لقب « كونت » في سنة ١٧٢٦ وصار أحد سبعة كانوا يحكمون روسيا .

وحدث أن قام خلاف بينه وبين « منشكوف » على من يخلف الملكة « كاترين » فقاومه « منشكوف » وانتصر عليه وتمكن من تجريده من لقب « كونت » ومن أملاكه وتمكن سنة ١٨٢٢ من نفيه الى جزيرة في البحر المتوسط وهو في الثانية والثمانين من عمره حيث مات هناك منفياً بعد عدة سنوات . ومن مصادقات القدر أن منشكوف مات أيضاً في هذا العام منفياً في (سيبيريا) بواسطة نفس

الملك الذي أعانته على الجلوس على العرش .

وقد احتفظ بلقب « كونت » الى ابن ابنه اندرو Andrew الذي تزوج وأنجب ٢٣ ابناً منهم الكونت « ايليا » الجلد المباشر لتولستوى الذي تزوج بالأميرة جرشكوف . وكان رجلاً لين العريكة كريم الطباع موثقاً به ، ولكنه كان مبذراً مسرفاً أضاع ثروته وثروة زوجته فاضطر الى قبول وظيفة محافظ « كازان » ، ولكنه بسبب خصومة بينه وبين أحد كبار الاشراف عزل ظالماً فحزن ومات .

وخلف من بعده ابنته الكبرى عمة تولستوى التي تزوجت بأحد الكونتات كما ترك ابناً آخر هو « نيكولا » والد تولستوى الذي التحق بالجيش وأخذ مرة أسيراً في باريس وظل يرقى حتى وصل الى درجة « لفتننت » في نهاية حرب القرم . ثم تقاعد في سنة ١٨١٩ واشتغل بالأعمال المدنية حتى سنة ١٨٢٤ مجاهداً في سبيل أسرته الكبيرة بعد أن ترك له والده تركة مثقلة بالديون .

وقد قال عنه تولستوى :

« ما أهان والدي نفسه من أجل كبير وما طأطأ رأسه لعظيم وقد ظل محتفظاً بروحه المرحّة وبنقته بنفسه وكرامته مما ملأ نفسي محبة له واعجاباً به . »

أما أم تولستوى فهي ابنة أمير كبير منحدر من أول حاكم على روسيا وتزوجت في سنة ١٨٢٢ في الثانية والثلاثين من عمرها بوالد تولستوى وهو في الثامنة والعشرين وقدمت له بائنة قوامها ٨٠٠ عبداً وضيعة « ياسنايا » وكانت عالية الثقافة تتحدث خمس لغات

وتجديد العرف على البيانو . كما اشتهرت بسرد القصص والحكايات بأسلوب رائع وبالرغم من أنها كانت عصبية المزاج فقد كانت تلك زمام نفسها دائماً وتظهر بالحلم والأدب والكمياسة . وقد امتازت بفضيلة عظيمة هي أن لا تنتقد أحداً وأن لا تدين أحداً كما عرفت بالتواضع الجلم لدرجة أنها كانت تحاول أن تخفي فضائلها حياءً وخجلاً . وقد توفيت في سنة ١٨٣٠ وتركت ابناً ليونولستوى صاحب هذه السيرة وهو في الثالثة من عمره ثم توفي أبوه سنة ١٨٣٧ وهو في التاسعة ثم توفيت جدته سنة ١٨٣٨

وعندما توفي الوالدان كانت هناك سيدة عظيمة مخلصة اسمها « ناتيانا برجولسكي » ولدت يتيمة فعنى بها جداً تولستوى وأحببت هي « نيكولا » حباً صادقاً نزيهاً وتعمدت أن لا تتزوج له لكي تهىء له الفرصة من الزواج بأم تولستوى لأنها كانت غنية . ولما توفيت زوجته عاد نيكولا يطلب يد هذه السيدة فاعتذرت خشية أن يقضى الزواج على حبهما إلا أنها بعد وفاته أصبحت فملاً في مقام الأم البارة بأولاده الخمسة .

وكانت هذه السيدة حازمة رقيقة مضحية معنية كل العناية بتربية تولستوى حريصة على راحته وسعادته وكان يحبها ويحلمها محل والديه ويراسلها في غيابه بخطابات رقيقة طويلة وقد ذكر فضلها في مذكراته وفي إحدى مؤلفاته قال :

« لقد كان لها أكبر أثر في حياتي فمن فجر الطفولة علمتني جمال الحب الروحي لا بمجرد الألفاظ والكلام ولكن بسلوها الفعلي وبمثلها الأعلى . »

وكان تولستوى يحب أخوته وكان حريصا على محبة واحترام
أخيه الأكبر «نيكولا» الذى قال عنه «ترجنيف» أنه لا ينقصه إلا
بعض الرذائل حتى يصبح كاتباً كبيراً !! وكان أخوه الثانى «سيرجى»
أرستقراطياً أميناً مستقيماً معجباً بنفسه وبمendamته وطالما قلده تولستوى
فى سنى شبابه الأولى .

أما الأخ «ديمتري» فكان يقربه فى السن وقد قضيا وقت الطفولة
معاً فى سلام ومحبة . ولم يذكروا تولستوى شيئاً كثيراً عنه .
وقال عن الطفولة : —

« سعيدة . سعيدة بلا حد هذه الأيام ... أيام الطفولة ... كيف
لا يحزن الإنسان على ذكرياتها الجميلة ... إنها تجدد وترفع نفسى ...
وانها أكبر نبع أستمد منه مسراتى ... ما أسعد أيامها التى لا يتخللها
سوى أفراح الطفولة البريئة وعواطف المحبة والصدقة الخالصة .. »
وقد قالت أخت تولستوى عنه أنه كان مرحاً للغاية كثير
الابتسام كثير الأدب رقيق الاحساس ولم يكن مرة واحدة فظاً مع
أحد . وعندما كان يغتاض لأمر ساكنت تتساقط الدموع من عينيه .
وإذا ضايقه أحد من أخوته فانه كان يجرى بعيداً عنهم ويأخذ فى
الصراخ طويلاً وإن سأله أحد لماذا تصرخ ؟ يجيب « أنهم يعاكسونى » .
وكان كثير الصراخ لأقل الأسباب حتى عرف بكثرة صياحه . إلا
أن حياة طفولته كلها كانت على العموم سعيدة . ومن وقت طفولته
الى شيخوخته كان مغرماً بالموسيقى / وقد انتقل وهو فى الثامنة
مع أخوته الى موسكو لتلقى العلم وذلك فى سنة ١٨٣٧

إلا أنه في صيف هذا العام مات أبوه وهو في طريقه الى تولا في عمل خاص وخيل الى تولستوى أن والده لم يمت وأنه سيراه حياً ثانياً في أحد شوارع موسكو . ثم بعد شهر توفيت جدته متأثرة بموت ولدها فكان تعدد الوفيات سبباً في انتباه تولستوى الى الموت والشعور به خصوصاً بعد أن رأى جدته مدرجة في أكفانها وقبل يدها .

وبعد ذلك بقليل وهو في الحادية عشر التقى هو وأخوته بطالب آخر جاء ليحدثهما في أن مدرسته اكتشفت أن الله غير موجود فتناقشا في ذلك وارتاحوا لتلك الفكرة .

وكان كثير الانفعال ويحكى عنه أنه غضب مرة في حفلة من حفلات عيد الميلاد لأنه هو وأخوته أخذوا هدايا أقل قيمة مما أعطى لأبناء الوزراء . وكانت تؤذيه أية ملاحظة عن شكاه لأنه كان يبيع الصورة لخدماء . وكان مغرماً بكلاب والده بالصيد والركوب .

وقد لاحظ مرة على ابنة صديق لوالده وهي طفلة أنها تتحدث إلى أحد الأشخاص وتتودد اليه كثيراً فشعر بالغيرة ودفعها مرة من الشرفة فسقطت وأصيبت بعرج لمدة أيام طويلة ومن المصادفات الغريبة أنه تزوج بعد ذلك بابنة هذه الفتاة وأصبحت بعد ذلك حماته .

وقد أجمعت جميع المصادر على أنه كان فريداً غريباً لا يعمل ما يعمل غيره من الأولاد .

وقد قال عنه أحد المربين الفرنسيين المعروف :- «إن هذا الصغير

له عقل كبير ... إنه مولير الصغير ...»

أما الكتب التي أثرت على تولستوى حتى من الرابعة عشرة
فهي : حكاية يوسف المسديق في التوراة — حكاية الأربعين حراى
والأمير قمر الزمان من كتاب الف ليلة وليلة وبعض حكايات شعبية
أخرى . وبعض قصص من بوشكين وحكاية الدجاجة السوداء .
ومن سنة ١٨٠١ عاش الأولاد مع عمتهم في «كازان» يتعلمون
في مدرستها لمدة خمس سنوات ونصف عدا أيام الصيف فأنهم كانوا
يهودون منها إلى «ياسنايا» .

وفي سنة ١٨٤٢ اختار هو مدرسة اللغات الشرقية ونجح نجاحا
مدهوذا في اللغات العربية والتركية والألمانية والانجليزية ، كما فاز
في المنطق والحساب ، ولكنه خاب في اللغة اللاتينية وفشل في
الجغرافية والتاريخ ونال فيها أضعف الدرجات . وقال أخيرا متهاكما
على نفسه « لقد سئلت أن أذكر الموانئ الفرنسية فلم أعرف ولا
واحدة ! » .

وقال في كتاب (الطفولة) عن نفسه :

« إنى عندما بلغت السادسة عشرة وقد وصلت إلى نهاية الطفولة
أحسست أن أحلامي تدور على المشاعر الأربعة الآتية : —
أولا . حبى (لها) التي كنت متوقعا في كل وقت أن ألقاها
وأن أعرفها وأن أحبها .

ثانيا — أن أكون أنا أيضا محبوبا فقد رغبت أن يعرفنى وأن
يحبنى أكثر الناس وأن أكون مستحقا للمناهم بسبب ما أقدمه
لهم من خدمات .

ثالثاً — شعور قوى لدرجة الجنون برغبتى فى حفظ وافر عظيم
فى شىء ما .

رابعاً — وهو الأهم إحساس مستمر بعدم الرضاء عن نفسى
وبرغبة ملحة فى السعى إلى الكمال الخلقى ولعل هذا الشعور هو الذى
كان أساساً لمبادئ المستقبل وداعياً لتفكيرى فى نفسى وفى الجنس
البشرى وفى عالم الله كله .

وكان فى مدة إقامته فى الجامعة بكازان متمتعاً بسائر ملذاته وشهواته
خصوصاً وأن الوسط فى هذه البلدة كان يدعو إلى اللهو والرقص وسائر
المتع حتى أقبل على هذه الجامعة كثير من أبناء الأغنياء والأشراف
ممن كانت تتسامح الإدارة فى قبولهم فأتخذوا هذه السبلة مسرحاً
للهموم وفسادهم ، وقد رسب فى نهاية العام ونسب رسوبه إلى عنيت
من جانب أحد المدرسين المتحذنين .

وفى هذا العام التحق بكلية الحقوق فلم يعن بالدراسة طول نصف
السنة الأولى لانشغاله بعلاهيته وشهواته المحيطة به فى كازان ولكنه
بدأها بعد ذلك بشىء من الاجتهاد ، وكان ميالاً إلى القانون المقارن
والقانون الجنائى ، وقد عنى عناية فائقة بدراسة عقوبة الاعدام ، إلا
أنه كان يهمل العلوم الأخرى ، ووجد أن الأساتذة الألمان لا يجيدون
اللغة الروسية ، وأدرك عدم فائدة دراسة التاريخ القديم فأهمله وأهمل
كذلك سماع محاضرات الدين . إلا أنه كان شغوفاً بالعلوم والكتب الأخرى .

٢

وفي مايو سنة ١٨٤٧ ترك الجامعة ووقف عند هذا الحد من
التعليم الجامعي .

وكتب بعد ست عشرة سنة من هذا التاريخ بأن عملية
الامتحانات سقيمة وأن مناهج التعليم ليست فقط غير مفيدة بل
هي ضارة وكان معنياً في هذا السن بلباسه وهندامه ومظهره
الارستقراطي .

وفي سنة ١٨٤٦ قسمت التركية بينه وبين أخوته فكان نصيبه
ضيعة (يامنايا بوليانا) وأربع ضياع أخرى مساحتها ٣٤٠٠ فدانا
روسيا و ٧٣٠٠ فلاحاً عدداً زوجاتهم وبناتهم فأنصرف الى إدارة هذه
الأموال مهتماً دائماً بأبنته ومقام أسرته الكبير .

ومن مارس سنة ١٨٤٧ بدأ تدوين مذكراته الخاصة وفي أول
صفحة منها يقول عندما كان في مستشفى كازان :-

« إني وحيد وإني أرى الوحدة جميلة لمن يعيش طويلاً وسط
الجماعات ... إنه لا يسر للشخص أن يكتب عشرات المجلدات عن
الفلسفة والأخلاق من أن يطبق مبدأ واحداً منها في الحياة العملية .
وبعد شهر نجده يكتب :- « . أحس أن سؤالاً يواجهني عن
هدف الحياة ... وإني أظن أن الهدف هو أن نساعد وأن نعمل بأقصى
قوة في الوصول الى « الرقي العام » و « المدنية العامة » .

وأن هذا السؤال نفسه قد أزعجه بشكل عنيف عندما بلغ الحسين من عمره فبحثه بحثاً مستفيضاً عميقاً نزيهاً في كتابه «اعترافي» ووجد له جواباً آخر كما ستري .

ثم قال « إني أحسب نفسي أتعس إنسان ان لم أجد لنفسى هدفاً عاماً رفيعاً أهدف اليه ولكنى متى وجدته فستصبح حياتي نشيطة عاملة بكل قوة في سبيل بلوغه » .

وقد وضع لنفسه في هذا الوقت القواعد الآتية وكتبها ليحاول السير بمقتضاها قال : -

- (١) على أن أقوم بما أنوى عمله رغم كل الصعوبات .
 - (٢) أن أقوم به على أحسن حال .
 - (٣) أن لا أرجع الى الكتب فيما أنساه بل أجال الى ذاكرتي .
 - (٤) أن أعمل بكل عقلي فيما أقوم به .
 - (٥) أن أقرأ دائماً بصوت مرتفع .
 - (٦) أن ألفت نظر الغير ممن يحاولون مقاطعتي في دراساتي وتفكيري وأن أرجوهم أن لا يقاطعونني .
- وبعد ترك الجامعة مباشرة أقام في « ياسنایا » عامين وأعد قائمة بالكتب التي يجب الاطلاع عليها وهي : -

القانون - الطب العملي - اللغات - الزراعة علماً وعملاً -
 التاريخ - الجغرافيا - الاحصاء - الحساب - الموسيقى -
 الرسم - العلوم الطبيعية . وقرر أن يكتب مذكرات عما يقرأ وأن يضع لنفسه قواعد خلقية معينة الا أنه أهمل ما تعلمه قبل سن

الرابعة عشرة من قواعد التدين . وقد كتب عن ذلك في « اعترافى »
 كتابة مفصلة غاية في الدقة والجمال والصدق ولكنه رغم ذلك كان
 يلجأ الى الصلاة بحكم العادة في ساعات ضيقه وحاجته ليطلب من الله
 المعونة كما دلت على ذلك مذكراته في هذا الوقت .

واليك بعض الكتب التي كان يطلع عليها بين سن الرابعة عشرة
 والعشرين :-

موعظة المسيح على الجبل و « روسو » وديكنز و بوشكين و شيلر
 وجوجول و ترجنيف .

وقد تأثر جدا بكتب روسو وفولتير :

وظل في « ياسنايا » يدرس ويعمل في حقوله ويفكر في إصلاح فلاحيه
 الى أن سافر الى موسكو سنة ١٨٤٨ ثم ذهب الى بطرسبرج سنة
 ١٨٤٩ فأحبها وأقام فيها اذ وجدها أحسن البلاد مقاما للشبان وانغمس
 في سائر الملاهى وانصرف بكليته الى الخمر والقمار والنساء وبدد الأموال
 الطائلة حتى اضطر الى الاستدانة عدة مرات والى أن يطالب من أخيه
 « ديمتري » أن يسدد عنه الديون . ثم أحس بالخلو حتى ساءت صحته
 وفي سنة ١٨٤٩ أنشأ مدرسة لتعليم الفلاحين في ياسنايا وأنفق
 عليها من ماله الخاص ولكنها أغلقت بعد عامين بسبب سوء حالته
 المالية . وكان شيقا في حبه للنساء حتى قال :- « لاشيء أشد وأشق على
 من مجاهدة ميلى الى النساء » .

ثم قال : « انى أعيش كالبهائم وأصبحت حالتى فى غاية الانحطاط »

وفي سنة ١٨٥١ عاد أخوه الأكبر « نيكولا » الذي كان ضابطا في الجيش فهاله حال أخيه الأصغر تولستوى وأحزنه أن يراه غارقا لهذا الحد في لعب القمار ومئات أنواع اللذات فحب اليه الرحيل معه الى بلاد القوقاز واستصحبه فعلا في سنة ١٨٥١ الى هناك بعد أن قضيا حوالى شهر فى طريقةهما اليها يتناقون من بلد الى آخرى .

وفي هذه البلاد أقام عامين ونصف وأعطى عهداً على نفسه أن لا يعود الى القمار وأن لا يمسك هذه الأوراق الملعونة ولكنه وان لم يف بالعهد الا أن صحته تحسنت تحسنا ظاهرا أو شعرا بالنشاط يعود اليه فقام بعدة رحلات للصيد وأعجب بموقع هذه البلاد وبمنظرها الجميلة كما أعجب بأهلها وبأخلاقهم وأحوالهم .

وفي سنة ١٨٥١ ألف كتابه « الطفولة » .

وقد عرض عليه أخوه أن يلتحق بجيش القوقاز فوافق على ذلك وانخرط فى سلك الجنديّة فى فبراير سنة ١٨٥٢ والتحق فعلا بفرقة المدفعية بجيش القوقاز بوساطة أحد أقاربه الذى كان يشغل مركزا كبيرا فى الجيش وقد تعرض للموت والأسر عدة مرات ولكنه لم ينقطع عن النساء والقمار والخمر وان كان قد أدرك شرها وخطرها وعييبها . وقد أحب مرة حبا عذريا فتاة فقال فيما بعد : -

« ان أعظم ما جعل لهذه العاطفة سحرا جميلا فى نفسى هو أنى كنت أجهل الحب ولا أعرفه وانى لم أذكر لهذه الفتاة ولا مرة كلمة حب واحدة » .

وقال عن هذه العلاقة عندما كبر : - « ان هذا الذكر يات ظلمت عزيزة لادى »

وكان يعمل في القوقاز بين آن وآخر في الكتابة والترجمة ثم أحس أن عناية الله هي التي دفعته الى هذه الأمانة حيث شعر بتحسن كبير في جميع النواحي وبدأ يتجه انجاهات صالحة .

وكان يحب لعبة الشطرنج ويلعبها كثيرا بشغف واهتمام .
وقد دون في مذكراته في هذا العام هذه العبارة : - « ان الغرور هو أقل الرذائل أذى للغير ولكنه أكبرها افساداً لنفس الغرور » .

وفي سبتمبر سنة ١٨٥٢ نشر كتابه « الطفولة » في إحدى المجلات فصادف اقبالا هائلا وشهرة فائقة حيث أعجب به كبار كتاب روسيا مثل « دستوفسكي » و « ترجنيف » وغيرها واعتبروه من أنفس المؤلفات وأعذبها لفظا وأوسعها خيالا .

ويلاحظ أنه استطاع طول عام ١٨٥٢ أن يمسك عن لعب القمار . وقد طافت بعقله أحيانا بعض تأملات عميقة وأفكار دينية متناقضة ولكنها كانت عرضية ومؤقتة فلم يعرها اهتمامه وعنايته في هذا الوقت :

وإليك بعض مذكراته في سنة ١٨٥٢ :

٣٠ مارس : - « ان أهم آمالي أن يكون لي ايمان في شيء ما » .

٢٩ يونيه : - « الضمير هو أحسن مرشد نستطيع الاعتماد عليه

ولكن أين العلامة التي تميز صوته الحقيقي عن بقية الأصوات الضالة ؟

ان الكبرياء والكرامة تتحدث أحيانا بصوت مثل صوت الضمير ... »

« ان الذي يهدف الى سعادة نفسه ردىء والذي يهدف الى ثناء

الناس ضعيف والذي يهدف الى سعادة الآخرين فاضل كريم وأما

من كانت غايته مرضاة الله فهو عظيم .

كل ما كان رديئا لغيري فهو رديء لِنَفْسِي وكل ما كان حسنا لغيري فهو حسن لِنَفْسِي ...

« ان الضمير الصالح ينادي بأن غاية الحياة هي الصلاح .

« ان مجرد وجود النفس لهو دليل على خلودها - اننا نرى الدليل

القاطع على فناء الجسد ولكننا لا نجد دليلا واحدا على فناء الروح .

١٨ يوليو : - « ألا أستطيع أن أدرك الله بوضوح ؟ تلك أعظم

أمانى ... » .

« لماذا أعطى للانسان أن يفكر في الله وفي عظمته الانهائية وفي

الخلود ؟ » .

كل هذه الأفكار تدل على سبق انشغاله بهذه التأملات وبهذه

الشكوك في فترات متقطعة في مدى ثلاثين سنة أخرى كما سترى .

وفي مارس سنة ١٨٥٣ نشر قصته « الغارة » . ويلاحظ أن

الرقابة على الصحف والكتب لازمته من أول عهده حتى آخر حياته

فكانت الحكومة كثيرا ما تمنع مقالاته وكتبه وتصادر مؤلفاته .

وفي هذه السنة عاد إلى القمار وإلى اللهو وحتى شهر يونيه من

هذا العام كانت حياته غير منتظمة ولكنه في أواخر العام عاد إلى

العمل في جد واجتهاد وقدم استقالته من الجيش لأنه كرهه ولم ينل

فيه رتبا عالية ولأنه حن إلى حياة السلام والهدوء . وفي ديسمبر سنة

١٨٥٣ كتب إلى أخيه وهو في الجيش يقول :

« إني أتوقع أن أغير حياتي هذه التي لا ترضيني في السنة القادمة

ضباط سخفاء وأحاديث سخيصة ولا شيء غير ذلك ... آه لو
أجد ولو شخصا واحدا أفتح له قلبي إني أقضي طول يومي لو جدي
في الصيد - هذه هي تسليتي الوحيدة ولكنني لا تمدني بالسروور الحقيقي
الذي أنشده»

وعلى العموم فقد كان وهو بالقوقاز في آخر مدة إقامته بها متنبها
إلى عيوبه شاعراً بعدم الرضاء عن نفسه .

وعلى أثر إطرائه بمناسبة كتاب « الطفولة » أحس بالتشجيع
فأخرج « صباح المالك » و « الصبيا » و « الشباب » و « الفاتحين » التي
وصف فيها بلاد القوقاز وأهلها وحياته فيها .

وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٧٥٣ كتب في مذكراته - : « إن الخير في
الفلاحين وفي عامة الناس هو أكثر من شرهم وليس من المروءة أن
نتحدث عن فضائلهم كما نتحدث عن فضائل الموتى » .

ثم كتب في نوفمبر - : « لا بد أن أسعى وراء الشهرة مهما
كافني ذلك » .

وكتب - : « إني أعجب لهؤلاء الناس الذين يرضون ويقنعون
بمجرد التحدث في الكلام الفارغ الخالي من التفكير والتعقل » .

وكان يلاحظ نفسه ويتنبه إلى سيره بدقة حتى وضع هذه القواعد -
« عندما تشعر بالضيق أو الغضب ابتعد عن الناس خصوصاً أهل
بيتك والمقربين منك » .

اجتنب الأشخاص الذين يحبون المسكر ولا تشرب البهيد
ولا الخمر .

اجتنب معاشره السيدات الفاسدات .
قاوم شهواتك بالعمل الجسماني الطويل .
أكتب عدد المرات التي تفشل فيها في تطبيق هذه القواعد .
وقال في ديسمبر سنة ١٨٤٣ : « إن كل كتاب لكي يكون
صالحاً نافعاً يجب أن يكون خارجاً من قلب المؤلف » .

وفي يناير سنة ١٨٥٤ غادر الجيش وعاد إلى ياستايا حيث وصلها في
٢ فبراير وقضى بها ثلاثة أسابيع هادئاً مع قريبته المحبوبة Tatiana
وأخوته الثلاث وبعض الأصدقاء . وفي أثناء رحيله اليها صادفته زوبعة
ثلجية شديدة كان لها الفضل في إخراج أحد كتبه المسمى « الزوبعة
الثلجية » الذي طبع بعد ذلك بعامين والذي كان له أثراً كبيراً فيما كتبه
بعد ذلك بأربعين سنة .

وفي مارس سنة ١٨٥٤ التحق بالجيش ثانياً ووصل إلى بخارست
وحضر موقعة سلاسترا أثناء حرب روسيا وتركيا وعاد إلى بخارست
حيث وصف حياته في الثلاثة شهور الماضية حتى ١٥ يونيو قائلاً :
« لقد وقعت مع النساء عدة مرات وكذبت كثيراً وقامرت
كثيراً حتى اضطررت إلى اقتراض المال عدة مرات » . وبعد ذلك يقول :
« عند ما أخلو إلى نفسي أشعر بندم على سوء حالتي وأحس
برغبتى في الكمال ولكن معنى الكمال مختلط على غير مفهوم لدى وغير
مستقر ... » .

وفي ٧ يوليو كتب :-
« يعوزني التواضع . من أنا؟ . أنا ابن يتيم لضابط متقاعد .

تركنت وأنا في السابعة (الحقيقة التاسعة) لعناية السيدات والأجانب
لا مركز اجتماعي . ولا درجة علمية تشرفني . ولا مبادئ لي ولا
أصدقاء . ولا أعرف كيف أواجه الحياة . قضيت أياي في العيب
وأنفقت أموال في المجون . وهربت الى جيش القوقاز لأتخلص من
ديوني وعاداتي القبيحة . ثم إلى قبيل الشك ككثير الانفعال غير متمسك
كثير الحياء قليل الشجاعة كسول للغاية . لم أتعلم إلا القليل من هنا
ومن هناك ومع ذلك كله فاني متكبر القلب شامخ الأنف مغرور
بنفسي » .

ويلاحظ أنه قد بالغ في إظهار عيوبه شأن الذين يحسون بالندم
أما الحقيقة فانه كان متحملا بكثير من الفضائل كما كان معيبا بكثير
من الرذائل .

وفي ٧ نوفمبر نقل الى سيفاستبول قائدا لفرقة المدفعية فخرب
بكل بسالة وإقدام وبعث روح الحمية والشجاعة في زملائه كما كسب
محبة الأصدقاء والاخوان ولم ينكر على الانجليز شجاعتهم بل أطراها
وأثنى عليها .

وان تلك الأيام التي قضاها تولستوى في هذه الحرب وفي الوقوف
على سائر نواحيها ورؤية الجرحى وآلامهم وسماع أناتهم خصوصا
أثناء إجراء العمليات بغير مخدر - كل هذا شحذ ذهنه وقلبه الى تأملات
عميقة ملأت عليه نفسه بعد ذلك بفيض من المشاعر والعواطف
المختلفة .

وفي سنة ١٨٥٥ ظل في سيفاستبول يشكو من القمار والنساء

وعلى أثر موقعة حربية ناجحة في البحر الأسود حاول كثير من الضباط والجنود أن يؤلفوا أغنية كالعادة ولكنهم لم ينجحوا إلا أنه في اليوم الثاني قدم لهم أغنية جميلة فرحوا بها وأخذوا يرددونها إلى أن انتشرت في كل أنحاء روسيا .

وما انتهت حرب القرم في حوالى أكتوبر سنة ١٨٥٥ حتى عاف الحرب وثار عليها وعلى مبرراتها ثم عاد في نوفمبر إلى بطرسبورج بعد أن قضى في الحرب التركية عاماً ونصف . وفي أثناء حصار « سيفاستبول » الذى دام إحدى عشر شهراً والذى كان عنيفاً مزعجاً قام في ديسمبر سنة ١٨٥٤ باخراج روايته المشهورة « سيفاستبول » التى نال بسببها شهرة عظيمة جداً حتى أن القيصر نيكولا الأكبر أعجب به وخشى على حياته فأصدر أمراً خصوصياً سرىاً بملاحظة إبعاده عن مواطن الخطر ليحتفظ بهذا الرجل العظيم .

وقد قال ترجميف عن هذه الرواية ما يأتى :

« إنها مذهشة ... إن الدموع كانت تتساقط من عيني حين كنت أقرأها . وكنت أصبح بين آن وآخر بصوت مرتفع بعبارات الاعجاب مما فيها » .

وفي ٥ مارس سنة ١٨٥٥ كتب : « إنى أرجو أن يجمع الناس جميعاً في سائر أقطار الأرض معتقداً واحد ودين واحد لا أثر للتعصب فيه : دين لا يقصر سعادة البشر على الحياة الأخرى المرجوة ولا يكن دين يمنح السعادة ويمىء أسبابها للناس فى « هذه الحياة الدنيا » .

وبعد أن أقام قليلاً فى بطرسبورج ظهرت حركة إصلاح كبيرة

شغلت أفئدة معظم الناس في بدء حكم إسكندر الثاني كانت تدور على تحرير العبيد والفلاحين والغناء الرق فانتصر لها عظماء الكتاب بكتابة المقالات الشائقة والقصص الرائعة في معظم صحف روسيا مطالبين بتمتطي القوة بالغناء هذا الرق وما كان من تولستوى إلا أن هب في نشاط وغيرة فذة يكتب قصته المؤثرة التي سماها « بوليكوشكا » يشرح فيها مساوئ الاستعباد وما يعانيه الأرقاء من عنف وعنف وتمس مما كان له وقعاً هاماً وأثراً فعالاً انتهى بصدور أمر عال في سنة ١٨٦١ بالغناء الرق من روسيا.

وفي حوالى نوفمبر تعرف تولستوى في بطرسبورج بالشاعر «فت» الذي كان ضابطاً شاباً متحلياً بكثير من الصفات الجميلة فأصبح من أعز أصدقائه وأقربهم إليه.

وكان إخوان تولستوى يلاحظون عليه أنه يحب المعارضة ولا يثق باخلاص الناس ولا بحركاتهم الإصلاحية ماداموا هم غارقين مثلاً في القمار أو اللهو أو النساء وما كان هو ليدعى أنه مصلح مادام مثقلاً بأهوائه وبعيوبه.

وفي اليوم الذي وصل فيه إلى (بطرسبورج) من (سيفاستبول) ذهب في التو إلى (ترجنيف) الذي رجب به واستقبله استقبالاً كريماً وعرفه بكبار الكتاب والمؤلفين مقدراً كفاءته الفائقة في الكتابة والأدب والفن.

وفي سنة ١٨٥٦ مات أخوه دميتري فلم يحزن عليه كثيراً وكان لازال إلى الآن يلعب القمار ويخالط النساء ويشرب الخمر إلا أنه كان

معنياً بفلاحية وبراحتهم وبالتفكير في طرق معاشهم وتملكهم الأرض .
وفي مايو غادر « بطر - بوج » الى « ياسنايا » وفي طريقه نزل الى
موسكو وزار الدكتور (بهرز) ولبت عنده ضيفاً بعض الوقت .
وقال على أثر انتهاء الزيارة : - « إن الأطفال والفتيات كانوا يخدموننا
باخلاص ومحبة ... ما أجملهم وما أعزهم » .

وبعد ست سنين كانت إحدى هاته الفتيات هي زوجته .
وفي هذا الوقت وهو في موسكو أحب إحدى الأميرات أخت
أحد أصدقائه وتعلق بها بعض الوقت .
وقبل زواجه اتصل بفلاحة اتصالاً غير شريف وأُنجب منها طفلاً
صار فيما بعد سائساً عند أحد أبنائه .

وكان تولستوى كثير التفكير في الزواج راغباً فيه ليستطيع
أن ينجو من كفاحه مع نفسه ويتخلص من سقطاته الكثيرة
مع النساء .

وأشيع قبل زواجه بأن فتاة اسمها (فاليرا) كان هو وصيها عليها
كانت مخطوبة له لوجود علاقات ود ظاهرة بينهما وتبادلها الخطابات
الغرامية المختلفة ولكن هذه الاشاعة كانت غير صحيحة وقد قال في
خطاب لأخيه في ١٧ ابريل سنة ١٨٥٧ أنه لم يكن يحبها حباً حقيقياً
ولم يكن راغباً أبداً في الزواج بها .

وفي أثناء اقامته بياسنايا سنة ١٨٥٦ لازم الفراش مريضاً وقتاً
طويلاً وفي ٢٠ نوفمبر من هذا العام ترك الجيش نهائياً برتبة (ليفتنانت) .
أما الكتب التي كان لها عليه تأثير في هذا الوقت بعد تركه

الجامعة وقبل زواجه فهي مؤلفات «جوته وفيكتر هوجو وأفلاطون والألياذة ثم موليير ونكري. أما «شكسبير» فلم يكن على العموم من الأشخاص المحبين إليه بخلاف ذلك تقدير معظم الكتاب والناس . وقد كان أيضا لارتباطه بصداقة «فت» كثير من الأثر على نفسه . أما دوستفسكى فكان في هذا الوقت في منفاه بسبيريا فلم يقابله تولستوى ولم يتعرف إليه .

وفي مرة بينما كان يسير مع «ترجنيف» رأيا حصانا يركب في الحقل فتخيل تولستوى حياة هذا الحصان واعمال غرائزه فيه ووصف ذلك وصفا دقيقا بديعا فعلق «ترجنيف» على ذلك مازحا بأن تولستوى لابد أن كان في وقت ما حصانا ..

وكان معنياً بأن يكون قوى البدن فارس كل أنواع الرياضة البدنية وظل كذلك الى آخر أيامه كما كان مغرما الى حد كبير بالعزف على البيانو .

وقد وصف أعوامه العشرة من بعد سن الرابعة والعشرين بأنها كانت سنين فساد وضلال وزيف .

وقد سافر الى باريس فوصلها في ٢١ فبراير سنة ١٨٥٧ حيث قابل «ترجنيف» واختلفا وكانا على وشك المباراة لولا أن صديقا تدخل بينهما . وبقي في باريس اسدة خمسة أسابيع يتردد فيها على القهاوى والمراقص والتياترات كما زار فرسايل وكلية البوربون وكلية فرنسا وبعض أمكنة الفن والموسيقى والأندية وسائر محال اللهو . وفي مارس سنة ١٨٥٧ تحسنت علاقته مؤثما مع «ترجنيف» فصحبه الى ديجون

وفي ٦ أبريل سنة ١٨٥٧ شاهد تنفيذ عقوبة الاعدام في ميدان
حام بياريس فأهلب ذلك خياله وحزن حزناً عميقاً حرمه النوم لبضع
أيام وكتب عن ذلك في كتابه (اعترافى) يصف تأثره البالغ ورأيه
في هذه العقوبة وقد بلغ به الحزن والألم أن كره بارييس وهجرها .

وقال : - « ان الحكم الواحد باعدام شخص يشترك في إصداره
وتنفيذه الكثيرون من الرجال المثقفين هو أشد إفساداً وأدعى الى
التوحش من مئات وآلاف الجرائم التي يرتكبها القتلة العاديون
غير المثقفين وهم تحت تأثير انفعالات شخصية جامحة » .

وفي ٩ ابريل ذهب الى (جنيف) حيث التقى ببعض أقربائه
وقضى بينهم بعض الأيام مستريحاً متنزهاً متنقلاً على البحيرات والجبال
مستمتعاً بسائر مناظر الطبيعة البديعة ولكنه كان يشعر حياء ذلك
بشيء هام ينة صمه فقال : -

« إلا أن هناك شيء بعيد ... بعيد جداً ... جميل ... جميل للغاية
مختلف وراء السحب يحرمنى شعورى ببعده عنى أكبر مسراتى
لأنى أحس بأنى لست جزءاً منه ولأنى أحس بأنى لست منسجماً مع
هذا الجمال الفائق للطبيعة ... إنى غريب عنه ... »

وفي يونيو ذهب الى تورين ثم الى برن ثم زيورخ وبادن بادن
حيث لعب القمار وفقس كل ما كان معه من المال حتى اضطر الى
الاقتراض من آخرين من بينهم « ترجنيف » . ثم ذهب الى فرانكفورت
ودرسدن وبرلين وقرأ فى هذه المدة الإلياذة والانجيل وتأثر منهما
للغاية ثم عاد الى روسيا فوصل الى قرية « ياسنايا » فى ٨ أغسطس وبقي

بها بعض الوقت مستريحاً يعزف على البيانو ويستمتع بالموسيقى .
إلا أنه كان محسب بين آن وآخر بالحزن واليأس لأنه لم يعرف
بعد غاية حياته ولا هدفاً لآماله ورجائه مما دفعه الى مغادرة القرية
الى بطرسبورج .

وكان لا يزال رقيقاً معنياً بوجهاته وارشاداته معتمداً على
مقام أسرته يصرف معظم الوقت في المسارح والمراقص وسائر أنواع
الملهى .

وفي فبراير سنة ١٨٥٨ عاد الى « ياسنايا » ليقضى فيها فصل
الربيع الذي كان يحبه من أعماق نفسه وتردد في الوقت نفسه على
موسكو مهتماً في هذه الأيام بفلاحيه وبالعطف عليهم وعلى مصالحهم
وعلى حرياتهم ومهتماً بشئون الزراعة ومحتفظاً بمظهر السيادة والسلطة .
وفي هذا العام كتب كتابه (السعادة العائلية) الذي طبع في
سنة ١٨٥٩ . واهتم اهتماماً خاصاً بالموسيقى وفي ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٥٨
كاد دب يقتله ويقضى على حياته .

وقضى أوائل سنة ١٨٥٩ في موسكو حيث أصبح عضواً في
جمعية هواة الأدب . وفي خريف هذا العام قام بإنشاء المدارس لتعليم
الفلاحين والعناية بتربيتهم .

وكان معروف في وسط أصدقائه بأنه شاذ شديد التمسك بأفكاره
وبمحاولة تنفيذها .

وفي ٣ يوليو سنة ١٨٦٠ غادر بطرسبورج الى أوروبا ليجت عن
أحسن وسائل التعليم التي تناسب روسيا فرار برلين وزار سجونها

وعجب لوضع الناس في السجون ووصف هذا العمل بأنه عمل مادي ميكانيكي صرف يراد به إصلاح نفوس الناس وأرواحهم !!

ثم غادر برلين الى لينزج وتفقد مدارسها ولم يرتج اليها فسادها الى درسدن وقابل هناك الروائي الشهير (أوربانخ) وأعجب به كل الاعجاب وبعد ثلاثة أيام ذهب الى (كيسنجين) حيث كن أخوه نيكولا يقيم مريضاً وهناك قرأ (بيكون) و(لوثر) وتعرف الى (فروبل) الذي كان معنياً بشئون الثقافة المدرسية مثل عمه واضع نظام (رياض الأطفال).

ثم زار خصيصاً بعد ذلك بلدة «ورنبرج» ابرى البلدة التي حجوز فيها «لوثر» العظيم عندما بدأ حركته الإصلاحية.

وفي ١ أغسطس لحق بأخيه نيكولا المريض في «هيرز» الذي ساءت حالته أكثر ثم توفي في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٦٠ بين ذراعيه وكان لوفاته أثر كبير في نفوس الجميع لأنه كان حقيقة طيبها كريماً محبوباً من جميع عارفيه.

وبمناسبة هذه الوفاة شغل عقل تولستوى بالتفكير في الموت ولماذا مات أخيه مبكراً؟ وإلى أين ذهب؟ وكتب إلى صديقه «فت» في ١٧ أكتوبر:

«ان كان الموت لا يبقى على شيء ما فأسوأ هذه الحياة... لماذا السعي؟ ولماذا الجهد إن كان كل أثر لأخي نيكولا قد زال...» وبعد ذلك بشهر كتب: — «ان لم تكن هناك حياة أخرى

فليس هناك عدالة .

ومع ذلك فقد انشغل عن هذه التأملات بأعماله الكثيرة ولم يرددها بينه وبين نفسه إلا في فترات متقطعة في مدة ربع قرن عاد بعد نهايته إليها ووجه إليها أقصى عنايته وأقصى جهده .

وستقرأ كثيراً في « اعترافى » عن هذا المعنى الجليل .

وبعد وفاة أخيه ظل تولستوى في « هيرز » بفرنسا مع أخته وأولادها الثلاثة في دار كانت تسكنه عائلات أخرى فجمعتهم الصداقة وظل هو يصرف معظم وقته مع الأطفال يلاعبهم ويبادلهم الأحاديث ويلاحظهم ويحبهم .

ثم غادر البلدة إلى « جنيف » وإلى « نيس » ثم إلى « لوسرن » و« فلورنس » و« روما » و« نابلى » .

ثم ذهب إلى « باريس » للمرة الثانية في يناير سنة ١٨٦١ عن طريق مرسيليا وكان وهو في كل هذه

البلايا يدرس أنظمة التعليم في المدارس وسائر المعاهد ثم غادر فرنسا إلى لندن مع توجنيف حيث أمضى هناك ستة أسابيع متأثراً معظم الوقت بالآلام في أسنانه . وبالرغم من طول ماقاسى من الآلام فإنه لم يعرض نفسه على طبيب لأنه كان يرى أن طب الأسنان غير طبيعى . كما أن أطباء الأسنان لا يمكنهم أن يقوموا بعملهم بكل دقة وأن الناس منذ أقدم الأزمنة عاشوا بغير أطباء أسنان . وأن من يستطيع أن يتحمل الألم فلا بد أن يشفى بغير طبيب أسنان .

وقد زار في لندن مجلس العموم وسمع اللورد « بالمرستون » يتحدث ثلاث ساعات متوالية الى النواب ، وزار المؤسسات التعليمية ودرس أنظمتها وفي لندن علم أنه عين قاضيا على اقليمه للفصل في المنازعات بين الفلاحين والسادة . ولعل تلك الوظيفة كانت هي الوحيدة الرسمية التي شغلها تولستوى بعد تركه الجيش .

وفي ٣ مارس سنة ١٨٦١ وهو اليوم الذي أُصدر فيه اسكندر الثاني مرسوما باطلاق الحرية للفلاحين في روسيا ، سافر تولستوى الى « بريسل » حيث تعرف إلى « برودهن » المؤلف لكتاب « ماهي الملكية » ، ثم (ليول) البولندي المشهور الذي اشترك في ثورة سنة ١٨٣٠ والذي كان يعيش وقتئذ في حالة فقر شديد .

وفي أثناء إقامته في « بريسل » كان يكتب في روايته (بوليكشكا) التي مر ذكرها والتي ندد فيها بالاستعباد وسلطان الملاك على فلاحيههم وظلمهم لهم .

وفي ٢٣ ابريل سنة ١٨٦١ عاد الى روسيا ساراً ثانياً بالمانيا بعد رحلة دامت عشرة شهور باحثاً عن خير الوسائل التعليمية التي يمكن تطبيقها وإدخالها في روسيا . ولقد أعجب في النهاية كل الاعجاب بالنظم الألمانية فأمن في دراستها وزار جامعاتها وسجونها وأندية العمال فيها وتأثر إلى حد كبير بأراء (أورباخ) عن التعليم القروي وراقه جداً مارآه في رياض الأطفال من العناية بانماء قوى الأطفال من سن الثالثة الى السابعة من النواحي الثلاث الجسمية والعقلية والأدبية .

وبعد عودته استقر به المقام في «ياسنابا» وبعد قليل اجتمع في منزل صديقه «فت» بترجنيف في مايو سنة ١٨٦١ فاحتدم الجدل بين الاثنين على موضوع متعلق بالتربية ، فما كان من ترجنيف إلا أن خرج عن طوره وأهان تولستوى وقال له « ان لم تكف عن الكلام فاني أهشم رأسك » فخرج الصديقان غاضبين متكاهنين ثم تبادلا بعد ذلك خطابات شديدة وتبادلا الدعوة إلى المبارزة ثم اعتذر ترجنيف إلى تولستوى إلا أنهما ظلّا مترددين بين الخصام والسلام مدة طويلة رغم توسط صديقهما « فت » عدة مرات .

وقال ترجنيف أثناء هذه الخصام عنه :

« انه بنى القومية الروسية فيجب على أن أحبه وأن أحترمه إن

لم يكن من أجله فمن أجل روسيا المعبودة .

ولم تكن أسباب هذا الخلاف هي الحسد ولا الحقد ولا المنافسة لأن ترجنيف كان يكبره بعشر سنوات وكان كاتباً مشهوراً ، في حين أن تولستوى لم يكن يعد منافساً له ولا مشتركاً معه بنصيب وافر في الحركة الأدبية ولكن السبب كان لأن تولستوى كان يتطلب السكال من عظماء الكتاب والرجال وكان يهاجمهم ويحقد عليهم إن سلكوا سلوكاً بهبط بهم عن المستوى الرفيع اللائق بمراكزهم رغم أنه هو نفسه كان غارقاً في الرذائل ولكن عذره في ذلك أنه لم يحسب نفسه عظيماً ولم يدع ذلك ولم ينظر إليه أحد هذه النظرة في ذلك الوقت . ومما لا شك فيه أن ترجنيف كان هو المخطيء في المشاجرة الأولى التي حصلت في منزل صديقيهما «فت» والتي اعتذر عنها ترجنيف عدة مرات بأنه كان تحت تأثير انفعال وقتي شديد غلبه على أمره .

أما عن وظيفة القضاء فقد وليها بنتهى المهمة وعمل فيها بمنتهى الحق والعدل والصبر والحلم والأدب في سائر المنازعات بين الفلاحين والملاك رغم ما كان يثيره الفلاحون من عناد ووقاحة أحياناً ، ورغم ما كان يثيره الملاك من صعوبات كثيرة مختلفة ، ورغم إرسالهم خطابات عديدة له بالتمهيد إلا أنه لما رأى أن معظم أحكامه تلغى في الاستئناف بغير حق لمصلحة الملاك طلب إقالته لأن القضاء أصبح عليه مستحيلاً فاستقال من هذه الوظيفة ولكن الحكومة عللت الاستقالة بسبب سوء صحته في ٣٠ مايو سنة ١٨٦٢ .

وفي الشتاء كن مشغولا بإدارة حركة تعليم أولاد الفلاحين في
مدرسة « ياسنايا بوليا » وغيرها .

١٨٦٢ كما عني في فبراير سنة ١٨٦٢ بإنشاء صحيفة « ياسنايا
بوليانا » نشر فيها آراءه عن التعليم ولكنها كانت
محدودة التوزيع فضحت في سبيل نشرها بكنير من المال . ولكنها
لم تصدر أكثر من اثنتي عشر مرة .

وكانت أم أهدافه في التعليم هي (أولا) أن يتعلم الطفل بدون
أن يعاقب . (ثانيا) أن يتعلم لينال شيئا من الجزاء . (ثالثا) أن يتعلم
ليصير أفضل من غيره ممن لا يتعاملون . (رابعا) أن يتعلم ليحصل على
عمل مفيد ينتج من ورائه خير للعالم .

وقد انتقد فكرة أداء الامتحانات وكان يرى أن يعطى الحرية
للطلبة لكي يتعاملوا ما يشاءون وليس للأساتذة أن يكرهوهم على
تعليم أمر معين بذاته . ورأى الخير في الاستغناء عن هذه الأنظمة
واللوائح التي تجعل من المدارس أمكنة للارهاق والتعذيب ، كما أنه
لم يكن ليرضى عن النظام الداخلي للطلبة .

لقد بدأ عمله وتفكيره في التعليم حين ترك الجامعة وحين أنشأ
أول مدرسة في قريته ليعلّم فيها أبناء الفلاحين إلا أنه في سني ١٨٦٠
و ٦١ و ٦٢ انصرف إليه بكل همه ونشاط ووصل فيها إلى نتائج هامة
بعد أن استقدم أستاذا معه من ألمانيا وبعد أن عمل بنفسه مع ثلاثة
من المعلمين بمجد واجتهاد . وقد وصف الحالة في المدرسة كما يأتي .

لا يدفع الطالب أجراً - لا يحمل معه إلى المدرسة كتاباً أو
كراساً - لا يؤدي واجبات في المنزل - لا يكلف بأن يستذكر شيئاً من
عمل الأمس - لا يفكر إلا عند دخوله الفصل - لا يقيد بساعة معينة
يصل فيها إلى المدرسة - لا يسأل عن تأخيره - لا تختلط البنات مع
الأولاد - يجلس التلميذ في أي مكان سواء على بنك أو كرسي أو
نافذة أو الأرض أو المنضدة - لا يجبر الطلبة على الأصغاء - وليس
للمدرسة حق العقاب .

وكان تولستوى يرى أن هذا النظام الذي يسميه البعض فوضي
هو الذي يؤدي مع الزمن إلى إعداد أحسن الرجال وأن الناس
لا يعارضونه إلا تعصباً منهم لتعليمهم القديم بأسلوبهم القديم .

وكانت المدرسة تغلق في الصيف ليتمكن الأولاد فيه من
مساعدة والديهم في أعمالهم . وفي أول الأمر كان الاقبال على هذه
المدرسة قليل إلا أنه بعد ذلك زاد وتحسن وأحب الكثيرون هذا
النظام فالتحق بالمدرسة حوالي أربعين تلميذاً بينهم خمس بنات في
وقت كان فيه تعليم أبناء الفلاحين يكاد يكون معدوماً . وكان
تولستوى يحبهم ويدربهم بنفسه على الألعاب الرياضية .

وقد وجد أن تعليم التاريخ والجغرافيا قبل الانخراط في الجامعة
أمر ضار .

وقد حاول تولستوى إنشاء جمعية لنشر التعليم الصحيح في روسيا
ولكن الحكومة كانت تقاوم هذه الحركات بشدة فظل عاملاً في جمعية
سرية متجهاً إلى هذا الغرض حتى سنة ١٨٦٢ حين أعتق ألف - لاهون

فأنشأ هو بجوار « ياسنايا » حوالى ١٣ مدرسة .

وفي سنة ١٩٠٣ قال : « إن أسعد أياى هى التى أحببت فيها
لا المرأة ولكن الناس عموماً والأطفال خصوصاً » .

وفي مايو سنة ١٨٦٢ أحس بالتعب والملل فظن أنه مريض
بازبو فسافر إلى موسكو مع خادمه ونزل ضيفاً عند عائلة الدكتور
« بهرز » التى أحبته وأعجبت به ثم غادرها إلى « سمارا » عن طريق نهر
الفولجا وقضى فيها شهرى مايو ويونيه انتجاعاً للراحة ، وهناك علم أن
قوة من البوليس هاجمت منزله فى « ياسنايا » وقتلت جميع مابه
بحجة كاذبة أبلغ بها زورا أحد الجواسيس ، فغضب تولستوى أيما
غضب وأعلن أنه سيفادر روسيا نهائياً لأن المقيم فيها لا يعلم ما ينتظره
بين آونة وأخرى .

واحتج إلى الامبراطور اسكندر الثانى الذى اهتم بالأمر
وأرسل له محافظ « تولا » ليبلغه أسفه الشديد على ما وقع .

وعاد إلى موسكو وتردد كثيراً على أسرة الدكتور « بهرز »
وتبادل الأسرتان الزيارات عدة مرات لأن مدام « بهرز » كانت
صديقة لأخته . ثم أشيع خطأ أنه سيتزوج من ابنة « بهرز » الكبرى
« ليزا » لأنها كانت ذات صوت جميل وطالما رغب فى أن يسمعها .
أما هو فكانت رغبته متجهة الى الزواج من أختها « سونيا » فتارة
كان يشعر بالحب الشديد لها ، وتارة كان يخشى الزواج منها ويعد
العيوب عليها . وتارة يذكر عدم وسامته وقبح شكله فيحس بنقصه
وعدم استحقاقه .

وقد كتب خطاباً أعده ليقدمه الى « سونيا » يطلب يدها وأودعه جيبه عدة أيام ولم يقدمه لها بسبب تردده إلا أنه في ١٦ سبتمبر ١٨٦٢ قدم الى الدار وطلب الى أختها الكبرى أن تغني وطلب الى سونيا أن تعزف على البيانو وجلس هو بجوارها ياديا عليه وعليها بعض الانفعال ولعله كان لازال متردداً . ولكنه بعد قليل حزم أمره وسلم لها الخطاب فأخذته وأسرعت به الى إحدى الغرف فقراءته ثم عادت وأبلغته موافقتها الا أن والدها لم يرتح لزواج ابنته الصغرى قبل الكبرى .

ولما تمت الخطبة سلم الى مخطوبته مذكراته بما فيها من اعترافات بنقائصه وعيوبه الشنيعة ومن آمال وملاحظات وصلوات وما أن قرأت « سونيا » ماضى تولستوى حتى حزنت وبكت وأرقت طول الليل لأنها ما كانت تظن أنه مثقل بكل هذه الرذائل ولكنها في الصباح أعادت له المذكرات وغفرت له ماضيه . وبعد اسبوع في ٢٣ سبتمبر ١٨٦٣ تزوجت منه في موسكو وعلى اثر انتهاء حفلة الزواج سافرا في عربة نوم خاصة الى ياسنايا حيث كان بعض أفراد الأسرة في انتظارهما

وبعد أسبوعين من الزواج ارسل الى صديقه فت يخبره بأنه سعيد بزواجه ويود أن يراه .

وبعد هذا الزواج أبطل اصدار صحيفته وكف عن العناية بالمدرسة وانصرف الى الاهتمام بسائر شؤونه المالية الخاصة ومصالحه العائلية .

ورغم بعض الخلافات والمنازعات البسيطة فقد ظلت العلاقة الزوجية سنيها طويلة سعيدة تقوم على المحبة والود . حتى أن والدي الزوجة قالاً إنهما لم يكونا ليحكما لا بنتهما بسعادة أكثر مما هي فيه . وقد قامت الزوجة بواجبها خير قيام وساعدته في كتابة بعض مؤلفاته إلا أنها في هذه الأيام كانت تغار عليه لما كان هو يغار عليها . وبعد الزواج بأسبوعين أمسكت الزوجة مذكرات تكتب فيها تأثيراتها . ويلاحظ أنها كانت من بادئ الأمر لحد ما كثيرة الحساسية ينقصها الاتزان . وأول ما كتبتة في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٢ هو :

اني أشعر شعوراً قوياً بحبي له . ولكن إذا اختلفنا معاً أو لاحظت عليه أى ريبة فكل هذا الحب سيزول ... انه عظيم .. انه يكره الشر ولا يطيقه .. »

وقد كانت تغار من حبه للفلأحين ومن اهتمامه بالمدارس التي أنشأها لهم وتطلب كل حبه لها لو وحدها ، ثم تعود فتكتب في يناير سنة ١٨٦٣ ما يأتي : —

انه يحبني .. انه عظيم وكماله رقيقه ، فيجب أن أعنى وأن أحرص على سعادتنا .

وفي مايو ١٨٦٥ كتبت أنها تغار من أختها عندما كانت تلاحظ شيئاً من الود بينها وبين تولستوى وعندما لاحظت أنها يخرجان لوحدهما للصيد ولكنها بعد قليل سكنت عن الغيرة وظلت حياتهما على العموم سعيدة في الخمسة عشر سنة الأولى .

ولأن حياة المدن لم تكن لتعجبه فلم يذهب إلى موسكو هو والكوفتس إلا في آخر العام الذي تزوجا فيه : ثم عادا جالا في فبراير سنة ١٨٦٣ حيث زارها صديقهما العزيز « فست » فوجدهما في فيض من المرح والسرور والسعادة .

وفي ٢٨ يونيو سنة ١٨٦٣ ولد لهما أول الابن « سيرجي » ثم أنجبيا بعد ذلك ثلاثة عشر طفلا في مدى ست وعشرين سنة من الزواج . أما عن مؤلفاته في هذا العام فقد أخرج رواية « القوزاق » ثم « بوليسكشكا » السابق الإشارة إليها .

وكان في هذه الأثناء مغرما بدراسة النحل وحياته وطالما قضى الساعات الطويلة في ملاحظته ومراقبته ودراسة حياته .

وفي شتاء هذا العام بدأ الكتابة في رواية « الحرب والسلام » .

وفي سبتمبر سنة ١٨٦٤ خرج راكبا حصانه ومعه

١٨٦٤

كلابه ولم يقصد إلى الصيد إلا أنه سرعان ما رأى

الكلاب تسرع وراء أرنب حتى صاح مردداً ألفاظ الصيد وأخذ

يعدو بالحصان إلى أن سقط من فوقه فكسر ذراعه وأخذ يتألم

بدون أن يجد من يعينه ، وبعد جهد تمكن من الوصول إلى طريق

عمومى حيث ألقي بنفسه على أحد جوانبه وقفا طويلا حتى تنبه إليه

أحد الفلاحين فحمله على عربة إلى دار سيدة مشهورة بجبر الكسور،

إلا أن هذه السيدة فشلت في علاجها ، وسرعان ما علمت الزوجة بالخبر

حتى قدمت إليه ونقلته إلى الدار واستدعت له الأطباء الذين قاموا

بالعمليات اللازمة إلا أنه عاد بعد قليل فأحس بالألم يعاوده ثانيا
فأعاد الأطباء عمليات الجبر من جديد إلى أن شفى تماماً .
وفي أكتوبر من هذا العام ولدت ابنتهما « تانيا نا » .

وفي يونيه ١٨٦٥ ذهبت العائلة كلها إلى أحد ضياعه
 ١٨٦٥ فعاشوا في هدوء وسلام يلعب أولادهم الأطفال
 ويحجبهم ويكسب ثقتهم ومحبتهم في أسرع وقت ، كما أحبسه الخدم
 والأتباع الذين كانوا يعصفونه بأنه « طيب القلب » .

ولعل حبه للحياة القروية وكرهه لحياة المدن ناتج عن شغفه
 بالطبيعة فطالما قال : « ما أكثر غنى الله إنه يمنحنا كل يوم شكلا مختلفا
 جميلا للطبيعة متميزا عن سائر أشكال الأيام الأخرى » .

وقد اعتاد لحد كبير الحياة البسيطة الخالية من الرف حيث
 سكن منزله الريفي في يامنايا ولبس هناك اللباس البسيط ولم يحفل
 كثيرا بتعدد أنواع الطعام .

ولم يمك من أكتوبر سنة ١٨٦٥ أي مذكرات خصوصية لمدة
 سنين طويلة .

ثم انتقلت الأسرة الى موسكو في يناير سنة ١٨٦٦ وظلت
 هناك ستة أسابيع اجتمع فيها هو مرات كثيرة بأصدقائه المخلصين .
 وفي ٢٢ مايو سنة ١٨٦٦ ولد الابن « ايليا »

وقد شعر بالمرض عدة مرات في سنة ١٨٦٧ ورغم عدم ثقته
 بالاطباء واتفاقه مع « روسو » في ذلك إلا أنه تحت إلماح زوجته
 عرض نفسه على طبيب مشهور فوجده مصابا بعسر الهضم وأشار
 عليه بشرب بعض المياه المعدنية وعالجه مدة طويلة .

وفي سنة ١٨١٩ كان تولستوى معجباً كل الاعجاب
 بشوبنهور وذكائه وقرأ له معظم كتبه ثم ترجمها
 بمعاونة صديقه «فت» إلا أنه قال مرة : «أنا أثق اليوم بشوبنهور
 وأعتبره أعظم كاتب ولكني لا أعلم ما سيكون رأي فيه في الغد» .
 وكان في تربية أولاده لا يعاقبهم بعنف ولا يشتد معهم بل كان
 يترك لهم الحرية ويعاملهم برفق ، وكان أكثر ما يكرهه أن يلاحظ
 أن ابناً من أبنائه يكذب . وكان يميل إلى استخدام المربيات الانجليزيات
 في تربية أولاده لأنه كان يؤمن أن الانجليز يعنون بالحرية في تربيتهم
 أكثر من غيرهم . وكان لا يبيع لأولاده أن يأمرُوا الخدم بل أن يطلبوا
 منهم ما يشاءون بتلطف في وقت كان يعامل فيه الفلاحون في روسيا
 كأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر .

ومن أهم صفات تولستوى في هذا الوقت أنه كان يضع كل قلبه
 وكل قوته فيما كان يعمله مهما كان نوعه . وكثيراً ما نصحه الأطباء
 بالاقلاع عن الاغراق في الاجتهاد أو الافلال منه فكان يجيبهم بأنه
 لا يستطيع .

وعمل بنفسه وبكل همة في ملاحظة أمواله ومحاصيله وتربية
 مواشيه وبالأخص الخيل — ول ولم يهمل الأدب إذ ظل مشغولاً
 بالأميرين .

وقال في هذا الوقت إن أصحاب الأمزجة الفنية في الغالب
 لا يميلون إلى المبالغة في الهندام والنظام . وقال إن هذا الميل لا يوجد
 في الغالب إلا بين الأشخاص ذوي التفكير السطحي . ومع ذلك كان

يعترف بوجود النظافة ولكنه لم يكن منتظماً في غرفة ملابسه
لأنه كان يترك مثلاً الخداء في أى مكان ويخضع القيمة في أى موضع
ويضع ملابسه حيثما اتفق .

أما في آخر حياته فقد قالت ابنته عنه في مذكراتها أنه كان
نظيفاً دقيقاً مرتباً ، ولعله اكتسب هذه الصفات أخيراً .

وكان حين ينام يحب أن لا يؤذجه أحد كما كان هو لا يحب
أن يوقظ أحداً أثناء نومه مهما كان السبب وقد قال بعد ذلك بسنين
طويلة : « إن الإنسان وهو نائم يكون على الأقل في منأى عن الأثم » .
وفي ٢٠ مايو سنة ١٨٦٩ ولد الابن « ليو »

وكان في سنة ١٨٧٠ يكره الصحافة والصحافيين ولا يقرأ الصحف
ولا الانتقادات الموجهة اليه وكان يعتبر هذه الصحف ضارة بالقراء .
وأهم ما أخرجه من المؤلفات في ذلك الحين هو رواية « الحرب
والسلم » التي بدأ فيها من سنة ١٨٦٥ وظل أكثر من خمس سنوات
يؤلف أجزاءها الستة يراجعها المرة تلو المرة بمساعدة زوجته نحو
سبع مرات حتى انتهى منها بعد أن أصدرها في ستة أجزاء متفرقة
وبلغت صفحاتها ١٥٠٠ صفحة فازت إعجاب جميع كتاب روسيا
الأحرار منهم والمحافظين ثم ذاعت ذيوها لامتيل له وترجمت إلى
سائر اللغات الأوروبية وكان يقول وهو يكتب فيها أحياناً « إنى
تركت قطعة من لحمي في مجرتي » .

وقد أجمع العالم على أنها أفخم وأروع عمل فني منذ الأياذة
هو ، يروس . فقد كانت قصة عالم كامل تروى أحداث مصر بأكمله ،

عصر عظيم مثير حافل بكل صنوف التعقيد وكل صور الجلال
وتزاحم بما فيها من صور جمّة مختلفة ومشاعر كثيرة متباينة عن
الحياة نفسها وعن أطوارها ونزواتها وانفعالاتها وخيرها وشرها
وما فيها من حق وجمل ومن حكمة واختبار .

وكان هو نفسه في هذا الوقت معجباً بها أيما إعجاب وكان كلما
قرأ منها شيئاً على زوجته حرك رأسه قائلاً : « سونيا ... وحق الله
إن الشيخ يكتب حسناً ... » .

ولكنه في أواخر أيامه لم يرض عنها ولا عن معظم الكتب
السابقة على كتابه « اعترافى » .

وقد ذاعت شهرته في هذه الأعوام كل العالم في وقت كان فيه
مفرط الثراء يملك المال والضياع والقصور والعبيد والخيول وكان فيه
عريض الجاه واسع السلطان سليل أسرة هي من أكبر أشرف
روسيا تتميز بأرستقراطيتها ونبلها .

وقد انصرف تولستوى هذا العام بكل جهده إلى دراسة
اللغة اللاتينية إذ أحس بحاجته العظمى لها لتفهم الأدب
الاغريقي القديم وفنه الرائع وقد أغرق في الاطلاع والقراءة في
الكتب الاغريقية القديمة .

وفي ١٣ فبراير ولدت له الابنة « ماريا » .

وفي يونيه ويوليه سنة ١٨٧١ سافر الى سمارة ليستشفى هناك
بعد أن أجهد نفسه في اللغة اللاتينية فذهب إليها بطريق
السكة الحديدية التي لم يكن يحبها وقد اختار الدرجة الثالثة ليجد فيها

كثيراً من الفلاحين يتبادل معهم الأحاديث. ولما وصل إلى هناك اختار بلدة «كاراليك» وأقام فيها راضياً سعيداً مكرماً محبوباً إذ قد اطمأن إلى سكان هذه البلاد وأعجب بكثير من عاداتهم وأخلاقهم لوجود طائفة كبيرة من بينهم تختلف في عقائدها مع عقائد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لأنهم لا يؤمنون ولا يتبعون إلا ما جاء فعلاً في الإنجيل ولا يحفلون بشعائر وطقوس الكنيسة اليونانية، وقد وجدهم تولى مستوى في مستوى عظيم من الأمانة والاستقامة وحسن الخلق. ومما ساعده على البقاء في تلك البلاد والتمتع بها سبق معرفته باللغات الشرقية.

ولامامه باللغة العربية فقد درس الديانة الإسلامية على يد بعض أصدقائه هناك وعند عودته إلى بلاده قرأ القرآن باللغة الفرنسية. واهتم هذا العام بدراسة علم الفلك.

ولفرط حبه لهذه البلاد اشترى فيها ضيعة واسعة ثم عاد إلى ياستايا صحيحاً معافاً فبدأ في سبتمبر في وضع كتاب A. B. C. ضمنه بعض المواد وقصصاً معينة لتثقيف وتربية العامة منها «سجين في القوقاز» و«إن الله يرى الحق» وغيرها.

وفي سنة ١٨٧٢ عاد إلى العمل من جديد في مدرسة

١٨٧٢

ياستايا يعلم أبناء الفلاحين بهمة وإخلاص.

وفي هذا العام خطرت له بين آن وآخر بعض مشاكل الموت والحياة ولكنه كان كالعادة ينشغل عنها بمسائل أخرى فلا يصل فيها إلى الأعماق ليعرف حقائقها.

وفي مايو سنة ١٨٧٢ ولد له ابن سمي «بيتر» .

ثم حدث في هذا العام أن قتل أحد رجاله بواسطة ثور من ثيرانه فجاء أحد الحقّقين ليعتق في الأمر واعتبر تولستوى مسئولا عن إهماله في المحافظة على مواشيه وأصدر أمراً بعدم مغادرته مكانه وقد لاحظ عليه تولستوى أنه قليل الأدب وسيء التقدير فنار وغضب منه وأعلن قائلاً : « أنا سأبيع كل مالي في روسيا وسأذهب إلى إنجلترا حيث يتمتع هناك كل إنسان باحترام شخصه وحرية » . ولكن الأمر ألغى بعد ذلك وانتهت المسألة وبقي تولستوى في روسيا .

وفي يونيو سنة ١٨٧٣ ذهب مع أسرته إلى سمارة حيث
١٨٧٣
نشأت هناك جماعة عظيمة لقلة ما نتج من المحاصيل فساء حال الفلاحين وما كان من تولستوى إلا أن برز في هذا الميدان وسام بنشاطه وماله حتى طُبع الناس باسمه وعطفه وعامت الامبراطورة بمجهوداته فأعجبت به وساهمت هي أيضاً في ذلك ولم تمض بعد ذلك سنة أو سنتان حتى تحسن المحصول وزال أثر المجاعة الأولى . ولكنها لم تكن آخر المجاعات ولا أسوأها والتي ظهر فيها نشاط الرجل وعطفه ورحمته بالفقراء .

ونظراً لأنه كان يشهر ببعض القبح في شكله فما كان يسمح لأحد في هذا الوقت بأن يلتقط صورته وكان يأمر بإعدام الأصل إذا صور لأنه كان في غاية الحساسية من هذه الناحية ، وأما أن أحداً لا يحبه ولا يحترمه من أجل قبحه وطالما كان يتذمر ويشكو يائساً من هذه الحالة ، ولكنه بعد ذلك بسنتين عيّنه عدل



نولستوى فى الخامسة و الأربعم

عن رأيه هذا فلم يعد مهم بشكاه ولا بصورته فانتشرت في كل مكان في روسيا وفي سائر أنحاء العالم .

وقد أخذت له أول صورة عندما كاف أحد الرسامين المشهورين بتصوير تولستوى وسائر كتاب روسيا لوضعهم في متحف خاص ولكن الرسام وجد الأمر صعباً بالنسبة لتولستوى لأنه يعيش بعيداً في ياسنايا ولا يسمح لأحد بتصويره فحبل أن يستأذنه في ذلك واضطر أن يستأجر منزلاً ريفياً يبعد ثلاثة أميال عن ياسنايا مهتماً بانتظار تولستوى حين مروره راكباً حصانه في طريقه المعتاد ليرسمه وبمجرد أن علم تولستوى بنية هذا الرسام وبما عاناه من تعب أرسل يدعو له لزيارته وسمح له برسمه فرسمه في صورتين بقيت إحداها في ياسنايا .

وفي ٩ نوفمبر سنة ١٨٧٢ توفي ابنه الأكبر « بيتر » فأرسل إلى « فت » صديقه يخبره بحزن زوجته ويقول : « إن قلب الأم ومحبتها لا بنائها هو أعجب واسمى مظاهر الألوهية في الأرض وهو لا يخضع لحكم العقل والصبر حين تصاب الأم بفقد ولدها » .
وفي هذا العام بدأ روايته المشهورة « أنا كارنينا » .

وفي سنة ١٨٧٤ قام بجميع الساعي لنشر أفكاره التعليمية واشتغل بذلك يومياً من الصباح إلى المساء مهتماً بالكتابة بعض الوقت حتى لفت أنظار ذوي الشأن من الكتاب وغيرهم من المؤيدين ومن المعارضين .

وفي إبريل من هذا العام ولد ابنه « نيكولا » وماتت عمته

المحبوبة في ٢٠ يونيو وهى أكبر أفراد العائلة فأحس بسلطان الموت
وذكر عمته فى كثير من المناسبات بالحببة والاعزاز والتقدير .
وفى سنة ١٨٧٥ أخرج كتاباً آخر اسمه A.B.C. وعنى به كل
العناية وعمل على أن يباع بأرخص الأثمان لتعليم العامة
فبيع منه نحو مليوني نسخة ، وفى مارس من هذا العام توفى ابنه
« نيكولا » وساعت صيحة زوجته .

وكان يربى أولاده بواسطة مربية انجليزية وأخرى سويسرية
أما اللغات فكانوا يتعلمونها على يد أساتذة من الألمان والسويسريين
والفرنسيين ، وكان يهتم جداً بتعليمهم الموسيقى بواسطة أستاذ خاص
كان يحبب اليهم من تولا ، وكن يقرأ بصوت مرتفع وكثيرا ما كان
يقرأ لأسرته أو زائريه ، ورغم عدم ثقته بالطب والاطباء فانه كان
يدعو طبيبا كلما مرض أحد من العائلة .

ثم توفيت عمته الأخرى فى هذا العام .

١٨٧٥ بدأ في عام ١٨٠٥ يتردد على الكنيسة ويقوم ببعض واجباتها نحو سنتين مما أدهش الكثيرين ممن حوله .

وقد ظل في حالة كفاح وصراع داخلي في تفكيره عن الموت والحياة وبعض المشاكل الفكرية العويصة لمدة خمس سنوات عانى فيها أمر الساعات وأشق الانفعالات ، وفي هذا العام بدأت روح تولستوى تتجدد وبدأت علامات التحول والتغيير تظهر عليه إلا أن زوجته لم تفهم حقيقة الحال ولم تفهم تفسيره فكتبت في ١٢ أكتوبر من هذا العام نقول : -

«اني لا أطيع أن أراه كما هو الآن حزينا يجلس طويلا وحيدا لا يتحرك ولا يعمل ولا يتكلم : إنه يفكر ويفكر بدون أي مرح أو سرور وبدون أي همة أو نشاط لمدة أيام طويلة وأسابيع كثيرة . إنه في حالة موت عقلي . وان مسؤوليات تربية الأولاد مستقع على رأسي مادام كل شيء فيه يظهر ميتا » .

١٨٧٦ وفي سنة ١٨٢٦ ازداد اهتمامه بالموسيقى وتعرف على أشهر رجالها مبتعداً عن السياسة ومشاكها .

١٨٧٧ وفي يولييه سنة ١٨٧٧ زار دير أوبتن لأول مرة على بعد ١٣٥ ميلا من ياسنايا ثم عاد الى زيارته بعد ذلك ثلاث

مرات ووقف فيه على كثير من المعلومات وتعرف إلى مشاهير
الرهبان .

وكان توأستوى يحب دائماً اللغة البسيطة والأسلوب السهل .
وفي أواخر سنة ١٨٧٧ زار بعض الأسرى الأتراك في مكان
مهجور في روسيا وارتاح عندما وجدهم يعاملون معاملة طيبة كريمة ثم
حدث إليهم في بعض المسائل الدينية مما كان له عليه بعض الأثر إذ
وجد مع كل منهم قرآنه الخالص .

وفي ديسمبر ولد ابنه « أندري » وفي هذا العام أخرج نهائياً
روايته « أنا كرئيسنا » التي أعجب بها جميع الكتاب والتي لاقت ذيوهاً
لأنظير له ؛ ثم ظهرت عليه علامات التعب والضعف من كثرة انشغاله
وازدحاجه في تأملاته العنيفة عن المسائل الدينية وقد بدأ يظهر بعض
الخلاف البسيط بينه وبين زوجته .

وأهم ما بان عليه من التطور في هذا الزمن نزوله عن
مظاهر الأرستقراطية فاصبح وديعاً هادئاً مسالماً ، وقد
اكتشف مبدأ أخلاقياً أساسياً افتنح به كل الاقتناع فقد آمن بأنه
لا ينبغي أن يكون له عدو ما وقد كر في ذلك الحين خصومته مع
ترجنييف وكرهه له فانتزع الحق من نفسه وكتب له خطاباً رقيقاً
يمد له فيه يد الصداقة ويفتح له قلبه فأجابه ترجنييف على ذلك في
٨ مايو سنة ١٨٧٨ من باريس بما يأتي :

« وصلاني اليوم كتابك وإني في غاية السرور والغبطة لزوال
ما بيننا من سوء تفاهم ، وإني أرحب من جديد بعلاقات الصداقة القديمة ،

كما إني أهنئ يدك التي قدمت إلى بلد الحبة ولن أنسى صداقتنا الأولى
كما أنني لن أنسى أثرك في نفسي فيما كتبتك من كتب ومقالات كانت
تجدد روحي .

أرجو أن تقابل في « أول » في الصيف، وإلى أن ألقاك أرجو
لك كل خير .

وفي أغسطس علم توأستوى بوجود ترجمتي في تولا فذهب
إليه ودعاه إلى ياسنايا فأجاب الدعوة وقدم معه في أغسطس وأمضى
الصديقان القديمان يومين في غاية السعادة والرضى يبحثان في مسائل
فلسفية ودينية متعددة .

وفي هذا العام بدأ يفكر في كتابه أعظم كتاب من كتبه هو
كتاب « اعترافي » .

وقد شرع في الكتابة فيه سنة ١٨٧٩ وانتهى نهائيا منه في
سنة ١٨٨٢ وقد عني فيه بكتابه كفاحه الشديد القاسي مع نفسه
لمدة خمس سنوات من سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٨ ، واهل هذا الكتاب هو
الحد الفاصل بين نوعين من كتاباته ، فكل ما كتبه قبله كان
لا يكشف إلا عن قوة ملاحظاته وذكائه فقط ، فقد لاحظ مثلا
حياته هو وحياة الآخرين وكيف يسير بهم العقل ثم شخص
نفسه وحلل مشاعره وغيره على لسان أشخاص ذكر أسماءهم في
كتبه « الحرب والسلام » و « أنا كارتينا » وغيرها . أما كتاباته التي
بدأت بكتاب « اعترافي » وما بعده فكانت تكشف عن آراء جديدة
مختلفة وعما وصل إليه من حقائق عليا هامة وعن نتائج حاسمة وحلول

نهائية سليمة لأعظم المسائل ، ملقياً عليها كثيراً من النور الذي اهتمدى اليه بشأن مشاكل الحياة الشخصية فاتسمت كتيبه من ذلك العهد بهذا الميسم الجديد العظيم الذي قام على النزاهة المطلقة والصدق الخالص .

وقد قيل عن تولستوى بعد ذلك انه لم يوجد في كل التاريخ رجلاً احتمل توضيحات كما احتملها هو من أجل قوله الصدق والحق . وفي ربيع سنة ١٨٧٨ قرأ تولستوى كتاب « رينان » الخالص ببعض المسائل الدينية وعلق عليه وبدأ يدون مذكراته بعد أن أتمها ثلاث عشرة سنة وأول ما كتبه فيها في ٢٢ مايو هو : « ذهبت إلى الكنيسة وقد ارتاحت نفسي ورضيت بما سمعت إلا عبارة « أهزم أعداءه » فأحسست بالاعتراض عليها وعدم الرضاء بها فانه لا يليق أن يصلى الانسان ضد أعدائه بل أن يصلى لأجلهم » . وفي ٥ يونيه يوجد بها ما يدل على خبه للطبيعة واكتشافه لنواميسها العجيبة الدقيقة .

وقد تبحر تولستوى في كل أنواع العلوم واطلع على أربعة عشر ألف كتاب من مختلف اللغات وعلق على هوامشها .

وقد مرض لمدة أسبوع في هذا الوقت وذهب إلى سمارا هو وأولاده وزوجته وفي أثناء سفره في نهر الفولجا كتب في مذكراته : « قضيت الوقت في النهر أستمتع بأحاديث الشيوخ الحكماء من الفلاحين وأستشف الحكمة والبساطة في حياتهم ما كان أجمل أحاديثنا عن الايمان » .

وقد بان عليه في بشكل ظاهر في هذا العهد حبه للبسطاء من الناس ورغبته الصادقة في معاشرتهم وفي خدمتهم بعد أن قضى أعوامه الماضية في أبهة الأشراف وعزلتهم وترفعهم عن الاجتماع بالناس. وفي ٨ نوفمبر سنة ١٨٧٨ كتبت الزوجة إلى أختها ما يأتي :

« لقد انصرف تولستوى بكليته إلى البحث الدينى وإلى الكتابة فيه . إن عينيه ثابتتان مستقرتان . ويتكلم نادراً . ويظهر كأنه ليس من هذا العالم وأصبح مستحيلاً عليه أن يفكر في أمور الحياة العادية التي تهتم الناس عادة » .

وما جاء آخر هذا العام حتى ظهر على تولستوى التغيير العظيم الهائل في نفسه وفي مبادئه . فقد أدرك أن المسافة التي قطعها من حياته كانت خاطئة وكانت باطلة فحول اتجاهه من جديد إلى اتجاهات أخرى مختلفة كل الاختلاف .. كل شيء فيه قد تغير ، فالعظمة والثراء والأبهة والشهرة أصبحت في نظره شراً ، أما التواضع والفقر وانكار الذات وخدمة الآخرين فهي كل الخير وقد وصل إلى هذه الحالة تدريجياً بوسائل خفية كانت تعمل في داخله بين آن وآخر .

« لقد ولد تولستوى الولادة الجديدة » .

وفي مارس سنة ١٨٧٩ كتبت الزوجة إلى أختها

١٨٧٩

أيضاً : —

« إنه يقرأ . ويقرأ . ويقرأ . وإنه يكتب قليلاً وأحياناً يقول :

إنها سائرة في طريق الوضوح والظهور آه يا إلهي إن ما سأكتبه سيكون هاماً جداً » .

وفي ابريل سنة ١٨٧٩ كتب الى صديقه «فت» يخبره أنه قاطع الصنف وأنه ينصح غيره بكل إخلاص أن يقاطعهما .

ثم كتب له في ٢٠ مايو سنة ١٨٧٩ بعد ذلك يعتذر عن عدم زيارته بسبب امتحانات الأولاد وبسبب انصرافه إلى التمتع بحمال الربيع وقال عنه : «إن روحى لم تتمتع بدنيا الا له كما تمتعت بأيام الربيع الساحرة هذا العام» .

وفي يونيو سنة ١٨٧٩ ذهب إلى «كيف» حيث يحج كثير من المسيحيين ولكنه لم يسر بهذه الزيارة وعاد إلى ياسنایا بعد أن زار صديقه «فت» .

وقد اهتم باللغة التي يتبادلها الناس والتي تصلهم ببعضهم فكان في كل يوم يعنى بانشاء ودى جديد أو بتعبير جميل أو بكلمة طيبة وكتب إلى «فت» في ١٣ يولييه سنة ١٨٧٩ :

« إني أعذب نفسي ... إني منزعج ... أحاول تصحيح ذاتي .. أحاول أن أتعلم .. » .

وفي ٢٨ يولييه سنة ١٨٧٩ كتب له : —

«أنا لا أكره الحياة العملية ولا أنكر وجوب العمل لكي يقوم الانسان بأود حياته ولكن الحقيقة أن معظم حياتي وحياتك منصرفه إلى سد حاجتنا ومشواتنا الغير طبيعية والغير ضرورية والتي اخترعناها نحن ... وإني أؤكد لك أني أحب أن يكون مبدئي هو أن أعطى الناس أكثر مما آخذ منهم ... » .

وكتب له في ٢١ أغسطس سنة ١٨٧٩ ينصحه بقراءة مسفر

الأمثال وهى حكم سليمان وآرائه باللغة اليونانية .
وكان فى هذا الوقت أكثر تعبدًا وتدينًا من القسوس أنفسهم
وعند نشوب الحرب بين روسيا وتركيا وجد أن الكهنة
يقيمون الصلوات والابتهالات إلى الله أن يهزم أعداءهم وأن يكسر
شوكهم وأن يحطم حياتهم وأن ينصر بلادهم فقط وأن يعينهم على
تقتيل المئات والألوف من جيوش الأتراك فلم يرتح لهذه الصلوات
الشريرة ولم يعجبه هذا التطبيق الخبيث الفاسد للدين فكوره هذه
التعاليم وقم عليها كما رأيت .

وفى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٩ ولده الولد العاشر « ميشيل » وكان
عدد أولاده فى هذا الوقت سبع لأن ثلاثة منهم ماتوا فى طفولتهم
وإن أخلاق تولستوى الجديدة المبنية على التسدين الحقيقى
والسماحة والصفح والصلاح قرّبتة إلى كل الناس وحبّته اليهم إلا إنه
هو رغب عن الالتصاق بالاغنياء وبالطبقات العليا .

وكن من عاداته أن لا يهتم بمصير كتبه بعد أن يفرغ من
كتابتها وبعد أن تخرج من يده إلى المطابع .

وفى سنة ١٨٨٠ عاد ترجنيف إلى روسيا ليشارك فى
الاحتفال بمرور ثمانين عاماً على ولادة بوشكين الكاتب

الروسى المعروف فاستعانت به لجنة الاحتفال للتأثير على تولستوى
ليشارك معهم فى هذا الاجتماع لأنه كان مفهوماً بينهم أنه كان يكره
مثل هذه الاجتماعات وأمثالها المبنية على التظاهر والتفاخر وأنه
يقاطعها فذهب ترجنيف إلى تولستوى فى يأسنايا ومكث عنده

عدة أيام ليقتنعه ولكنه فشل في سعيه لأن تولستوى رفض الاشتراك معهم رفضاً باتاً حاسماً بعد أن قام بواجب الحفاوة والاکرام لصديقه ورغم أنه كان من المعجبين جداً ببوشكين . وطالما أظمر ترجنيف أسفه الشديد لأن تولستوى أبطل كتابة الروايات وانصرف الى المواضيع الالهية العويصة .

ثم بدأ تولستوى يكتب اعتراضاته على العقائد الدينية الطقسية المتعصية لأنه لم يكن ليؤمن ببعض تقاليد الكنيسة وتعاليم الكهنة ولأنه كان يهتم كل الاهتمام بالإنجيل ذاته ففهمه فهماً صحيحاً ارتفع بواسطته بالديانة المسيحية الى مستوى سام عميق بسيط واضح وقال « إن الإيمان فضيلة عظيمة ولكن الإيمان الصحيح لا يدرك بحسن استعداد الإنسان لتصديق كل ما يلقى عليه ولكن بالسعى والاجتهاد والعمل وإعمال العقل والبصيرة » . وقال إن كثيراً من تعاليم الكنيسة الروسية يؤدي بالناس الى عدم العناية بالفضائل الأساسية التي كانت هي « أهداف المسيح » والانصراف عنها الى مسائل ثانوية غير مفيدة . وقد كتب عن هذه المواضيع عدة كتب هي من أتمن ما وضع في هذا الشأن . وقد كان لهذا أثره في إيجاد العداء بينه وبين الكنيسة كما ستري .



وقد أدى تغير تولستوى وتمسكه بمبادئه الجديدة الى نعهد إهمال
شئون أملاكه حتى نقص الإيراد الى ٥٠٠ جنيه في السنة فقد كره أن
يكون غنياً ذا مال كثير وأطيان وأفرة وأراد أن يتخلص من امواله
التي كثرت ونمت واتسعت اتساعاً هائلاً فكانت زوجته تقاومه
وتستعدي عليه الحكومة التي لم توافق على رغبة تولستوى في
التنازل عن أملاكه للغير من الفقراء الروميين . فوجد أن خير وسيلة
تريحه هي أن يهمل هذه الأبعاد وأن لا يعنى بتحصيل إيرادها .

ولكن في سنة ١٨٨١ تدخلت الكوننيس وعينت هي
١٨٨١
بإدارة الأموال وكتبت مرة لأخيها تقول .

« ليتك تعرف أو ترى تولستوى الآن !! لقد تغير تغيراً
كبيراً !! لقد أصبح مخلصاً وزيهياً الى أقصى حد ولكنه قد شاخ
ومشاخت صحته وأصبح أكثر هدوءاً وأكثر صمتاً يميل الى التفكير
الطويل في الموت » .

وفي أول مارس سنة ١٨٨١ اغتيل القيصر الكسندر الثاني
بواسطة أحد أعضاء جمعية ثورية فحزن تولستوى جداً من أجل
هذه الجريمة ولكنه حزن أيضاً وانزعج انزعاجاً كبيراً من أجل الحكم
بالاعدام على خمسة من المتآمرين بينهم سيده وقال « لو أن القيصر
عفى عنهم لكان ذلك أفضل بكثير . . . » .

وكتب بهذه المناسبة الى الكندر الثاني خطاباً قال له فيه : -
« إنى شخص ضعيف مجهول لا أستحق شيئاً ، أكتب لأصبح امبراطور

روسيا الكبير . ورغم اني اشعر بأن هذا أمر غريب وغير لائق فاني
لا بد أن اكتب لك . . .

إني أكتب لك لأنني أريد أن أضع نفسي موضعاً رفيعاً ولا تكن
لأنني أخشى إن أنا سكت عن الكتابة أن ألقى توبيخاً وتأنيباً من
ضيري لأنني لم أعمل ما يجب علي أن أعمله .

واني لا أكتب لك قولاً مزخرفاً منمقاً مما يعجب الملوك عادة
ولكنني أكتب لك كما يكتب الرجل الى الرجل إذ أن احترامى
الحقيقى لك كرجل وكقيصر يظهر أكثر بغير هذه العبارات المزوقة
الكاذبة . إن والدك كان رجلاً شقيقاً رحباً وقد قام بأعمال كثيرة
مفيدة وطالما رغب فى خير الشعب ثم قتل ، ولكنه لا من أجل عدا
شخصى بينه وبين أحد ولكن العدا كان موجهاً الى النظام وإن هؤلاء
الأعداء الذين قتلوا والدك لابد أنهم يعتقدون بأنك أنت أيضاً عدوهم
لأنك مثله ولأنك حالت محله ولا بد أنهم أيضاً يودون لو يقتلوك .
ثم أخذ يشرح له فضيلة الصفح والتسامح ومحبة الأعداء طالباً
منه العفو عن المحكوم عليهم بالاعدام لأن الشر سوف ينتج الشر
أما مقابلة الشر بالخير فهي تنتج دائماً الصلاح والسلام واستطرد
الى أن قال :

« ليس من المهم أن تقتل عدداً من الأشخاص بل المهم أن تقدم
المثل الصالح للناس » .

ومع ذلك فقد نفذ حكم الاعدام وحزن تولستوى من أجل
ذلك حزناً عميقاً حتى حرم من النوم عدة ليالٍ .

وفي ١٠ يونيو سافر إلى دير Optin «أوبتن» ومعه خادمه وقضى بعض الوقت هناك تفقد فيه بعض شئون الدير ومكتبته وهناك وجد سيدة تطلب أن تشتري الكتاب المقدس ذاته ولكن الراهب اختار لها كتاباً آخر آميناً فيه حاله الأديرة والعجائب التي قام بها القديسون فما كان منه إلا أن تعجب واشترى الكتاب المقدس نفسه وقدمه هدية لهذه السيدة وطلب إليها أن تقرأه وأن تدع ابنها أيضاً يقرأه ، وبمجرد أن عرفه أهل الدير نقلوه إلى أنخر مكان هناك رغم معارضة الشديدة في ذلك وهناك تحدث إلى أحد الآباء المشهورين نحو أربع ساعات في المسائل الدينية المختلفة .

ثم أخرج في هذا العام كتاب « بماذا يعيش الناس ؟ »
عنه ملصقة رومانيا : —

« إنه يشتمل على حكايات هي من أعظم ما كتب وكان له أقوى الأثر على » ومما سيكون كدائني وشاكسبير والتوراة أثرًا باقياً لأنه يحوى حقاً أبدياً . ولو أن تولستوى لم يكتب غير هذا الكتاب لظل معتبراً من أحسن كتّاب العالم ، ولا شك أنه حين كتبه كانت كل أفكاره طاهرة سامية . »

وقد وضع الكتاب في شكل قصص لفائدة الفلاحين والأطفال ولسكن جميع الطبقات استفادت منه وترجم إلى عدة لغات .

وفي ٩ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن كان بولونسكى الكاتب المعروف ضيفاً على ترجميف وظل ساهراً يكتب إلى الساعة الواحدة بعد نصف الليل إلى أن أحس حاجة بوقع أقدام الخيل في تجرعربة

وأحس بدخول شخص عليه وسرعان ما رفع بصره ليعلم من الزائر حتى وجده تولستوى فتعجب منه حين عرفه لأنه لم يكن قد قابله منذ عشرين سنة خلت وقد رآه في هذه اللحظة في صورة غريبة من البساطة والتواضع يلبس لباس الفلاحين العساكين ويظهر بمظهرهم فناداه تولستوى «أهذا أنت يا بولونيسكى؟» ثم اجتمع ثلاثتهم حتى الساعة الثالثة صباحاً، وقد ذهل بولونيسكى عندما وجد تولستوى رقيقاً طيباً بسيطاً في كلامه حكيماً في تفكيره وفي تصرفاته متمسكاً فعلاً بما يراه وبما يعتقده حتى قال :

«يخيل إلى أن تولستوى ولد ولادة جديدة بإيمان جديد وقلب جديد وبمحبة جديدة . إنه لا يحاول أن يفرض علينا آرائه ولا يحاول الضغط علينا في سبيل إقناعنا بها... إنه يصغى بكل هدوء إلى اعتراضات ترجميف . . إنه ليس بالسكونت تولستوى الذى عرفته في شبابه أبداً . . .»

وكان ترجميف في هذه الأيام يكثر من الحديث عن تولستوى ويصفه بأنه رقيق طيب كريم وبأنه مؤلف عظيم وقد خرج مرة ويده كتاب لتولستوى «الحرب والسلام» وأخذ يقرأ فيه للناس فصلاً من فصوله ويقول «إنى مارأيت وصفاً فى حياتى للحرب أبغ وأعظم من هذا - هكذا تكون الكتابة» .

وقد ذهب تولستوى في شهر يوليو إلى عزبته فى سمارة وأقام بها راضياً مسروراً من أهلها ومن تفكيرهم ومن حياتهم ثم أحس بعطف وافر على الفقراء ، وبحث مشكلة المسكينة وفكر فيها تفكيراً

عميقاً فأناكر على نفسه الثراء وكره الغنى والمال .

ورغم أنه كان من غواة الخليل إلا أنه كتب في مذكراته في ١٦ يوليو سنة ١٨٨١ : « إنى ذهبت اليوم لأفتش على خيولى الكثريرة ... أى عمل مزرر هذا ... إنه لعمل بليد .. »

وقد أرسلت له زوجته تعتب عليه بقاءه طويلاً في عزبته هذه واسكنها في الوقت نفسه كتبت له أنها جدد سعيدة عندما علمت أنه يكتب كتاباً هاماً ونمت له أن تلتهمب وتنتشر في رأسه تلك الشعلة الالهية العظيمة . فرد عليها بخطاب رقيق يستحلفها فيه بالسماء وبحبهما أن تعنى بنفسها وبصحتها .

ثم عاد في أوائل أغسطس إلى يانينا واستقبل فيها ترجميف ضيفاً واسكنه كان في هذه المرة غير راض عنه لأن ترجميف كان يحيا حياة الترف واللهو وكان يخاف عند ذكر اسم الله وإن كان يؤمن بوجوده وكتب في مذكراته « ترجميف ترجميف . . . إنه لأمر محزن أن أراه هكذا . . . »

أما زوجته فعلمت على زيارة ترجميف بما يأتي : —

« إنه الليلة مروح . . وقد رفص مع بنت عمى . . وأخذ يعمل برجليه حركات مختلفة قال عنها إنها رفصة خاصة في باريس وكان ينظر إلى بعناية ورفق وقال لزوجي بأنه سعيد الحظ لانه وفق الى الزواج منى . »

وفي أول سبتمبر كتب في مذكرته :

« إنى كثيراً ما أحب أن أموت . . إن عملى لا يستنفذ كل وقتى »

وكان ابنه «سيرجى» قد بلغ الثامنة عشر وعلى وشك الخول فى الجامعة كما بلغت ابنته «تانيا» السابعة عشر فسافرت العائلة الى موسكو فى نصف سبتمبر وأقامت هناك رغم أن تولستوى كان لا يرحب بالحياة فى هذه المدينة بعد أن اعتاد حياة القرية وكتب فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٨١ عن إقامته فى تلك المدينة :

« لقد مضى على قرابة شهر فى موسكو كانت معظم أيامه فى غاية الألم لنفسى.... كل الناس تعمل ولكن لا هدف غريبة عجيبة... متى يبدأون بحميمون؟ إنهم يعملون لا يعيشوا ولكن ليعملوا ما يعمله الآخرون... مساكين... ميثى الحظ... إنهم لا يعرفون معنى الحياة....»

وفى ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ كتبت الكونتس إلى أختها :

« إن تولستوى كثير الحزن وطالما رأيته يبكي أما أنا فكنت أجن وقد ساءت صحتى ونقص وزنى ».

وقد سافر هو الى زيارة صديق له ثم سافر الى الريف ليقابل شخصاً ترك عمله لأنه اقتنع بأن العمل المسمم بروح التنافس هو أمر غير متفق مع الأخلاق السليمة ثم تنازل عن ديونه التى كانت له على الناس كما أن ابنه اعتنق نفس الفكرة ورفض أن ينتظم فى سلك الجندية واحتمل فى سبيل ذلك السجن ، وكذلك كثير من أفراد أسرته فقد رفضوا التقاليد الموضوعة والغير المفهومة التى كانت تأمر بها الكنيسة .

ولقد تأثر تولستوى كل التأثر من حالة هذا الرجل الذى كان

يعمل في صناعة القبور والذي سرعان ما آمن بأرائه حتى قام بتنفيذها
فعلاً مطبقاً مبادئه وفلسفته .

وكان تولستوى يذهب الى النهر الى الحقول وإلى أحد التلال
حيث يشتغل بشق الأخشاب وهو راض سعيد .

وكتب تولستوى الى صديقه « الكسيف » يقول :

« أنا لست أنسى أنك أول صديق اعترفت بالايان الذي أصبح
لى ولنفسى نوراً قوياً واضحاً ولهذا ستظل كما أنت حبيبا الى نفسى
قريبا الى قلبى ولكنى لاحظت فى كتابك الاخير كثرة اهتمامك
بالمسائل العالمية كما كنت أنا من قبلك ولكنى الآن قد أدركت أن
هذا سخيف وأن الايمان الحقيقى لا السطحى هو الضرورى اللازم لى
ولك . وأن أهم شىء هو أن يكون الانسان فعلاً صالحاً للغير .
ولئن كان ذلك عسيراً وتأثيره بطيئاً غير محدود الا أنه هو الوحيد
الذى يستطيع أن يحرك نفوس الغير ويعمل فيهم وهذا هو ما نحتاج
اليه أنا وأنت ... دعنا نساعد أحدهنا الآخر فى هذا السبيل . أكتب
لى ولنكن أخلص وأصدق ما يمكن لبعضنا » .

ولكن هذا الصديق بالأسف تزوج بعد ذلك من سيدة جميلة
وهجر حياته البسيطة وعمل كمنظر لحدى المدارس .

اقتنع تولستوى كل الاقتناع وآمن كل الايمان بأن السعى
المتواصل فى سبيل الصلاح والتقدم بالحياة الشخصية يوماً بعد يوم هو
أعظم الاهداف وأصدق الغايات ولكنه لم يستطع أن يغير نفسه
فى الحال دفعة واحدة بسبب كثرة أملاكه وسعة ثروته وتعدد روابطه

العائلية ومعتقداته التقليدية فتضاربت أفكاره وتصرفاته من أجل التوفيق بين الحق والواقع .

وقد كتب مرة أخرى إلى «الكسيغف» :

«انه قاس على أن أظل في موسكو وقد امضيت بها الآن شهرين ثقيلين .. إني أرى الشر ظاهراً مجسماً محيطاً بي في كل مكان يرعجنى ويجلب على اليأس ويوحى إلى بعدم الثقة والطمأنينة . والذي يدهشنى أن الناس لا تراه ! خيل إلى أولاً أن أمام الانسان طريقين هما إما أن يستسلم لليأس ويعيش في حياة سلبية ، وإما أن يتهاون مع الشر وينفذ مطالبه ، ولكن من حسن حظى أنى لا أستطيع أن أَرْضَى بالحالة الأخيرة كما أن الأمر الأول هو مزعج لى ، ثم ظننت أن أحسن حل هو أن أرشد غيرى عن طريق نشر آرائى بواسطة الكتابة والمحاضرات ولكنى خفت على نفسى الغرور والكبرياء وحب الذات ، وأخيراً وجدت الحل الأخير وهو أن أحيا فعلاً حياة طيبة رفيعة وأن أفتح قلبى للجميع ولكنى لم أهتم بعد إلى كل ما يصل بى إلى هذه الغاية لأنى لازلت مضطرباً بسبب ما يحيط بى من أنواع الشرور .

إني أقضى بعض الوقت فى البيت وفى الصباح أقوم ببعض الأعمال التى لا ترضينى وفى الساعة الثانية أو الثالثة أعبّر النهر لأقوم بنشر الخشب الذى يجدد نشاطى ويؤدى إلى تحسين صحتى ، أما فى المساء فأنى أستقبل زائرين كثيرين يتبادلون معى الأحاديث الفارغة مما قد يؤدى بى الى مقاطعتهم . . . » .

وفى آخر نوفمبر أرسل يعتب على صديق من أصدقائه يتفق معه

في كثير من المشاعر الطيبة والآراء السليمة ولكنه لا يطبقها عملاً
فرد عليه الصديق بما يأتي :

« إنه يعوزني الشعور القوي العظيم الذي تتميز به أنت ولكني
أقول لك الحق أنني لا أحب في سبيل الوصول إليه أن أرهق نفسي
أو أزعجها كما إنني لا أريد أن أكون منافقاً فأتظاهر به كذباً ... من
أين أحصل على كل هذا الاخلاص وهذه الحرارة التي تفيض على
مشاعرك أنت ؟؟ كن شقيقاً بي يا صديقي ولا تكرهني من أجل ضعفي
هذا ومن أجل هذا البون الشاسع بين خلقك وخلقى . إنى مدين لك
بكل لحظات سعادتى فى حياتى فلا تلتفت فقط الى نقائصى وعيوبى
بل أذكر ماقد تراه أيضاً فى صالحاً وحاول أن تصلحنى وترشدنى
بقدر الامكان فانى كما تعلم مصغ لك بكل جوارحى » .

وفى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨١ ولد له ابن سماه «الكسى» .
وقد زاره فى هذا الوقت الروائى المشهور «بوبويكنز» فوصف
تولستوى بما يأتى :

« كان متوسط العمر لم يظهر عليه الشيب كثيراً ذا وجه يلم
بوضوح على العطف والرحمة والصلاح ، لا يتمسك بمظاهر الثراء والامارة
مما كان لا يرضى زوجته ويثير اعتراضها : أما هى فكانت لطيفة وجميلة
معنية كل العناية بلباسها وهندامها ذات صوت جميل وتسير فى خفة
ورشاقة » .

ويبدو أن كان في موسكو دهش من حالة الفقر الضارب
 ١٨٨٢ أطنابه بين الناس في كل مكان فأخذ يفكر ويقسائل
 لماذا يعيش أكثر الناس في فقر؟ وكتب على أثر ذلك كتاباً من أعظم
 الكتب هو «ماذا يجب إذاً أن نعمل؟» بدأه في هذا العام وانتهى منه
 سنة ١٨٨٦ وكان له من الأثر على نفسه وعلى غيره ما لم يبلغه كتاب
 قط في التاريخ ويحسن بمن يحبون تولستوى أن يطلعوا عليه وقد
 أفاض فيه بشكل واضح في بيان أحوال روسيا وأنظمتها التي لم تعد
 ممكنة الاحتمال وأهاب بالأشخاص المثقفين أن لا يستريحوا حتى
 يغيروها. كما بين فيه مدى الفقر وعلمته وأسبابه وعلاجه ثم وجه فيه
 سهام النقد إلى الأغنياء الذين رماهم بالبلادة والكسل وبأنهم يعيشون
 كالخشرات الطفيلية على حساب غيرهم وعلى مجهودات غيرهم. واليك
 شيئاً مما قال :

« يوجد بيننا نحن الأغنياء وبين الفقراء سد منيع يقوم على
 تعاليم وأفكار كاذبة وخادعة وقبل أن نحاول أن نخدم الفقراء أو
 ندعى القدرة على مساعدتهم يجب علينا أولاً وقبل كل شيء هدم
 هذا الجدار الفاصل .

لقد وصلت أنا إلى الحق وعرفته ووثقت به وهذا الحق هو أن
 ثرائنا هو السبب الوحيد في شقاء هذا العدد الوفير من عامة الناس .
 هناك خطأ كبير في الهيئة الاجتماعية لاتصاله النورات الاموية

ولكن الأغنياء هم الذين يجب أن يعملوا شيئاً في سبيل إصلاحه . . .
يجب أن يطبقوا فعلاً مشاعر الانسانية - نحن حقيقة في حاجة
الى ثورة ولكنها ليست ثورة دموية بل ثورة في ضمائر الأغنياء وفي
قلوبهم تدفعهم الى التنازل طوعاً واختياراً عن غنائم والى عدم التمسك
بمخيماتهم البليدة المليئة بالكسل والتعطل .

وقال : -

«إن العجب ليس في أن ترى الجياع والعراة ولكن العجب إن
نعيش نحن معهم وبجوارهم ولدينا وفرة من المال ووفرة من الفراغ . . .
والعجيب أننا نعرف ذلك جيداً ونذكره كل الادراك ولكننا نقف
صامتين متجاهلين ».

ثم قال : -

«أني أؤمن من كل القلب وأدرك ادراكاً واضحاً بأنه مادام هناك
عشرات الألوف والملايين من الناس يعيشون في الفقر والحاجة
ومادمت أنا وقليلين غيري نتمتع بالغذاء الوافر والكساء الفاخر
وتغطي خيولنا بالجوخ وارضى غرنا بالطنافس فهذا هو اكبر الجرائم
مهما قال كبار العلماء في تبرير هذا الحال .

إنها الجريمة . . . وإنها تشكر كل يوم . . . وأنا في ترفي انما أشارك . . .
فيها ولذلك فاني شعرت وأشعر وسأظل أشعر بأنني مرتكب جريمة
مستمرة مادمت أملك ثوبين وغيري لا يملك ثوباً ومادمت أمتع
بالوان الطعام الشهى وغيري لا يجد قوته الضروري .

وكان يرى ان الاحسان الى الفقراء رغم أنه جميل ليس مفيداً
الا في حالات الاسعاف فقط وليس هو السبيل الى الاصلاح .

وفي ٢٨ فبراير كتبت الكونتس في مذكراتها :
ان كل شيء في موسكو عظيم لولا أن زوجي يكره حياة المدن
التي يقول أنها مليئة بالرذالية والله والكسل .
وفي هذا التاريخ بلغ الخلاف في الرأي بينه وبينها أشده وقد
قيدت في مذكراتها في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ :

« منذ عشرين سنة ماضيه كنت مثابة وكنت سعيدة وكانت
مذكراتي تفيض بالحب لزوجي أما الآن فاني أجلس مهمومة ، أقضي
الليل لوحدي ، أقرأ مذكراتي السابقة وأبكي فيها حيي المفقود . لقد
هجرني زوجي إلى غرفة مكتبه وأصبحنا نختلف على أصغر المسائل
وأتفهمها ، ولقد هاجمته مراراً من أجل عدم العناية بأبنائنا ومن أجل
عدم ملازمته « ايليا » في مرضه إيه ولكن هناك ما هو أهم
من ذلك فقد فترت علاقته بي وقد قال لي اليوم بأنه يحب من كمل
قلبه أن يتركنا لن أنسى له هذه الكلمات فإنها قد مزقت قلبي ...
اني أطلب الموت فان الحياة بغير حبه مزعجة ولكنه مشغول
عني مأخوذ بالتفكير والسعي الى محاولة السير في طريق كمال نفسه
والسمو بروحه إني أغار عليه أريد أن أموت فان أفكارى
اختلفت واضطربت ... ولاكن بعد قليل تلاقينا وبكيننا وعرفت
أن حبه لي لم يمت . »

ان فواصل حمة نشأت بين الاثنين وأهم أسبابها هو تغير

تولستوى من جهة نظره للحياة مخالفاً في ذلك طبيعاً وجمعة نظار الزوجة ولكنها بعد عام تقريباً في مارس سنة ١٨٨٣ كتبت :

ان تولستوى هادىء ورقيق ويزداد عطفاً ومحبة وان غضباته أصبحت أقل حدة وأقصر مدة .

عاد تولستوى من موسكو الى ياسنايا وجأ فيها الى الاعتزال ليستعيد صحته وهدوءه وكتب الى زوجته في موسكو يقول : —
« لا أجد أجمل من مكانى هذا وان اكبر شر فى المدن هو أما أن الانسان يتبادل المناقشات فى الكلام الفارغ المليء بالكاذب والنفاق وأما أن يضطر الى سماعه والسكوت عليه . ومع ذلك فالاجتماع بالناس أمر ضرورى محتم على كل حال . . لا تقلقى على فان الانسان ملاق نصيبه فى أى مكان . . وانى هنا على أحسن حال » .

وفى فبراير سنة ١٨٨٢ ذهب الى موسكو ولكنه عاد فى الحال متضيقاً .

وفى هذا العام بدأ يدرس اللغة العبرية .

وكتب الى زوجته مرة أخرى :

« لقد سكنت عن عتابك وعن لومك من زمن طويل — انى كنت أقدم على ذلك فى الماضى رغم انه كان يضايبنى ولا أعرف لماذا لجأت اليه ، ولعل سوء صحتى هو الذى دفعنى اليه ولعل السبب كان هو عدم اختبارى ونضوجى . . أنت تقولين أنك تحبيننى وتقولين انى أصبحت فى غير حاجة الى حبك ولكن ثقى ان حبك هو الشئ الوحيد الذى أنا فى أشد الحاجة اليه وانه هو الذى يستطيع أن يمدنى

بكثير من الفبطة والسرور والراحة»

وقد تعرف في موسكو بشخص صار صديقاله فيما بعدهو
« بناي » الذي كان رساما مشهورا من اصل فرنسى مشعر بفساد الحياة
فلجأ الى الريف فى عزلة وهدوء وكتب فى مذكراته عن تأثره
بتولستوى ما يأتى : —

« فى سنة ١٨٩٢ وقع بصرى على بعض كلمات للكاتب العظيم
تولستوى ، قرأتها فى احدى المصحف فوجدتها ثمينة : — « ان ضالة
عاطفه المحبة فينا هى سبب كل هذا البؤس » — لقد تحولت نفسى
وتيقظت روحى عندما تأملت هذه الكلمات وذهبت الى موسكو
لأبحث عن تولستوى العظيم وأقبله وأعمل تحت امره — وصلت
الى داره ومعى معدات الرسم وقابلته وعانقته وقبلته وقلت له
« تولستوى ! . هل تسمح لى ان أرسم ابنتك ؟

قال لا . ان كان ضروريا فلتكن زوجتى . ففعلت ومن هذه
اللمحة أحببت الرجل لانه كشف لى عن مسائل كثيرة كانت مخفية
عنى ، واكثر من ذلك فقد اتفقنا فى اميالنا وفى آرائنا ومبادئنا
وعواطفنا وسائر اتجاهاتنا وظلمت مشهراً كاملاً لا انقطع عن رؤياه
كل يوم . »

وقد استمرت الصداقة الى سنة ١٨٩٤ حيث مات هذا الصديق
كما ان « ستراخوف » كان ايضا صديقا حميما له وظلمت عشرتهما ياقية
الى أن توفى أيضا هذا الصديق فى سنة ١٨٩٦ .
وفى غضون هذا العام أبطل اكل اللحوم .

وفي مايو من سنة ١٨٨٢ ذهبت الكوندس وبنائها بناء على طلبه الى ياسنابا وذهب هو الى موسكو ليقوم مع أولاده الكبار في الجامعة وليراقب طبع كتابه «اعترافى» ولكن الرقيب لم يوافق على طبعه فطبع بعد ذلك في جنيف وترجم إلى اللغات الأخرى، وقبل نشره كان الروميون يحصلون عليه ويطلعون على ما فيه بواسطة تهريب نسخ خطية منه .

وقد أرسل تولستوى نسخة منه إلى ترجمنيف وطلب اليه أن يقرأ الكتاب بغير غضب وأن ينظر اليه من وجهه نظر الكاتب ، فكتب له ترجمنيف يقول : « بكل تأكيد ماقرأه ملتزما الفكرة التي نطلبها منى واني واثق من الآن أن كاتبه هو رجل حكيم ومخلص للغاية وقد لا اتفق معه ولكنى قبل كل شئ سأفهم الكتاب ومأضع نفسى موضع المؤلف ، وأن من يغضب لا يستطيع أن يفكر تفكيراً صحيحاً، وأن الشبان فقط هم الذين يغضبون لأنهم يظنون أن النور لا يسكن إلا بصائرهم ولا يتدخل الا نوافذهم »

وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ كتب ترجمنيف الى صديق له يقول : «لقد قرأت (الاعتراف لتولستوى) الذى منعه الرقيب وقد قرأته بشغف عظيم... أنه هائل يتميز بالصدق والاخلاص وقوة الحجة » وفى هذا السن كان تولستوى يحب أن لا ينادى « بسعادة الكونت » وقد تنازل عن لقبه ، وخاطبه مرة أحد الفلاحين بـ (سعادة) فأجابه تولستوى فى هدوء وبساطة : أنا اسمى فقط «ليونيكولاقتش» ثم انصرف بشكل طبيعى إلى التحدث معه فى المسائل الأخرى

وعندما كان يشرح بعض المبادئ السامية كان بعضهم يسأله أحيانا لماذا لا تعمل أنت بها كما هي ؟؟ فكان يجيبهم :

« أنظروا إلى حياتي الاولى وقارنوها بحياتي الحاضرة تجدوا أنني ماع فعلوا وأنا جاد في محاولة العمل بمبادئى .

إنى حقيقة لاأستطيع أن أصل إلى كل ما أبغى وإنى لموم لا لأنى غير راغب فى السعى أو مقصر فيه ولكن لأنى أجد نفسى أحيانا غير عارف كيف أصل ... انى أحب أن أنعلم كيف أتخلص من كل أهوائى ولى كل الثقة فى أن أنجح ... لا تلومونى فانى أنا ألوم نفسى دائما ..

إنى أحب أن أدل غيرى على الطريق الذى عرفته وعندما أعرف طريقى إلى بيتى وأصل اليه وأنا مثلاً فى حالة سكر أترنح ذات اليمين وذات اليسار فهذا لايعنى أن الطريق هو للمعيب بل إنى أنا المخطيء ، ومتى عرفت الطريق فانى أحب أن أرشد غيرى إليه . أما اذا ضللت فانى أنتظر منكم أن تعاونونى وأن تساعدونى وترشدونى كما انى مستعد لمعاونتكم ومساعدتكم .

لانفرحوا عندما تجدونى فى وقت ماضعيفاً فانكم مثلى يجب أن تبعثوا معى انتهدى الى دورنا . إن قلبى يتمزق من الألم عندما أجدكم لا تعاونونى حين أريد بكل قوتى أن أعرف الطريق ...

ثقوا إنى أعمل بكل جهدى لاطبق مبادئى وعندما أفشل أؤدم ، وإنى أطلب أى معونة فى سبيل الوصول ، وإنى أفرح وأصغى الى أى شخص يحاول مثلى مخلصاً أن يعرف الطريق .

وكان يتألم أحيانا حين لا يرى ثمرة مجهوده ولكنه في ١٢ ديسمبر
سنة ١٨٠٢ فهم بوضوح أن ليس هذا محلا للألم ولكنه نعمة وحكمة
تتفق مع غرض الله .

« ازرع ازرع فهذه مشيئة الله ؛ وليس أنت الذى تجنى
ولكن الله الذى فيك والذى يزرع هو الذى يتصرف فى الثمار »

ان تولستوى فى هذا التاريخ كأن سائراً بسرعة فى طريق القديسين فقد كان معنيا بأعمال مشيئة الله ، وكان يكره جداً أن يسمع ثناء أو أن يرى تسكريماً .

وطالما كرر العبارة الآتية : « بعرق جبينك نأكل خبزك » . وأراد أن يقوم بتأدية بعض الأعمال اليدوية ليضرب مثلاً للآخرين فخرج بعد الساعة الثامنة يوماً يحمل وعاء إلى البرلیملاه وفعلاً ملأه وعاد بحمله فى اثنا عشر ساعة إلى أن وصل به الى المطبخ وهكذا عمل فى اليوم الثانى والثالث ، ومرة أخرى عندما انقطع الماء ذهب كغيره فى ثياب الفلاحين إلى النهر وعاد متعباً جداً وهو يحمل الماء ويقول :- « ليس الهدف هو العمل ولكن الغرض من العمل »

وكان يوقد الموقد ويرتب غرفته وينظفها بنفسه كما كان ينظف حذاءه بيديه .

وفى أثناء الأكل كان يجلس على المائدة ويقدم له البريد الخاص فيلقى عليه نظرة سريعة ثم يتركه ويضع أربع بيضات فى الوعاء ويضع الماء والبن فى الوعاء الآخر وينتظر حتى ينضج الطعام ، وبعد قليل يستدعى على التوالى أولاده الكبار والصغار ، فيقبلونه ويجلسون حيث يشاءون حول المائدة ويتحدثون فى حرية وجزل فيما يريدون . أما عن لباسه فقد كان يسير فى الشتاء لابساً ثوباً من جلد

النعاج وقبعة كذلك وحذاء من أحذية الفلاحين واضعا يده في جيوبه يزور أصدقاءه أو يجول بين الفقراء يساعدهم أو يبحث عن فكرة جديدة فاتحا قلبه وعقله للتأثرات الرقيقة النبيلة .

ولما مرضت مربية أولاده أصرّ تولستوى على أن يذهب بنفسه ليستحضر ابنها من الجامعة لئلا فاحتطاطت هي للامر وأرسلت لابنها برقية تنبئه فيها بأن تولستوى بنفسه قادم له فعلم العبيد والاساقفة بذلك وانتظروا بفارغ الصبر رؤيته ، ولكنه وصل ولم يعرفه أحد لبسطة هندامه فأجلسوه في مكان ما غير لائق ، وحضر له الابن فقابله تولستوى وحيّاه وحدثه باللغة الفرنسية مما أدهش الحاضرين لانهم لاحظوا أن مثل هذا الشيخ الفلاح يتحدث بالفرنسية ولكن أحدا لم يعرفه إلا بعد أن خرج فعلا ومسا في الشارع بعيداً .

وان زوجته وكثيرا من معارضيه علقوا على مسألوكة بما يأتي :-

« إنه مصيب كل الصواب ولستكنا لانستطيع أن نقوم بما يطلبه ، لازل أمامنا خمسمائة عام حتى يستطيع الناس السير في الطريق التي يرشدنا اليها »

وفي شتاء هذا العام أخذ يدرب نفسه على الاعتدال وعلى الصبر وعلى أن لا يتوقع أن يتحول الناس إلى أشخاص خيرين طيبين فجأه أو في فترة وجيزة ولا أن يقتنعوا بأرائه في سهولة ولا في في أمد قصير . وفي أوائل هذا العام بدأ يكتب كتابه « بماذا أؤمن » .

وعندما كان في ياستايا في ابريل ١٨٨٣ شاهد آثار حريق
 ١٨٨٣ في عدة منازل وأحس بيؤس الفلاحين فكتب إلى
 زوجته يقول : —

« انى حزين من أجلهم وإنه لمن الصعب أن يصور الانسان
 ما يلاقونه باستمرار من مشاق وصعاب : ان حنطتهم جميعها قد حرقت
 وان الانسان ليأسف لهم ويعجب بهم عندما يرى فيهم هذا الجلد وهذا
 الاستقلال وهذه الثقة الهائلة. وإنى أرجوك أن تخبرنى أخى بأن يرسل
 لهم ٨٠٠ أردب من الحنطة وأن يقيد الثن على حسابى » .
 ثم أرسل لهؤلاء الفلاحين الاخشاب الكافية ليعيدوا بها بناء
 أكوخهم .

وقالت عنه (أناسيرون) المربية : « إنه كان يجلس أحيانا على
 الطريقة التركية بسيقانه تحته وأحيانا على طريقته هو (الطريقة
 التولستويه) بوضع ساق واحدة تحت الاخرى يسمع لشكاوى الناس
 ومتاعبهم فى الحياة ويرد على كل واحد منهم بوضع كلمات حكيمة
 صالحة كما كان يقول لكل واحد « أحبب جارك ما تحب لنفسك » ،
 ولسكن فى بعض الاحيان القليلة النادرة جدا كانت تظهر عليه لسبب
 انحراف فى مزاجه علامات بسيطة تدل على روح السيادة التى كانت
 متأصلة بين السادة والفلاحين فى روسيا .

وفى مايو سنة ١٨٨٣ ذهب الى عزبته فى سمارة حيث قابل هناك
 بعض الثوار السياسيين ونصحهم بأن لا يقاوموا الشر بالشر بل بالحبة
 والصبر والتعقل .

وفي يونيو سنة ١٨٨٣ عند ما كان في سمارا وصله خطاب من
ترجنيف الذي كان مريضاً مرض الموت في بوجيفال ولكنه جاهد نفسه
فمكتبته بيده بالقلم الرصاص ولم يستطع التوقيع عليه واليك صورة
الخطاب : —

« عزيزي تولستوى الرقيق

لم اكتب لك من زمن طويل لاني أقول لك الحق بأني ملازم
فراش الموت ، واني بكل تأكيد سوف لا أشفى ، واني اكتب لك
خصيصاً لاؤكد لك سروري بصداقتك وزمالتك ولا عبر لك عن
آخر أمنية لي

عد يا صديقي الى نشاطك في كتابة الروايات فكما اكون سعيداً
لو استطعت أن أعرف أن هذا الرجاء سيكون مقبولاً لديك : إن
الاطباء يائسين من حالتي واني غير مستطيع السير ولا الأكل ولا النوم .
يا صديقي يا أعظم كتاب أرض روسيا اصنع الى ما تمسى
وارجو ان تفيدني بأن هذا الخطاب وصلك ثم اسبح لي أن اقبلك ...
لا استطيع أن اكتب أكثر ... اني تعيس .. »

أن مثل هذا الخطاب يدل على ضيق آفاق ترجنيف وأمثاله فان
الأدب الذي يخاو من السعي وراء الحقيقة والذي لا يجعل هدفه
الرقى الروحي والأخوة الشاملة التي كانت هدف تولستوى من طفولته
حتى شيخوخته لا يمكن اعتباره أدباً رفيعاً .

وأكثر من ذلك فقد كان ترجنيف في هذا الوقت غير ملم تمام الامم

بما صار اليه توأستوى ولا بما كان يكتبه من الكتب العظيمة في النواحي الاخلاقية والاجتماعية .

وقد رأى توأستوى أن يتأخر قليلا عن الرد على هذا الكتاب لئتمكن من كتابة رد مفصل ، ولما أراد بعد ذلك أن يجيب على هذا الخطاب علم بأن ترجميف مات في ٢٢ أغسطس سنة ١٨٨٣ .

وفي سبتمبر سنة ١٨٨٣ ذهبت العائلة الى موسكو وبقي هو في ياسنايا ، وقد طلب اليه أن يكون محلفا في المحاكم ولكنه ذهب إلى الحكمة وأخبرهم في هدوء وأدب بأنه لا يحب هذا العمل ثم رفض بعد ذلك حضور الجلسة عدة مرات فحكم عليه بالغرامة ولكنه ظل رافضاً .

وفي أكتوبر ذكر اسم ترجميف كثيراً وقال انه يحبه حباً جماً ويسجب بكتابه « كفى » ولكنه يشفق عليه من أجل انصرافه عن الصلاح والتقوى .

وقد تعلم في هذا الوقت صناعة الأحذية كنوع من الرياضة وصنع لنفسه حذاء للصيد ، وكان يسر عندما يمدح الناس صناعته التي لم يتقنها في الواقع الى الحد الأقصى ، وكان يتوقف أثناء كتابته ليعمل في الأحذية واجداً في هذا رياضة وراحة

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٨٤ انتهى توأستوى من كتابه (بماذا ١٨٨٤ أو من) الذي طبع في جنيف وترجم إلى اللغات الأوربية الأخرى ولكنه لم يسمح بنشره في روسيا إلا أن الروسيين كانوا يقرأونه من نسخ مهربة .

وكان من بين أصدقاء تولستوى ضابط قديم اسمه «شركوف»
كان متفقاً معه في تفكيره وكان والده رجل غني وكانت أمه صديقة
للإمبراطورة ، أما هو فقد خرج عن هذه البيئة وتبذها وشعر بنفس
مشاعر تولستوى وسار في نفس الطريق وكره الحرب والجنديّة
وسائر ما كرهه تولستوى الذي قد عرفه في موسكو في آخر سنة
١٨٨٣ ودامت صداقتهما مدى الحياة لاتفاقيهما الى أكبر حد في
المبادئ .

وليس صحيحاً ما يقال عن تولستوى بأنه عاش فلاحاً يكسب
قوته من الفلاحة بيديه وأنه هجر الكتابة والفن وليس صحيحاً أيضاً
عكس هذا مما قيل من أنه كان يلبس الحرير تحت الملابس الخارجية
ولعل الخطأ نتج من أن تولستوى رأى مرسوماً يحرق الأرض كما
كان يحتفظ بصورة ظهرت فيها بعض أدوات الفلاحة معلقة على
حوائط غرفته .

وأكبر الخطأ حدث بسبب وجود صورة شخص مسكين فقير
مرتدياً لباس الفقراء والفلاحين وضع فوقها أحد الرسامين المشهورين
صوره رأس تولستوى تكريماً له وتبنيّاً لعطفه وحده على الفلاحين
وطالما طبعت ونشرت على أنها « تولستوى في رداء صنعه بنفسه »
أو « صورة تولستوى أخذت له فجأة منذ عشرين سنة » وهكذا .
وكل ذلك خطأ فإن الرسام قصد بها صورته رمزية تدل على حبه للأعمال
اليديوية وللأفلاحة وللأفلاحين إلا أن التجار استغلوا وقلبوا معناها
وفي ١٨ يونيو سنة ١٨٨٤ ولدت له ابنته « ألكسندر » وقبل

ميلادها بيوم واحد غادر المنزل وهو لا يعلم بميعاد الوضع لأنه لم يطق العيش مع زوجته التي أصبحت تختلف معه في كل شيء ، ولما شعرت بغيابه قلقته وانزعجت وأخذت تبكي ولا كنهه هو تردد وعاد في الساعة الخامسة صباحاً متمسكاً بحبه للسلام فذهبت هي إليه في مكتبه ومألفته عما جنته حتى يعاقبها بهذا العقاب وكبت في مذكراتها أنها قالت له « أن كل خطيئى هو أنى لم أتغير كما تغيرت أنت »

أما هو فجلس حزيناً لا يتكلم لأن صراعاً قوياً في نفسه أهم من الحياة وأهم من الموت كان في هذا الوقت يعتمل في داخله ، وقد آوت الجكوتس إلى مخدعها حيث وضعت طفلتها .

وفي يولييه كتب «جاي» إليه : —

لو أنى أحيا حياة الرذيلة أو أعمل الأعمال الشريرة لرضى عنى الناس ، أما إن عملت الخير وسرت في طريق الإصلاح قام الناس في وجهى وأثاروا الضجة والانتقاد ، ومع ذلك فاني لا أريد أن أشكو لأنى أعلم أن هذا لا بد أن يكون »

وفي أكتوبر سنة ١٨٨٤ كتب إلى زوجته يقول بأنه يعمل في الأرض لا من أجل الفلاحة ذاتها ولكن من أجل حبه لمعاشرة ومشاركة الفلاحين

وكانت الزوجة هي التي تقوم بطبع كتبه حتى هذا الوقت .
أما عن ثروته وعن المال فقد كتب في هذا العام الى زوجته .
يقول :

« إنى أكرر ان سعادتنا لا تتوقف على كثرة ما نملكه ولا

على كثرة علومنا وفنوننا ولكن على حالتنا العقلية وعلى حالتنا
الروحية... ولهذا فارجو أن تعلمي أني غير مهتم بما تقولينه لي عن
نقص دخلنا ولا أنا مهتم بممتلكاتي ولا بشئوني المالية»

وحاول في هذه الأيام بكل قوته أن ينفذ مبادئه التي كتبها في
كتابه «ماذا يجب أن تعمل» وأراد أن ينزل عن أملاكه للغير أيًا
كانوا ولكن حدثت عدة منازعات بينه وبين زوجته بخصوص هذا
الامر وأرادت أن تطلب من المحكمة وضع أملاكه تحت الحراسة
فعرض عليها أن تتولى هي وأولادها الإدارة ولا تكنها رفضت في هذا
الوقت ثم ندمت بعد ذلك مع أنها ظلمت تستولي على ما تستطيع من الربيع
وهي حاتقة مغیظة فما كان منه لـسكى يرضى نفسه وضميره ولـسكى
لا يغضبها في الوقت نفسه ألا أن يتجاهل هذه الأموال ويملكها ولا
يستغل شيئًا منها إلا بيت يامنايا الذي كان يعيش فيه .

وكان من نتائج نقص الإيرادات أن اضطرت العائلة أن تستغنى
عن كثير من صور حياة البذخ والترف كما دفع الزوجة الى ان توجه
كل عنايتها الى طبع ونشر وبيع مؤلفات زوجها لـسكى تجمع من
وراء ذلك مالا وفيرا ، أما هو فكان يتألم غاية الألم عندما كان يرى
أن كتبه تطبع وتباع تلقاء ربح مادي .

وان أيام تحوله هذه لمي أصعب الايام وأدقها وصفاً على المترجم
لانه كان في بعض الاحيان مضطرباً مع نفسه ومع أسرته ومع اصدقائه
وكان غير مستقر بعد في آرائه غير عارف نهاية المسائل وحدودها .

الا انه في حوالى سنة ١٨٨٥ بدأت حياته الجديدة تستقر
حيث كان قد حدد أهدافه وعرف غاياته وعرف ما يستطيع
وما لا يستطيع أن ينفذه في سبيل السكالم ، وسار في طريق واحد
بجاهد نفسه ليقضي على العقبات التي تقف في سبيل رقيه الروحي
وليحاول هدم الاسباب التي تعمل فعلا على شقاء الانسان والهيوط به .
ولعل اكثر ما واجهه وما أثر فيه هو اشتراكه في الحروب
ورؤيته آلة الاعدام في باريس وهي تقطع رأس المحكوم عليهم وموت
أخيه العزيز بين يديه ومشعوره بالاستعباد والضغط على الحريات وبسائر
المظالم والانظمة الشنيعة المتأخرة التي كانت سائدة في روسيا في
هذا الوقت .

وفي هذا العام انشأ هو وأصدقائه لجنة خاصة للطبع والنشر
قصد من ورائها أن يخرج للقراء من طبقات العامة والفقراء كتباً
مفيدة في أبسط أسلوب وبأرخص الاثمان بدون نظر الى كسب مادي
وقد نجح هذا العمل ودام طويلاً .

وفي هذه الايام كان يعمل كثيراً في الحقل بيديه وكان يعمل في

صناعة التجارة لانه كن يمجّد العمل اليدوى من كل قلبه وظل متابراً على مقاطعة اكل اللحوم من اكتوبر سنة ١٨٨٥ واهمال هندامه ولبس لباس الفلاحين بعد أن كان السيد العظيم والامير الخطير الجليل الذى طالما لبس الحرير والدمقس الناعم وتحلى بافخر الثياب والنيامشين، وقد نحف جسمه ونقص وزنه ولكنّه كان فى غاية الجزل والرضى وسلام النفس والقلب وكان أحسن مثل للأب يحب أولاده ويلاعبهم ويجرى معهم ويجتمع بهم كثيراً .

وفى هذا العام ابطال عادة الصيد التى أحبها كثيراً والتى طالما ذكرها ووصفها فى كتبه وقد حاول ابطال التدخين فسكت عنه بعض الوقت ثم عاد اليه ولكنّه اقتصر بعد ذلك نهائياً عليه .
ثم اجتمع مرة هو وأحد اصدقائه وبعض أولاده فعملوا بأنفسهم أكثر من ثلاثة مشهور فى اعداد الآجر وفى بناء كوخ لارملة فقيره سقط دارها .

وكتب فى هذا العام « حيث توجد المحبة يوجد الله » ثم « شيخين » .
ومن أمثلته التى ضربها على قزوع النفس إلى الرقى الروحى
المثل الآتى : — .

خطبت ابنه ملك لشخص غنى جداً لم يعجبها لانه ليس من العائلة المالكة فأخذ يسترضيها ويقدم لها سائر الهدايا الفاخرة والجواهر الثمينة وبنى لها قصوراً من المرمر مزهاة بالذهب ومجمله بافخر الرياش، وعمل كل ما فى طاقته لارضائها بسائر وسائل الترف والمتع ولكنها ظلت نافرة غير مبتهجة غير راضية ولا مكترثة لكل هذا

النعم لأنها تظن طوال الوقت أنها ابنة ملك : وكان خير لها أن تزوج بابن ملك .

هكذا الحال مع الروح فهما أغدق العالم عليها من مسرات ونعم عالمية ولذات ومشهوات جسمانية فهي لا ترضى ولا تستريح ولا تشعر بالسعادة الحقيقية لأنها هي ابنة السماء ولا تنزع الا إلى قوانين السماء .

وقد قال تولستوى لأحد أصدقائه : « ان معنى الكوننت ومعنى سعاده الكوننت قد زال أثرهما تماماً من نفسى ... دعنى لأضيّع وقتى القصير فى هذه الحياة فى الشر والعيب ... دعنى أحاول دائماً الخير . فانى اليوم حى وغدا فى القبر ... » .

وفى ١٨ يناير سنة ١٨٨٦ فقد ابنه «الكسى» فى الرابعة من عمره وقد طالب الطفل عند وفاته أن يرى والده فذهب إليه ودخل الخرفة فى هدوء واتزان فشنخص إليه الابن ورفع يديه وبصره إلى فوق وقال « أنا أرى ... أنا أرى ... » فسألت أمه ماذا ؟ ولكنه لم يجب وأسلم الروح ، أما تولستوى فلم ير فى الموت إلا أنه أكبر مذكرو ومنبه للصالح .

وفى هذا العام أخرج كتاب « قوة الظلام » وهو عبارة عن رواية تمثيلية تظهر قوة الشر وفداحة آثاره فى الحياة ، وكتب سلسلة من الرسائل القصصية الصغيرة الكى يسهل على عامة الشعب فى روسيا الاطلاع عليها وتفهمها والاستفادة منها ، وقد عنيت احدى الجمعيات الثقافية بطبعها ونشرها فانتشرت انتشاراً واسعاً هال الحكومة أمره

لأنها كانت تحوى آراء تتعارض مع ميولها واتجاهاتها وميادستها
فاصدرت أوامرها بعدم طبعها .

وفى سنة ١٨٨٦ اشتدت رغبته فى مقاطعة السكك الحديدية وفى
عدم استعمال النقود وفى حبه إلى الرياضة الخارجية ومعاشرة الناس
ومجالستهم والتقرب اليهم ومعرفة أحوالهم ، وقد دفعه كل ذلك
مره إلى أن ينتقل من موسكو إلى يانينايا أى ١٣٠ ميلا سيرا على
أقدامه حاملا هو بنفسه معه زاده وملابسه البسيطة وكراسته وقامه
وامتصحب معه ثلاثة من الشبان ، وبعد ثلاثة أيام وصلوا وعلى وجه
تولستوى علائم السرور والنشاط وقد لوححت الشمس بشرته ، وكان
لازال مشغولا بتكليف حياته والسعى إلى التأثير فى حياة الآخرين
ومحاولة تغييرها إلى الأحسن والاكمل ، وقد تعرف شيئا عنه من خطاب
كتبه إلى صديقه « د جاي » فى ٢١ مايو سنة ١٨٨٦ : —

« ليس أسعد ولا أجمل من أن تعمل للآخرين حين نكون
قائما بعملك أنت ، ان رأسى قدور حين أفكر كيف أرتب سائر أمورى
وانصرف فى سائر شئون حياتى الشخصية ، ولاكنى أرى أن أحسن
الحلول فى هذا السبيل هو أن أفكر أولا هكذا : ما أحسن ما أستطيع
أن أعمله لفلان ؟ ماخير المساعدات التى أقدمها لفلان ؟ ثم فلان ممن
هم حولى فى كل حين ؟ بعد ذلك تفتتح بصيرتى وتزول من أمامى
العقبات وأجد كل شىء جميلا ملائما ... »

إن العالم كله اهتم بتولستوى فى هذا الوقت لأنه عنى ببحث
مسائل الدين والفقر والملكية والأنظمة الحكومية والاجتماعية وغيرها

واضعنا نصب عينيه المصدق والامانة والصراحة والحق والجرأة: وقد ظمر اهتمام الأجانب به من كثرة الطلقات التي قدمت للحكومة من أجل السماح لهم بزيارة «ياسنايا» لمقابلاته والتحدث اليه ومحاولة أخذ رأيه في كثير من المسائل .

أما الكونانس فلم ترتفع معه إلى هذا الاتجاه وقد سمعته مرة يقول لأولاده ولأحد ضيوفه :

« إننا سننام مبكراً ونقوم مبكراً نستقبل شروق الشمس ونقابل الفلاحين بغير خجل لأننا سنعمل معهم : فغضبت وقالت لأولادها: « إن هذا لن يكون، انتم كوتات وولدت كوتات وستظلون كوتات » ، وقد آلت هذه العبارة تولستوى وضيغه فتبادلا القول المأثور « إن أعداء الإنسان هم أهل بيته » وقال تولستوى رأيته النهائي في ترجميف :

« لقد ظل إلى آخر حياته مستقلاً لم ينزل مرة عن كبريائه ارضاء لحاجته ، لقد ضل وأخطأ ولكنه في أخطائه كان مخلصاً » وكان ينصح دائماً : « انتبه إلى عملك ولا يحد نظرك عنه مادمت قائماً به » .

وأخرج في هذا العام روايته العظيمة Ivan The fool « إيفان المغفل » التي قال انه نقل فكرتها عن بعض الفلاحين أثناء محادثاته معهم كما نقل عنهم كثيراً من الأفكار عدة مرات . وفي هذا الوقت ظهر عليه بشكل بارز عدم مبالاته بالطبقات العليا وحببه العميم للعمال والفلاحين .

وقد انتهى أيضا في هذا العام من كتاب « موت إيفان إيليش »
(The death of ivan ilych) الذي وصف فيه حياة وموت قاض آمن
في آخر حياته بفراغ سني حياته الماضية ووجوب تعديلها . . . وهو
يشمل على بعض دراسات نفسية عظيمة .

وقبل صيف سنة ١٨٨٦ مرض تولستوى من جراء جرح في
في ساقه ورفض استشارة الاطباء إلا أن زوجته لم تستطع السكوت
على ذلك فادعت انها هي المريضة وطلبت أن تذهب إلى موسكو
لستشير طبيباً فسافرت وعادت ومعها الطبيب الا أن تولستوى لم
يقبل في أول الأمر أن يعرض نفسه عليه، ولكنه تحت عوامل الصداقة
التي تربطهما عاد فسمح له بالكشف عليه فاتضح أن حرارته مرتفعة
وأن ساقه منتفخ وأن حياته في خطر وقد تألم بسبب هذا المرض عدة
أيام حتى كان يصرخ في بعض الاوقات ويستدعي طبيباً فيمكنه معه
طوال الليل وظل ملازماً الفراش تسعة أسابيع قامت الكونتس فيها
بتمرينه بكل نشاط وهمة .

١٨٨٧ وفي ديسمبر سنة ١٨٨٧ كتب الى صديقه « جاي »
يقول :

« أنا سعيد وهادئ ولا يعوزني شيء، ولدي عمل كثير وعندما
يمدحني الناس أخشى أن يتيقظ في شعور شرير باستحقاقي لهذه
المكافأة الشخصية . وأخاف أن أحس بالزهو وباعجابي بنفسى ولكن
أحسن علاج للتخلص من هذه الاحساسات هو أن أصرف
كل وقتي في العمل المفيد وبمجرد أن انتهى من واحد انصرف الى الآخر

وفي هذا العام سنة ١٨٨٧ كتب كتاب «الطبل الفارغ مبینا فيه كره
الفلاحین للحروب» وكتب رواية «المقطر الاول» The first distiller
التي مثلت عدة مرات في إنجلترا.

وفي هذا الوقت كانت مستعمرات تولستوى منتشرة في عدة
أنجاء في روسيا يطبق فيها كانها آراءه عن عدم التملك وعن عدم
مقاومة القوة بالقوة أو الجريمة بالعنف وعن عدم الاهتمام والاعتماد
على محاكم الحكومة وعدم الالتجاء الى قوة البوليس ، ولكنها بعد
ذلك فشلت بسبب اضطهاد الحكومة للمشتريين فيها وبسبب
بعض الأخطاء.

وقد اتخذ بعض الناقدين هذا الفشل دليلا على عدم صحة بعض
آراء تولستوى من الناحية العملية فقط ورأوا أنه من الضروري أن
تظل ملكية الارض مع الحكومات أو البلديات أو هيئات أخرى
معينة لخدمة باقى الناس.

وفي سنة ١٨٨٧ وصلت نظريات ومبادئ تولستوى التي بدأها
من عشر سنين إلى نتيجة واضحة كاملة نهائية لم يتغير منها إلا القليل
في السنين القادمة

وأهم ما كتبه في هذا العام كتاب « في الحياة » بين فيه فلسفته
عن الحياة والموت ومما قاله :

« أن الناس يخشون الموت لأنه ينهبهم إلى فساد حياتهم وإلى
ضرورة الحياة الصالحة »

وقال :

« ولما كنا نعرف ونؤكد أننا جئنا من ماضٍ لم نره ولم ندركه
فكذلك يجب أن نرضى ونقنع بمستقبل لا نستطيع أن نبصره وأن
ندركه »

وقد أكد تولستوى في هذا الكتاب إيمانه القوى الثابت بحياة
مستقبله بعد الموت .

وكان لهذا الكتاب أثره في كثير من القراء منهم المرحوم
« جروسبى Grosby » الذى كان قاضيا أمريكيا فى المحاكم المختلطة
بالأسكندرية والذى غير فعلا وجهة نظره فى الحياة بعد أن قرأ هذا
الكتاب ، وقد دفعه حبه و إعجابه بتولستوى الى أن سافر الى روسيا
لمقابلته فاستقبله أحسن استقبال ومن ضمن ماقاله له « إن الشباب
والصحة والثروة كلها عوائق تحول دون الإصلاح ولكن عليك أن لا
تستسلم لها بل أن تجتهد ... » ثم عاد جروسبى الى أمريكا وطلق
الاشتغال بالسياسة وعمل فى ترجمة ونشر عدة مؤلفات لتولستوى اذ
قد أصبح من أحسن وأحكم المدجين بمبادئه وعاش حياته صالحا قانعا
راضيا سعيدا برجائه فى حياة أخرى .

ولقد أصبح اسم تولستوى قرين مبدأ محبة الجار ، كما أن عزلته
الاولى تطورت الى رغبة حارة فى مقابلة كل انسان .

وقد استنصحه ابنه بعد أن تخرج من الجامعة عما يعمل فأشار
عليه بأن يكون فلاحا .

وقال ان خير أنواع التعليم هو الذى يدعو إلى محبة الناس وحب
البساطة وعدم التعميد فى الحياة ، وتطبيقا لذلك كان هو نفسه يتكلم

الصدق بأسلوب الفلاحين الساذج ، وقال إن المطلوب هو التأدب الحقيقي أما التأدب الشكلي فهو بكل تأكيد رياء وكذب ونوع من الانانية .

وكانت متعته في الصيف هي الزهور والورود يجمعها ويضعها أمامه ويشمها بين حين وآخر في شغف وسرور .

وكان يعمل كل شيء لنفسه بنفسه حتى الطعام ، وأصبح مغرماً بالأطفال يحبهم ويحب ضوائهم ولعبهم ، وقد اتصل بالصدقة مع الأمير « خالكوف » الذي كان (كولونيل) في الجيش وحارب ضد الأتراك ولكن ما انتهت الحرب سنة ١٨٧٨ حتى رفض الاشتغال في الجيش والقتال وقبل مبادئ تولستوى وسار عليها ، وكان رجلاً أميناً صادقاً ونال من أجل هذا مركزاً عظيماً بين الفلاحين ، لأنه أنكر عقائد الكنيسة غير المسطورة في الإنجيل ذاته فقد نفى إلى القوقاز وعاش وسط الدخوبوريين الذين رفضوا العمل في الجيش سنة ١٨٩٥ ثم اتهم هو بتحريرهم على ذلك فصدر الأمر بجعل منفاه في أقاليم البلطيق .

وكان تولستوى في تربية أولاده يلقي عليهم تعاليمه وآراءه بدون استعمال أي نوع من الضغط لأنه كان يخشى أن يتمسكوا بآرائه بغير إخلاص أو بدون دوافع طبيعية صادرة من أعماق نفوسهم مجاملة له ، ولذلك فقد نشأوا على الحرية وسلكوا في الحياة بوحى شعورهم الخاص ووفق آرائهم واقتناعهم .

ولولا خلاف بينه وبين زوجته على المبادئ والاموال وعلى

تربية الاولاد لا اعتبر الفيلسوف وزوجته أسعد زوجين في هذا الوقت ،
وقد قالت مرة الكونتس بأن أول عهد وآخر عهد في زواجهما كان
سعيداً أما ما بين العهدين فلم يكن

أما عن أبنائه فقد كان الأكبر منهم غير مقتنع بمبادئ والده بل
كتب بعض الكتب يعارضها وينهاضها ، ولكن الابن الثاني أحب
هذه المبادئ وسعى الى تنفيذها فترك الدراسة العالية ، وزعم أنه كان
متزوجاً بسيدة من عائلة عظيمة إلا أنهما عاشا في قرية صغيرة بغير
خدم وبغير أبه وبغاية البساطة

أما الصغار فبعد أن كبروا لم يتمسكوا ببعض مبادئه بل
خدموا في الجيش متطوعين مختارين رغم أن والدهم كان يدعو الى
مقاطعة التطوع في الجيش .

أما ابنته الكبرى Tatiana فقد ساعدته كثيراً في الكتابة
والمراسلات وكانت تحبه ويحبها حباً خالصاً وكذلك الابنة الثانية
« ماري » Mary فقد كانت أكثرهم حباً له وقد عاونته كثيراً في نسخ
كتابات ورسائله وفي تعلم أطفال القرية وفي عيادة المرضى والعناية
بهم ، وبعد أن تزوج الابنتان السابقتان حلت محلهما ابنته الصغرى
الكونتس الكسندرا التي أحبتها أيضاً وأحبت آراءه وقامت
بخدمته .

وقد كتب في هذا الوقت كتابه « ماهو الفن الحقيقي ؟ » .
وقد تأثر بأرائه الكاتب « سيمانوف » الذي قال بعد أول مقابلة
له : « لقد أصبحت اليوم بعد مقابلتي لتولستوى أكثر رجولة

وأقوى خلقاً وقد اتسعت أمانى الافاق وأحسست بمشاعر كثيرة
أريد أن أصل فيها الى حل .

وأهم ما تميزت به حياة تولستوى فى هذا الوقت هو سعيه
المتواصل التزيه ليصبح فعلاً رجلاً صالحاً وليكون فعلاً مثلاً
طيباً .

وكان عند اجتماعه بالناس يساوى بينهم جميعاً ويحدثهم فى محبة
واخلاص ويشجعهم على السلام لأنه كان قادراً أن يستخرج منهم
أفضل ما فى دواخلهم ولأنه بهذا كان يشعرهم بقيمتهم : وكان يرى أن
حسن العلاقات بين الناس لا يتوفر إلا بحسن الخلق والمحبة .

وفى ٣١ مارس سنة ١٨٨٨ ولد لتولستوى ولد هو « إيفان »
بينما كان فى عمر السنتين من عمره وكانت زوجته فى الرابعة
والاربعين فبلغ عدد أولادها ثلاثة عشر ابناً منهم تسعة أولاد وأربع
بنات مات منهم ثلاثة فى طفولتهم .

وكان يجتمع فى منزله فى موسكو كل يوم خميس بعدد من الطلبة
وغيرهم ليسمعهم آراءه الحكيمة ويتبادل معهم الاحاديث وطالما نصح
بأن الانسان يجب أن يحافظ أولاً بقدر الامكان على الود وعلى حسن
الصلات بالناس المحيطين به .

وقد وصفته احدى الصحف الامريكية فى هذا الوقت بأنه التلميذ
الثالث العشر للمسيح (تلامذة المسيح كانوا اثني عشر) . وكانت هذه
الصحيفة مغلقة ملقاة بجواره فاطلع عليها أحد أصدقائه وأخبره بما فيها
فضحك ضحكة طويلة طبيعية وقال « حسن .. هذا حقيقة كلام

امريكى . . . » (This is trus American) ولم يسمح أن يلتقى أى
نظرة على الصحيفة وأعاد تغليفها وأهملها وظلت ملقاة في غلافها،
وتصح مرة صديقاً فقال له : —

« ان كان تفكيرك سليماً ورأيك نزيهاً فلا تحفل بالصحاب ولا
بالاعتراض والافسوف لا تقول شيئاً حكيماً ولا تعمل شيئاً مفيداً » .

وفي هذا العام منات رواية « قوة الظلام » في باريس وقد
اهتم فيها بالكلام عن الفنون وكثيراً ما غير رأيه بشأنها، ١٨٨٩

وكثيراً ما كتب عن المبدأ المعروف الذى دافع عنه وهو عدم استعمال
القوة والعنف فى الزام أى انسان لكى يعمل عملاً معيناً أو يمتنع عنه .
وفى هذا المعنى تراه لا يوافق على كل انظمة البوليس والحكام والضرائب
وقد هاجم القول القديم « عين بعين وسن بسن » وقال أن هذا
المبدأ ليس خاطئاً فقط بل هو فى غاية الغباء وقال أن كل ما يضر
غيرنا انما يضرنا ، وانه يجدر بنا ان نبحث كل شعور بالكراهية
والحقده ، وقد أظهر هذه المعانى السامية فى أروع أسلوب وفى أقوى
حجة .

ثم انتهى من كتابه « انشودة كروتزر » الذى بحث فيه
المسائل الجنسية بين الرجل والمرأة مما اثار سخط الكنيسة ومعارضة
الكثيرين ومما اثار جدلاً كثيراً فى سائر انحاء روسيا لانه قصد أن
يحد الى أوسع مدى الاتصالات الجنسية بين الزوجين وأن يدعو إلى
العزوبة الطاهرة وقد غير من آرائه هذه واعتدل فيها فى سنة ١٨٩٧ ،
وقد توسطت فى عام ١٨٦٠ الكونتس إلى جلالة الامبراطور ليأذن

لها بطبع هذا الكتاب في روسيا فسمح لها بالمقابلة واستقبلها استقبالاً
حسناً وسألها لماذا نهتم بطبع هذا الكتاب وهو ضد الزواج مع انها
زوجة ؟ فقالت لجلالاته « انى مهتمة به كمنشرة لا كزوجة » ، ثم
سألها عما إذا كان لدى تولستوى مطبعة سرية فلما أكدت له عدم
صححة هذا الخبر سمح لها بطبع ونشر هذه الرواية بشرط أن تكون
ضمن مجلد واحد يجمع بعض مؤلفاته الاخرى . وقد تعرض كثيرون
من المعارضين لحض هذا المبدأ في صورته المبالغ فيها ولكن كل هذه
الاعتراضات لن تقضى على المعاني الثمينة السامية التي كتبها بخصوص
العفاف الحقيقي .

وقد اعترض عليه بأنه لم يقل بهذا الرأى إلا لأنه شاخ و« عجّز »
وبأن فكرته هي فكرة نظرية ، وقد تحدث معه صديق في هذا وهو
في سن السبعين فقال : أنا كنت بالأمس زوجاً وأرجو أن لا أكون
مرة أخرى وكل ما أعنيه أن الواجب الأول على الانسان أن يسعى
فعلاً وأن يحاول فعلاً تنفيذ ما يؤمن به الى الحد الذي يستطيعه .
ولم تذهب العائلة في شتاء سنة ١٨٨٩ كالعادة الى موسكو لأنه
ظل مشغولاً بكتابة روايته الكوميديّة « نمار الهذيب » التي مثلت
لأول مرة في هذا العام في يأسنايا تم أعيد تمثيلها في روسيا وفي غيرها
من بلاد أوروبا وأمريكا بعد ذلك عشر مرات .

وفي صيف سنة ١٨٩٠ رسم « جاي » صورة لابنته « ماشا »
١٨٩٠
وفي خريف هذا العام كان « جاي » ضيفاً في يأسنايا ورسم
صورة عظيمة لتولستوى ، وفي نفس العام رسمت له الصورة المشهورة

« تولستوى فى حجراته » بواسطة رسام آخر .

ثم قدّم « جاى » كهديّة صورة أخرى لتولستوى عن « ما هو الحق ؟ » فأعجب بها كل الاعجاب ، وظل لا يتحدث عن شيء إلا عنها لمدة ثلاثة أيام ، وقد تأثر « جاى » من هذا التقدير فعانقه وقبله وقال له : —

« لا تمدح الصورة هكذا لأنك بهذا تمدحنى وأنا أخشى أن أغتر فلا أعود قادرا أن أرسم شيئا جميلا بعد ذلك . »
وقد كانت أهم أهداف تولستوى الحقيقية هى محاولة تبديل حياة الناس وجعلهم صالحين بقدر الامكان يلتفون حول مبدأ المحبة ، ومن عباراته المعروفة : —

« مبدؤنا الوحيد هو المحبة لا بالألفاظ ولا بـالاعمال »

وفى سنة ١٨٩١ قابله أحد رجال الحساب المشهورين وتبادلا
الكلام فسأله تولستوى عن الارقام الكاملة فى الحساب
فعرّفها ولاكنه نسى الرقم ٢٨ ، والاعداد الكاملة هى التى إذا جمعت
الاعداد التى تقبل عليها القسمة تنتج نفس العدد مثل ٢٨ فانها تقبل
القسمة على ١ و ٢ و ٤ و ٧ و ١٤ ، فاذا جمعت هذه الاعداد كان الناتج
هو ٢٨ (العدد الكامل) ومثل هذه الاعداد قليلة والغريب أن
تولستوى عاش ٨٢ سنة (أى رقم ٢٨ مقلوبا) وولد فى يوم ٢٨ وسنة
١٨٢٨ وكان يقول أن العدد ٢٨ هو أسعد الاعداد له .

وفى ابريل سنة ١٨٩١ وقعت مجاعة خطيرة فى روسيا حزن لها

عزنا شديداً جداً وأحس أحد أصدقائه بالواجب في هذه النكبة فاتفق معه تولستوى على أن أموالهم وأموال غيرهم من أمثالهم هي التي يجب أن تسد حاجات الفلاحين وجوعهم، ووصف الصديق له الجوع وأثره في بعض البلدان ودعاها لزيارتها فزارها لكي يقضى يومين هناك يشاهد بعينه آثار الجوع، ولكن الحال اقتضاه أن يقضى عامين كاملين هما عام ١٨٩١ و ١٨٩٢ معنياً بالأمر مجاهداً في سبيل إنقاذ الناس ...

وقبل التحدث عن عمله في المجاعة نذكر أنه بينما كان في يasnaya وصلته عدة خطابات وطلبات بخصوص طبع وترجمة كتبه ورواياته فأصدر إعلاناً يسمح فيه لمن يريد طبع كتبه أو ترجمتها أو تمثيلها باللغة الروسية أو غيرها أن يفعل ذلك بغير أى إذن منه وبدون أى مقابل وذلك في المكتب التى ألفها من سنة ١٨٨١ وما يستجد ، أما ما قبل ذلك ومنها « أنا كارينينا » فقد كان أعطى الحق فيه لزوجته التى غضبت من هذا التسامح .

ويظهر أن هذا التسامح من جانب تولستوى أدى الى عدم اتفاق الطبع والترجمة من بعض المتاجرين بالمكتب ، أما الكونتس فإنها كانت تعنى بطبع النسخ المعتمدة وتبيعها بأسعار حقيقية مرتفعة .

وحدث أن المسرح الامبراطورى — وقد تعود أن يصرف لكل مؤلف تمثل فيه روايته مبلغاً من المال — أراد أن يدفع لتولستوى هذه المكافأة كالعادة ولكن لم أصحاب الشأن بأنه لن يقبل ذلك

فقد عرضوا عليه أن يوزع المبلغ على الأعمال الخيرية فاختر أهون الشرين ووافق على ذلك مكرها

أما مشكلة أمواله وضياعه الواسعة فقد انتهى الأمر فيها في هذا العام فقد رأى أولاً إن يتنازل عنها للغير ولكن الحكومة وزوجته كانا يعارضان في ذلك وكانت الحكومة مستعدة بناء على طلب الزوجة أن تصدر أوامرها ضده إن هو تصرف هذا التصرف

وقد دعى زوجته في غرفته قبل ذلك وشكى إليها أن المال أصبح عبثاً ثقيلاً على عاتقه ولم يعد قادراً على حمله وأنه لا بد أن يلقيه عنه لأنه يعتبر الثراء جريمة وهو لا يريد أن يكون مجرمًا، ولكنها قاومته كثيراً ونشأ عن ذلك نزاع طويل فرأى أن يهمل الأملاك والادارة والاخل كما رأينا، وقال بعضهم انه قسمها بعد ذلك على فلاحيه ولكن المرجح ان اولاده وزوجته هم الذين اقتسموها بالتساوى بينهم في هذه السنة .

واليك المثل الذي ضربه على الملكية المحدودة :—

رأيت الناس كقطيع من الثيران والعجول والبقر داخل سور من حديد خارجه مرعى واسع اخضر جميل ينمو فيه العشب والنبات بوفرة هائلة جدا .

وفي داخل هذا السور وجدت مرعى ضيقاً لا يكفى مابه من الغذاء لهذا القطيع فتتزاخم وتتعارك افراده ليحاول كل واحد منها الحصول على اليسير من القوت .

ثم رأيت صاحب الامر على هذا القطيع سيداً كريماً صالحاً

حكيمًا وافي مواشيه مرة فلم يعجبه حالها وفكر فيما يصلح شأنها، فبنى لها حظيرة طليقة الهواء وفيرة الماء جعل لها مظلة تقي المواشى شر الحر وقسوة البرد، ثم غطى قرونها بمواد ليننة تمنع الازى عنها عند التناطح والتنازع، ثم عني عناية خاصة بالابقار والثيران المسنة فخصص لها مكانا طويقه بالاسلاك لتأمن في أواخر أيامها شر الشجار والنزاع ولتضمن لنفسها الطعام اللازم لحياتها بغير زحام، ولما وجد العجول تتمنور جوعاً فيقتتل الكثير منها ويموت ويبقى البعض هزبلاً أمر بتوزيع كمية من اللبن عليها في كل صباح لتمتدح أن تحيا وتعيش.

بذل المالك كل ما في طاقته لتحسين ماشيته وعمل كل جهده لتوفير وسائل الراحة لها.

الا أنى سألته سؤالاً واحداً «باماً» لماذا لا تفكر في إزالة السياج؟
«لماذا تجتنب التفكير في اطلاق سراح المواشى إلى المرعى الواسع الخصب الذى يقع خارج السور؟»

«فاجاب لوفعلت ذلك لما استطعت أن أحصل منها على لبنها»
أما المجاعة فقد عمل فيها تولستوى بكل جهده بمساعدة صديقه المذكور فقد كتب كثيراً في جرأة وقوة حتى كاد يقبض عليه لينير العطف ويطلب الانصاف ويندد بالحكومة ويجمع المال والرجال وقد استخدم أولاده وبناته وزوجته في ملاحظة الجوعى والمرضى وخدمتهم بكل إخلاص، وأقام هو ووسط الاقاليم الجائعة مخصصاً لنفسه غرفة حقيرة ضيقة في إحدى القرى أثاثها سرير بسيط من حديد يشغل

أحد حوائط الغرفة وطاولة من خشب ورف صغير للكتب ، وقد وصفت هذه الحجرة بأنها « الحجرة المقدسة »

وكان يقول « انه ليس من العدل ان ندعى أننا نحن الذين نطعم هؤلاء الجميع لأنهم هم في الحقيقة الذين يطعموننا » .

وقد احتمل آلاماً كثيرة وصبراً طويلاً في هذه الايام حتى كاد يفقد ذاكرته من كثرة التعب ، وقد أحبه الجميع ورفعوه إلى أعلا مكان ، ولم يوجه اليه أى اعتراض سواء من رجال الحكومة أو من رجال الدين أو من أى مصدر آخر .

وكان يقول أن خدمات الحكومات في مثل هذه الأحوال هي خدمات فارغة إذ لا أثر للقلب ولا للعاطفة فيها لانها لا تقوم على مبدأ التضحية الشخصية بل على واجبات آليه .

وكان تحت رعايته ٢٤٦ مطعماً تقوم باطعام حوالى ثلاثة عشر ألف شخص من الكبار و ١٢ مطعماً للأطفال قامت بتغذية حوالى ثلاثة آلاف طفل ، هذا عدا ما كان تحت إدارة أولاده في جهات أخرى . وكان صوت تولستوى عالياً مدوياً قوياً أيام أن كان الضغط في روسيا بالغاً أشده على الحريات وعلى الصحف وأيام أن كان الظلم منتشرأً والفوضى سائدة ، وكاد يحكم عليه بالنفي في هذا الوقت لولا وساطة عمته لوزير الداخلية كما قررت هي .

وكان بعضهم يظن فيه خطأ بأنه سياسى خطير ، كما أن بعض الذين لم يفهموه ثاروا عليه عند اطلاعهم على صحيفة روسية كبيرة هاجته وشوهت سمعته ، وقد حاول ذلك أيضاً رجال الدين في كل وقت

لأنه كره طقوسهم وتعاليمهم الخاطئة ونفر من ربائهم وتفاقمهم ولم
يتقيد إلا بالأنجيل ذاته يفسره تفسيراً صحيحاً بسيطاً جميلاً خالياً
من التعقيد والابهام .

وكان يرى أن ضمير الإنسان هو خير برهان على نزوع الروح
إلى الإله وقال بهذه المناسبة :

« ما يدريني ؟ أما عن جسدي فكل ما أعلمه هو أنني تولستوى
وأن لي زوجاً واطفالاً وتسكسو ذفني لحية شعناء دكناء تكاد تغطي
وجهي قبيحاً : أعلم كل هذا وهو سهل واضح لأنه ظاهر داخل جواز
سفري : أما عن روحي فاني لا أعرف عنها الكثير ولكنني أعرف أنها
شيء يصبو إلى السمو والقربى من الله » .

ثم قال عن تقسيم العمل بين الطبقات المختلفة ما يأتي : —
« أن تقسيم العمل وتخصيص كل فئة وكل طبقة بعمل
معين وجد في جميع الأزمنة والأمكنة وسيظل يوجد على الدوام
واني لا أنكر وجوده ولاكني أريد له وجوداً عادلاً حراً وأريد أن
أبحث عن الطرائق التي تؤدي إلى ذلك . . . » .

ثم قال : —

« أن عمل العامل هو أكثر أهمية وأكثر لزوماً من عمل المشتغل
بالعقل ، واثنا ندرس العمال والفقراء لسرتنا ولمونا بينما الواجب هو
أن ندرسهم لا لنصف أحوالهم بل لنخدمهم فعلاً » .

وفي سنة ١٨٩٢ أخرج عدة روايات هامة وبدأ
 كتابه المشهور « أن مملكة الله في داخلك » ١٨٩٢

The Kingdom of god is within you الذي انتهى منه في ١٤ مايو
 سنة ١٨٩٣ ولم تسمح الحكومة الروسية بطبعه كالعادة الا انه انتشر
 فيها كسائر كتبه في نسخ خطيه مهربة كانت تقرأ بشغف زائد
 واعجاب شديد ، وهو من أعظم الكتب ، وقد شرح فيه مساوي
 استعمال القوة مهما كان مصدرها وشكها ومهما كان العمل شريراً .
 وقد كتب فيه عن الحروب وفضائلها بأقوى أسلوب ووضح
 بيان مما لم يكتبه كاتب من قبل ، ولا زالت كتاباته في هذا الشأن
 مرجعاً غنياً لكل من يريد التحدث عن الحرب ولكل كاتب ينبغي
 البحث في أسبابه ونتائجه ، والى الآن لم يكتب واحد في التاريخ أعظم
 مما كتبه هذا الشيخ في هذا الشأن .

ثم تعرض فيه أيضاً إلى مشروعيه قيام الحكومة فانكر عدالة
 وجودها وهاجمها أشد مهاجمة مطالباً بإلغاء الحكومات وترك
 الناس أحراراً .

وأمم ماقاومه بكل قوة في هذا الكتاب هو الجيوش فقد
 عارض في قيامها وحرض على عدم التطوع فيها كما انه هتك أسرار
 الوطنية ومبرراتها وكشف عن نتائجها الشريرة الظالمة .

واليك بعض ما كتب عن هذه المسائل :

الحرب

عندما اسمع بقيام حرب بين دولتين فأنى لا استطيع أن أسلم بأن أحد الفريقين هو الماوم لوحده دون الآخر فكلهما يشترك في عمل قاس فظيع وان كان تصرف احدهما اسوأ من الآخر .
ومن العبت أيضاً أن يعزى سبب الحرب إلى تشمبرلن أو غليوم الثاني أو غيرها من الأشخاص لان الحرب في الحقيقة تنشب لاسباب ثلاثة :

أولها : عدم توزيع الملاكية بالعدل وسلب بعض الناس للبعض الآخر .

والثاني : هو وجود هيئة الحكومات تضم فئات عسكرية متعلمة ومدرّبة على الحرب ومعدة للقتال .

والثالث : هو انتشار التعاليم الدينية الخادعة الفاسدة .

اننا حين ننسب كل الشر إلى هؤلاء الأشخاص إنما نخفى الاسباب الحقيقية التي نشترك نحن أيضاً فيها معهم؛ وانما حين نضغط عليهم ونذممهم إنما نسهم دماءنا ونثير انفعالاتنا ونهيج أعصابنا ولا نغير شيئاً من مجرى الامور لان شمبرلين وغليوم ونابليون ليسوا الا آلات الجهل والشر العمياء تدفعها من وراء قوى العوامل الثلاث المذكورة الشنيعة .

وما دمنا نخص أنفسنا بالمال ونترك غيرنا للتعب والنصب فلا بد

من الحرب لأجل الأسواق ومناجم الذهب وللمحافظة على ثرواتنا .
وما دمنا نوافق على ذلك العمل السحري العظيم الذى يعد
القتلة المأجورين المنظمين (الجنود) ، ويجعلهم يتصورون انهم يقومون
بأجل الأعمال وأرقاها ، وما دمنا نشترك فيه ، ولا نعمل على مكافئته ،
فاننا نهيء دائماً أسباب الحرب .

وما دمنا نرضى ولا نغضب على ما فى الديانة من تحريف واعوجاج
وخلط ، وما دام يوجد بيننا جيش يحارب من أجل الدين ، ومدافع
مقدسة ، وحروب مقدسة ، فستبقى الحروب .

إننا نعلم أننا هذا النوع الفاسد من الدين ونعلنه على الملأ ، ثم
ندعى أن تشبهه إن وغيره هم المسئولون عن سفك الدماء .

لقد غاظت قلوب الناس فى زماننا هذا ولا سيما العلماء ، فانهم
لا يستطيعون أن يدركوا معنى القوى الروحية وأثرها ولكنهم
يعترفون بقوة قنبلة من الديناميت تساوى خمسين جنياً مثلاً تنفجر
وسط السكان الأمنين فتقتضى عليهم ، ولا يعترفون مثلاً بقوة الحق
والصدق لأنه لا يحدث ضجيجاً ، ولا أصوات مزعجة ، ولا يهشم
عظاماً ، ولا يريق دماء

يبذل العلماء جهدهم ليقدموا الأدلة على أن الناس تعيش كالسائمة
غير خاضعة ولا مسيرة الا بعوامل اقتصادية فقط ، أما العقل
فى نظرهم فلم يخلق الا للهو وللعب

إن العقلاء يؤمنون بمبدأ المحبة والاخاء الانسانى ، ويعتدون

القتل جريمة شنعاء، ومعظمهم لا يشترك في ذبح الحيوان، ولكنهم مع ذلك يشتركون في جرائم القتل متى سميت حرباً، وعندئذ يبيحون الهدم والقتل والنهب والسلب وهتك الحرمات، ويفأخرون بها غيرهم وينافسونهم فيها

أن جميع الوسائل العلمية التي يراد بها إبطال الحروب كالقانون الدولى والمحاكم الدولية والمؤتمرات والمعاهدات وما شاكل ذلك كلها مظاهر خادعة

يقولون إن الحرب موجودة منذ القدم، فلا بد من قيامها فى المستقبل، ولأن لها بعض ما يبررها وحقا، قد يجد الإنسان فى كل مصيبة عنصراً مفيداً، ولكن هذه الفواجم لا تبررها المنافع التى تعود على بعضهم، ولا يسوغها قيام حروب سابقة.

يذهب مئات الألوف من الرجال إلى ساحات القتال يهتزون ويترنحون تحت تأثير الصلوات الضالة والمواعظ والارشادات الخاطئة، وتحت تأثير الحفلات التى تقام لتكريمهم، والصور والصحف التى تكتب لتجيدهم، ويرتدون ثياباً عسكرية رسمية، ويحملون أسلحة فتاكه برفقة مختلفة الأنواع، تاركين زوجاتهم وآباءهم وأبناءهم تسكاد قلوبهم تنخلع وتنفطر من الخوف والحزن، لولا تصبرهم الكاذب وادعاءهم العظمة الفارغة

وهناك فى ميادين الحرب يرتكبون باسم الوطنية أفظع الجرائم، ويقتلون من لا يعرفونهم ومن لم يعتدوا عليهم من قبل.
أما الذين يظنون بعيداً عن الميادين فانهم يسرون بأخبار القتل،

ومنى علموا بأن عدداً عظيماً من أعدائهم قد قتل، تهللوا ورفعوا صلوات الشكر لله، واهمين بأن هذا شعور كريم عظيم، أما إذا امتنع بعض الناس عن إظهار هذا الشعور الأثيم وحاول النقد أو الإصلاح فانهم يعدونه من الخونة الغادرين ويهيج عرصة للشتم والضرب والاهانة والتصغير ...

إننا إن تمسكنا بالمحبة والعدل والصدق فاننا نجد في نفوسنا قوة حقيقية تنبعث منا وتدفعنا أن نقول :

« اذهبوا أنتم الى الحرب أيها الرؤساء والوزراء والأساقفة والقسس والقواد والمؤلفين والمحربين الملحدون الذين لا قلوب لكم اذهبوا أنتم وعرضوا بأرواحكم لنيران المدافع والقنابل ، فاننا لا نحب أن نذهب للقتال ولن نذهب — اتركونا في سلام لنبنى ونصلح الأرض ونزرعها لكم أيها الكسالى الطفيليون »
ثم قال : —

ليس هلاك الأجساد وقتل الأبدان هو أشد نتائج الحرب ، بل أشد منه وأخطر هو « هلاك النفوس وفساد الأرواح » .

الحكومة

أما عن الحكومة فقد قال :

أن وجود الحكومة مضر وخطر بل أشد خطراً من جميع المخاوف التي يروع بها الناس ، لأنها لا تقلل ولا تصالح مشرور الهيئة الاجتماعية وأمراضها بل هي تقويها وتعمل على تثبيتها وما سعادة

الناس في ظل تلك الحكومات التي يقال عنها إنها منظمة إلا سعادة
ظاهرية سطحية بل وهمية .

ليس في استطاعة الحكومات أن تكون نافعة حتى إن تألفت
من قوم أطهار متدينين ، لان طبيعة أعمال الحكومات تدعو الحكم
الى سلوك مسالك الشدة والعنف ، وتضطرهم الى أن يكونوا في
غاية القسوة والفساد .

إن نظام الحكومة يشبه مخروطا جميع طبقاته تقع تحت سيطرة
من يوجدون في القمة ، وهم بالأسف أشد مكرراً وأشد صلابة وقحة
من مبادئ الناس ..

كان الناس الى أواخر القرن التاسع عشر يظنون أن الحياة
مستحيلة بغير الحكومات ، ولكن الآراء تغيرت وتبدلت بالرغم من
المساعي التي تبذلها هذه الحكومات لابقاء الناس في حالة طفولة
مستمرة ، كي يظل المظلوم شاعرا بالحاجة الى من يشكو اليه .

انك اليوم ترى الناس مثلاً يقولون للحكام :-

إنكم تقولون أن الأمم المجاورة لنا كالصين واليابان ستهاجمنا ،
ولكننا نتلو الصحف ونعلم أن لا أحد يهددنا ، بل أنتم معشر الحكام
تتجاهلون على بعضكم وتختلفون لأغراض في نفوسكم أنتم لا ندركمها
نحن . ثم تتخذون الدفاع عن شعبكم ذريعة كاذبة لشن الحروب ولا فلاسنا
بالضرائب ، بالمحافظة على الأسطول أو للانفاق على فرق الجيش المعدة
للحرب ، أو لإنشاء السكك الحديدية الحربية ، بينما هذا كله لا فائدة منه
الا ارضاء مطامعكم وكبرياؤكم أنتم !!

انتم تقولون انكم تدافعون عن ملكية الأرض لمصلحتنا لكن
دفاعكم هذا هو الذي أدى الى أن الأرض قد صارت فعلا ملكا للأغنياء
والشركات، وأننا قد حررنا منها فعلا، وأصبحنا تحت سلطة الأثرياء
وأصحاب المصانع الكسالى الذين لا يعملون !

أنتم تزعمون أنكم تكفلون لكل عامل نتاج عمله، ولكنكم لا تعملون
سوى العكس، حتى أصبح الذين ينتجون المواد الغالية الثمينة بفضل
دفاعكم في حالة لا يتألون معها ما يقوم أودهم وهم فوق ذلك يقضون
كل حياتهم خاضعين لسلطان أولئك العاطلين الذين يسمون
بالرأسماليين ...

يقولون بأنه لولا الحكومات لما كانت تلك المعاهد العالمية وغيرها
التي نحن في أشد الحاجة القصوى إليها، ولكن لماذا نفرض هذا الفرض؟؟
ولماذا نتوقع أن الناس لا يستطيعون تدبير الحياة لأنفسهم كما يدبرها
لهم رجال الحكومة !!

إننا نرى الأمر على تقيض ذلك، فأننا نجد اليوم تقابلات العمال
وجمعيات التعاون والشركات والسكك الحديد وغيرها، تقوم على أسس
أحسن وأفضل من الهيئات الحكومية، وبدون أقل مساعدة أو تدخل
من الحكومة .

وإذا كان لا مناص من تحصيل الضرائب، فإن الأفراد الصالحين
يستطيعون بكل سهولة جمعها بطرق أفضل من طرق الحكومة،
مادامت الأعمال المطلوبة مؤكدة النفع لكل انسان وخير المجموع .
ثم لماذا نحسب ان المحاكم لا توجد الا مع قومه ورهبه الحكومة؟

ان الفصل فى المنازعات بواسطة أشخاص يرتضيهم الخصوم وجد
وسيوجد فى كل زمان ومكان ، بدون حاجة إلى الالتجاء إلى سلطة
الرعية الحكومية .

أن الذين بأيديهم السلطة ليسوا أعقل ولا أحكم من المحكومين
بل هم أقل عقلا منهم ، إن لم يكونوا غير عقلاء بل هم أحيانا كثيرة
يعتبرون من أسوأ الناس الذين يسعون إلى أكبر تكبات الانسانية
من أجل مصالحهم الشخصية .

يسألون : كيف يستطيع الناس أن يعيشوا بلا حكومة ؟ والأولى
أن يسألوا : كيف يستطيع ذوو القلوب والعقول ان يعيشوا راضخين
للحكومة فى شدتها واستعبادها للمحكومين !!

إن لسان حال الحكام يقول : —

أنتم كثيرون ، ولكنكم أغبياء لا طاقة لكم على حكم أنفسكم أو
تدبير شئونكم العامة ، فلذلك نحن تأخذ على أنفسنا العناية بكم والدفاع
عنكم والمحافظة على النظام بينكم ، وننشئ لكم المحاكم والمعاهد العلمية
والطرق والبريد وكل مايؤدى الى خيركم مقابل أن تقوموا لنا بمطالبتنا
الهينة ، مثل اعطائنا جزءاً من إيرادكم ، وانتظامكم فى ملك الجيش
للمحافظة على الأمن وعلى الحكومة !!

ولكن عندما تصبح الأموال والجنود فى قبضة الحكومة ، فهى
لا تبنى بوعودها من أجل العناية بالشعب ورفاهيته وحماية الرعايا بل
تتحرش هى بالأمم المجاورة وتثير غضبها لاشعال نار الحرب التى تؤدى
الى الخراب والدمار ...

وقد سرد تولستوى الحكاية الآتية فى هذه المناسبة :—

يحكى فى الف ليلة وليلة أن سائحاً نزل فى جزيرة خالية من السكان فرأى شيخاً عارياً القدمين ، جالساً عند ساقية على عين ماء جارية . فسأله الشيخ ورجاه أن يحمله الى مكان آخر ، فمطف السائح عليه وحمله على كتفيه وسار به الا أن الشيخ لف رجله على رقبته ، وأبى أن ينزل ، وضيق الخناق عليه ، وصار يقوده حيث شاء ، والشيخ يقتطف من ثمار الأشجار التى يمر بها ، ويأكل منها بشهية ماشاء ، ولا يعطى منها شيئاً للسائح المسكين ، بل يضربه ويسىء اليه إذا هو حاول الوقوف أو التهل !!

هذا هو نفس ما يحدث للذين يقدمون الاموال والجنود للحكومات ، فبالاموال تشتري الحكومة المدافع ، وتعلم القواد وتدريبهم على الغلظة والقسوة وهؤلاء بدورهم ينظمون الجيش من اولئك الذين أخذوا للجنودية بطريقة مدهشة أحكم وضعها وتطبيقها فى غضون الأعوام الماضية وأطلق عليها اسم النظام !

إن الجيش المنظم هو الآلة التى تقترف بها الحكومات أشنع الفظائع دون أن يلجأ أشخاص الحكومة أنفهم إلى البطش بأيديهم مباشرة .

هذه هى الخديعة العظمى . والوسيلة الوحيدة لحق الحكومات ليست هى أبداً الثورات والعنف والقوة ، بل هى كشف اللثام عن هذه الخديعة الهائلة .

إن شعور الناس هو أهم عنصر فى هذه المسألة

ولكن انظروا

إن جميع المساعي التي بذلت وتبذل للتخلص من الحكومات بواسطة الشدة والثورات ، كانت تديجتها في كل زمان ومكان أن الحكومات الجديدة التي تحمل محل القديمة ، تكون في الغالب أقسى منها وأشد . فالسعى لإبطال العنف بالعنف لم يحرر الناس ولن يحررهم من الظلم والبطش ؛ بل هو تماماً مثل إطفاء النار ، أو منع الماء بالماء أو سد ثامة بفتح أخرى .

إن شيئاً واحداً هو الذي يعنيني وهو أنني لا أرضى أبداً بالحكومات التي تشفق الناس إن أخطأوا وتبعث بالجيوش لتقتل الشعوب الأخرى ، ولتفسد أخلاق أهلها .

وإن أهم شيء في الأمر الآن هو أن نعلم أن الحالة سيئة بسبب وجود الحكومات ، وأن ندرك ضررها وعدم فائدتها ، وبعد ذلك لا بد أن نهتدى بأنفسنا إلى نظم عادلة معقولة .

شرع الناس يفهمون هذه الحقيقة الآن ، بعد أن بلغت سلطة الحكومات من القوة ما لا يمكن التغلب عليها بالقوة ، وقد آن لهم أن يدركوا أن ليس هناك سوى وسيلة واحدة للحياة الطيبة هي « الاعتقاد والعمل بتعليم ديني طبيعي مفهوم للاغلبية العظمى من البشر » .

أما ما عدا ذلك من المساعي التي ترمى إلى الغناء السلطة وإلى تنظيم حياة صالحة سعيدة فلا يجدي نفعا .

لست في حاجة إلى وضع القوانين وإنشاء النظم الحديثة . بل نحن في أشد الحاجة إلى تهذيب النفوس ، وما تغيير القوانين والانظمة في

الحياة رجاء تغيير أخلاق الناس؛ إلا قول عابث وهراء كاذب
ان السياسيين يرون أن أعمالهم ونظرياتهم السياسية كالأشتراكية
والديمقراطية و... و... الخ هي وحدها التي تستطيع خدمة الإنسانية؛
ولكنهم علاوة على تناقضهم مع بعضهم ومع أنفسهم فهم قوم غامضون
مضلون. ليس هناك سوى طريق واحد لخدمة الناس وإصلاح شأنهم؛
هو نشر الدعوة، وحث الإخوان ليجاهد كل واحد نفسه؛ ويحاول أن
يسير في طريقه إلى السكinal الخلقى وتهذيب النفس.

حقاً إن هذا الكفاح هو مجهود شاق؛ هو لا يكسبنا شهرة؛ ولا
يحبنا مركزاً عالياً؛ بل هو يقضى بانسكار قيمة النجاح الظاهري البراق؛
وقد يحط بقيمة الإنسان من الناحية الاجتماعية؛ ويجعله عرضة للمهانة
والتعنيف والتوبيخ والآلام والموت أحياناً. ولكنه هو وحده الذى
يكفل للفرد حرية الحقيقة؛ وهو الذى يهديه إلى النور الحق؛ وهو
المجهود المستمر الذى نبلي به بأعدل الطرق وأسهلها تلك النتائج الغالية
العزيزة المحببة إلى قلوبنا، ونصل به إلى تلك الأهداف الجميلة التى
يستنفذ المصلحون الاجتماعيون كل وسائلهم الخادعة المعقدة الفاشلة
فى سبيل الوصول إليها.

ولست هذه الوسيلة وسيلة نظرية خيالية؛ كما يقول الذين
لا يرون فيها لهم مصلحة مادية بل إن جميع ماعداها من الوسائل التى
يلجأ إليها الزعماء فى تغريب وخداع هى النظريات الخيالية الفاسدة التى
يفسدون بها الناس...

وليس العيب فيما أراه أن لا تظهر نتائج الكفاح الروحى سريعاً؛

فلا بد من التريث والانتظار ، ولا بد أن نصبر ريثما تنبت البذور ،
ثم تظهر الأوراق ، ثم الاغصان ، ثم الشجر الناضج المفيد .
نعم .. أن في الامكان تثبيت فروع شجر كبيرة في الارض ،
لتشبه مجرد الشبه غابة نامية كبيرة ؛ ولكن هذه الغابة الوهمية لا تلبث
بعد قليل أن تزول من مجرد لفحة هواء ضعيفة .

وهذا هو الحال في محاولة إنشاء النظم الاجتماعية الحاضرة بشكل
يقرب لنا النتائج السطحية ، ويجعل لنا منها مظهراً براقاً ، فانه يحول
حتماً دون إيجاد النظم الحقيقي المفيد لان السرعة كثيراً ما تعيق أمانى
الاصلاح ولا تحققها .

إن الحقيقة السهلة المفهومة التي لا تقاوم أبداً ، والتي لا يعترض عليها
أبداً ، والتي لا تفشل أبداً ، هي أنه لا بد لصلاح الحياة من أن يكون
الناس صالحين .



وقد كان لكتابه هذا (مملكة الله في داخلك) أثراً كبيراً في
نفوس القارئین ، حتى دفع بعض الانجليز إلى مقاطعة الاشتراك في
الانتخابات والامتناع عن اعطاء أصواتهم .

وكان في هذا الوقت مبتعداً عن السياسيين والزعماء الذين
كانوا أحياناً يحبونه ، وأحياناً يقاومونه ، حسبما تمليه عليهم مصالحهم
ومراكزهم في الحكومة .

ذهب مرة لزيارة رجل عظيم وعندما طرقت الباب فتحت له
الخدمة، ووجدته مرتدياً ثوباً بسيطاً من جلد النعاج وحذاء من أحذية
الفلاحين، فاشمأزت منه وعجبت لوقاحة هذا الرجل الفقير الذي يأتي
مباشرة إلى الباب الخاص ليسأل عن سيدها الكبير، أما هو فعندما
علم بأن صديقه غير موجود قال لها بكل سماحة :-

« قولى له إن الـكـونـت تـولـستـوى سـأل عنك » فارتبكت
واضطربت، عندما فهمت أن من قابلته بالاستهزاء والاستصغار كان
ليس فقط « كونت » ولكنه أعظم الكونتات .
وقد قال مرة لصديق :-

« إنى أكره أن يتوقع الناس منى مطابقة تامة كاملة بين كل كلمة
أقولها، وبين كل عمل أقوم به وإنى أتصور أن بعضهم يقول لى :
« كيف تقول بهذا وكيف لا تعمل به ؟ »

لا . لا . أنا لست قديساً... ولم أدع هذا... إنى إنسان وأنى
كثيراً ما أقع فى آراء خاطئة ... وكثيراً ما أعجز عن التعبير تماماً عما
أفكر فيه أو عما أحس به .

هذا من حيث التفكير : أما من حيث الاعمال فخالى أسوأ لأنى
ضعيف، منقل بأهواء وعادات غير سليمة ... أحب أن أعبد آله الحق
ولكنى كثيراً ما أضل ...

عندما ينظر الناس إلى بآني لا اخطئ، يرون في سآلو كى اخطأى
أنه متعمد، ويرمونى بالنفاق والرياء، ولكنهم عندما يفهمون ويشقون
بآني إنسان ضعيف، فانهم يرون في أخطأى نوعاً من العجز لا نوعاً
من الرياء ويدركون الحقيقة بآني سآع جهدى بكل أمانة وإخلاص
لأصيح رجلاً صالحاً طيباً .

وفى شتاء عام ١٨٩٢ و ١٨٩٣ وصف لنا « سميانوف » تولستوى

فقال : —

« إن لحيته ابيضت وان شعره أصبح غزيراً ويظهر أن جسمه قد
نحف قايلاً. ولكن نظراته لا زالت قوية ثابتة مستقرة كأنها تحترق
روح من يحدته، وكان وجهه يفيض بالرجاء والأمل، ويعمل بإيمان على
نشر حسن العلاقات والمحبة بين الناس وبعضهم .

وعلم لأول مرة أن شخصاً هو أستاذ فى أحد المعاهد رفض فى
أغسطس سنة ١٨٩١ أن يعمل فى الجيش ليرضى ضميره، ولكنى يخدم
آله السلام لا آله الحرب، فحكى عليه بالسجن سبع سنين، ولكنى
مات فى ٧، يناير سنة ١٨١٤ من جراء مرض أصابه، عندما تركوه واقفاً
وقتاً طويلاً فى البرد بلا بس خفيفة، فاهتم تولستوى للامر خصوصاً
وأنه قد حدث مثل هذا مع كثيرين كانت الحكومة تخفى أمرهم
وتضطهدهم .

أن الخمس عشرة سنة الماضية كانت سنين جهاد وتغيير
وتبديل فى حياته وفى أفكاره ومبادئه، ولكن بعد عام ١٨٩٣

١٨٩٣

لم يحدث فيه أى تغيير هام، فقد قضى بقية أيامه فى هدوء واستقرار وثبات وسلام.

فى بدء شبابه كان يميل الى الشجار والخصام وكان عصبي المزاج كثير النورات والانفعالات، أما فى أيامه الأخيرة فقد أصبح مشهوراً بتواضعه الجمل ووداعته التى لاحد لها ومراعاه الى أبعد حد شعور الآخرين، لأنه امتلاً حقاً بالمشاعر الاخلاقية العميقة ولم تظهر عليه آثار العنف إلا أحياناً قليلة جداً ضد الحكام وكبار الساسة والعلماء والتجار.

وكان فى هذا الوقت يحب التحدث إلى الفلاحين والطلبة والأصدقاء وسائر من يجتمع بهم مصادفة، ليحاول أن يلقنهم فكرة من أفكاره التى كان يثق بها أو يؤمن بخيرها وفائدتها وفى هذا العام طبع له كتاب « سر فى النور ما دام هناك نور » ولما جاءت هذه الأيام الهادئة المستقرة تفرغ فيها لكتابة كتبه الجليلة العظيمة.

وفى يناير ١٨٩٤ دعى إلى اجتماع علمى فى موسكو لسماع محاضرة كان سيقمها صديقه « زنجير »، فتردد لأنه كان قد أنف الاجتماعات الحافلة ولسكنه ذهب من أجل صديقه فلم يجد مقعداً فى قاعة الاجتماع فأجاسوه على المنصة تكريماً له، ومع أنه كان عنيفاً بعض الشيء مع العلماء إلا أن الحاضرين منهم سرعان ما علموا بوجوده حتى هلّلوا ورحّبوا به وأخذوا يصيحون ويصفقون طويلاً، ثم يعيدون التصفيق حتى خجل تولستوى ووقف يشكر الناس بالحنانة

١٨٩٤

متواضعة وحياء جم ولكن التصفيق سرعان ما عاد ثانياً وثالثاً حتى
كاد يزلزل المكان .

ولما قابل صديقه بعد ذلك عتب عليه وقال له « لماذا لم تخبرني
أن هناك مظاهرات !! كل هؤلاء الأشخاص بثيابهم الرسمية ...
إن الحفلة لم تكن حفلة عامية بل مسخرة عامية ... » .

وفي هذا العام عند ما بلغ السادسة والستين من عمره كان يركب
الدراجة التي كانت مستعملة حديثاً في روسيا، ولما كان استعمالها يتطلب
رخصة خاصة فقد سعى إليها وحصل عليها .

ولما انتهى صديقه الرسام « جاي » من عمل صورة « الصليب »
(صليب المسيح) أحضرها ليعرضها على تولستوي، فطلب أن يتركها
له قليلاً ثم أخذها لوحده في غرفة ساكنة هادئة ، وبعد قليل عاد
« جاي » إليه في هذه الغرفة فوجده يزرف الدمع ، وقام يعانقه ويقول
له « إني أشعر يا صديقي العزيز أن هذا هو عين ما حدث تماماً . إنها
أعظم شيء عملته ! »

ثم كان يتوقع القبض عليه في أي وقت ، وفي يونيو سنة ١٨٩٤
كتب يقول « ... إنه من الصعب أن أظل بعد الآن طليقاً .
وفي هذا العام مات « جاي » وهو أعز وأحب أصدقائه إليه
فكانت خسارته فيه عظيمة .

ومما لا شك فيه أن زوجته كانت إحدى العقبات في سبيله لأنها

كانت دائماً مهتمة كل الاهتمام بالمال وبالثراء ؛ كما أنها كانت تعلن في صراحة وعناد عدم موافقتها لكثير من مبادئه القويمة ، ولكنها مع ذلك عاشت في أول الأمر لمدة سنين طويلة زوجة صالحة .

ثم كتب في سنة ١٨٩٤ بعض الكتب : « المسيحية والوطنية » « العقل والدين » « الأخلاق والدين » ؛ وقد كانت هذه الكتب وماتلاها ثماراً ناضجة من أثمار حياته الطويلة التي فاضت بالتأملات والاختبارات في أعقد المسائل وأخطرها ، وجاءت بعد جهاد عنيف نزيه مع نفسه .

وقال عن « الكتابة » ما يأتي : —

« إن إرادة الله السامية الفارقة ومعاني الواجبات العليا في هذه الحياة لا يمكن كشفها ولا تبادلها بين الناس ولا كسبها إلا بالعمل بها فعلاً ، أو بكتابتها والتعبير عنها في لغة جميلة ، يعلن فيها الكاتب ذاته بين ثنايا الكلمات ؛ لهذا فالكتابة والتعبير عن الحق بالالفاظ البليغة تعتبر واجب مقدس هام . »

الوطنية

أما عن الوطنية فقد قال : —

لقد قلت عدة مرات أن الوطنية في شكلها الحاضر هي شعور آثم غير طبيعي خطر ، لا حكمة فيه ولا عقل ؛ وإنها مسبب كثير من آلام البشر اليوم ، ولا يجب تلقينها للناس كما يحدث الآن ؛ بل ينبغي انتزاعها والقضاء عليها

أن من الوطنية الآن الاحتفاظ بسائر مميزات كل أمة وبخصائصها
مهما كانت، وفي هذا غباوة ظاهرة؛ فقد تكون هذه المميزات في وقت
من الأوقات عادلة وصالحة، وقد تكون في وقت آخر غير متفقة مع
الفضائل الحاضرة ومع المبادئ السامية التي تدعو إلى تأخى الناس —
وان بقاء كل أمة تعمل جهدها للمحافظة على ما يميزها عن غيرها ليؤدى
إلى الانقسام والعداء بين الدول؛ فإن الدولة التي تظن أنها خير الدول؛ وأن
أهلها أفضل الناس قاطبة؛ لا تستطيع الحياة إلا في عراك وحرب.

إن فكرة الوطنية فكرة في غاية الغباء؛ ومع هذا الغباء الظاهر
فإن المعلمين والمثقفين يتجاهلون بينهم وبين أنفسهم؛ وينكرونه في
كثير من الأحيان بل هم يطرونه ويطرون نتائجها !!

إن الذين يحافظون على هذه الفكرة هم الخبثاء الذين يرمون إلى
المنافع الشخصية فيدافعون عن الوطنية بوسائلهم الخادعة المصطنعة؛
وبما يملكون من أدوات القوة ووسائل التأثير والأموال.

الوطنية من حيث إنها شعور المواطن بحبه لبلاده، ومن حيث
إنها تدعو الشخص إلى بذل النفس والمال في سبيل الضعفاء من أبناء
وطنه؛ وحمايتهم من القتل وانتهاك الحرمات ودفع عادية الأعداء هي
أرقى فكرة حقاً؛ ولكن زمنها قد مضى وانقضى؛ وقت أن كانت
كل أمة تعتبر الأغارة على غيرها؛ وسفك الدماء واقتراف أنواع
الفظائع لمنافعها الشخصية أمراً غير معيب بل عادل ومشرف؛ إلا أن
الشعوب منذ ألفي عام أخذت تدرك فكرة الأخاء الانساني؛ وأخذت
ترقى بها تدريجياً؛ وأخذ الناس يطبقونها فعلاً في بعض الحالات؛ وقد

عمل تعدد العلاقات بين الدول وسهولة المواصلات بينها على اتهاض روح الصداقة بين الأمم .

ان الطبقات الحاكمة وجميع المتمتعين بمراكز كبيرة كالمولين والصحفين والفنيين والعلماء لا يحتفظون بمراكزهم الا على أساس قيام نظام الحكومة الذي لا يعتمد الا على الوطنية ؛ لذلك فالوطنية قائمة اولاً لان الحكام وأمثالهم هم الذين يملكون أكثر وسائل التأثير في الناس فانهم يعملون بكل همة ونشاط في اذكاء الشعور بالوطنية وبقدر وطنية الموظف أو غيره ليكون نجاحه ورقية ١

الوطنية والحرب المتسببة عنها تعود بالأرباح الطائلة على الصحافة وعلى كثير من فروع التجارة ؛ وان كل موظف وكل محور آمن في منصبه مادام يخطب ويكتب في الوطنية ؛ وان كل امبراطور وملك ورئيس ينال من الشهرة وبعد الصيت بقدر مشغفه بها وانها كما فيها ... ان الطبقات الحاكمة تذكى نيران الوطنية في المدارس في عقول الطلبة بطريق القصص التاريخية التي تنسب كل المفاخر الى شعبيهم ، وتزعم أنه خير الشعوب وان الحق دائماً في جانبهم ...

وان الزيادة في جيش أى أمة خوفاً من الخطر يدعو الأخرى الى زيادة جيشها ، واثارة الوطنية في نفوس أهلها ، وهذا يؤدي الى زيادة أخرى في جيش الأمة الأولى ، وهكذا يتمعد الأشقياء بعضهم بعضاً !! أن ما يقع على الأمم المقهورة والقاهرة من الخراب والدمار أصبح في نفوس البشر أمراً عادياً مألوفاً ! وإنما المهم في نظر الساسة هو

البحث عن شيء واحد هو : أى دولة لها الحق فى أن تستولى على أرض غيرها وتهلك سكانها وتهدك عمراتها ۱۱

إن الشر يتفاقم، والحالة تزداد سوءا والعالم سائر إلى هوة محيقة لاقرار لها، فقد أخفقت الطريقة التى حسبها بعض البسطاء نافعة لانقاذه وهى « مؤتمر لاهاى »... فبالرغم منه قامت الحرب بين الانجليز والفرنسفال ..

إن قصار النظر الذين يعتمدون على ظواهر الأمور، يعتقدون أن محاكم التحكيم الأولية والمؤتمرات والمجالس تبطل الحروب وتضع حدا للزيادة المطردة فى التسليح، ولاكن هذا كله عبث وتضليل، فإن الدول لا تلقى سلاحها الا اذا وثقت ببعضها ومادامت هذه الثقة مستحيلة فلا الجيش يسرح، ولا عدده يقل، بل هو سيمتزايد حتما، وستظل كل دولة مترقبة جيوش الدول المتاخمة بمائها من الجواميس حتى تقع كوارث الحرب فى وقت ما

إن المؤتمرات والمعاهدات على هذا الأساس إما أن تكون صادرة عن غباوة وحماقة، وإما أن تكون مضيعة للوقت وإما أن تكون خداعاً وتغريراً.

أن عاطفة الوطنية التى تشد أزر الجور والظلم، هى عاطفة خسيصة، مخزية مضررة مفسدة للآداب، لأنها لا تلائم غير طبيعة أخط الناس خلقاً ولأنها تجعل من الانسان عبداً لحكومته وعبداً لوطنه وعبداً لأشر غرائزه .

أفيقوا أيها الناس وتدبروا ما أنتم فاعلون ... أنعموا النظر ملياً

لتعلموا أن أعداءكم ليسوا الترنسفاليين أو الانجليز أو الفرنسيين أو
الألمان أو الفنلنديين أو الروسين، بل أنتم أعداء أنفسكم، واعلموا أنه
بتمسككم بأهداب هذه الوطنية الفاسدة إنما تتجرعون كؤوس
الشقاء

أخذت الحكومات التي لا تقوم بالوطنية على مسؤوليتها أن
تحميكم من الخطر ولكنها في الواقع تجعل منكم عبيداً وجنوداً مسلحين
خاق بكم الهلاك والدمار من كل ناحية ... فانه ينتظر بين آن وآخر
أن تسوء علاقات الدول ببعضها فتقطع العلاقات وتقودكم حكومتكم
وطنتيكم الكاذبة إلى مذبحه هائلة يقتتل فيها الآباء والأبناء والاخوان
والاصدقاء !!

ومهما كانت قسوة هذه المذبحة وشديتها ، فإن الحرب تعود
ثانياً لأن الوطنية قائمة تدعو الى تجنيد جيوش جديدة وتدعو الى
تضليلكم وتضليل أبناءكم ! وليس من ينقذكم أو يعينكم على إبطال هذه
المجازر إلا إذا كنتم أنتم تعاونون أنفسكم ...

اعلموا أن جميع المصائب التي تواجهاؤها ناجمة عن انقيادكم إلى
آراء الرؤساء والزعماء والنواب والحكام والضباط وأصحاب المال
والكثرة والمؤلفين والكتاب وأهل الفنون الذين يخدعونكم باسم
الوطنية ليحققوا آمالهم ومصالحهم الذاتية ..

واعلموا أيضاً أنكم سواء كنتم فرنسيين أم المان أم انجليز أم
روسيين، فإن جميع مصالحكم الحقيقية القائمة على الزراعة أو الصناعة
أو التجارة أو الفن أو العلم لا تتعارض أبداً مع مصالح غيركم من الدول،

واعلموا أن الرباط الحقيقي الذى يربطكم فعلا ببعضكم هو روح التعاون والمحبة وتبادل البضائع والآراء والعواطف .

كما أن استيلاء حكومتكم على غيرها من البلاد لا يفيدكم أنتم شيئاً إن لم يؤد إلى ضرركم — إنكم لا تصبحون أحسن حالاً إن بقيت الألزاس لألمانيا أو لفرنسا، أو إن تحررت أرنندا أو بولندا . أو إن كان الغاصب لها هذا أو ذاك

أن ما وقع بالأمم من البؤس والشقاء إنما أساسه تنازع الوطنيات، ولا شيء ينقذكم ولا ينجيكم إلا الاعراض عن هذه الوطنية والاعتناع بأنكم ليسوا أبناء هذا الوطن أو أبناء هذه الحكومة بل أنتم قبل كل شيء أبناء الله

سئل مرة عن الدين فقال : —

إن الدين ثلاثة أنواع

الأول : دين الأطفال وهو دين الأنانية . دين الذين يرغبون

دائماً في اين وفير ودفء كثير وراحة شاملة ومتع متعددة، لا يعنيتهم بعد ذلك مايقع لغيرهم من أبناء الدنيا ولا ما يصيب أرواحهم من فساد وانحطاط .

الثاني : دين الوطنية الذي يعنى فيه أصحابه فقط بمصالح العائلة

أو الحزب أو المذهب أو الوطن ويعتبرون ذلك أهم أهداف الحياة : متجاهلين الفضائل الرجعية السامية .

الثالث : دين الذين يعترفون بآله عظيم مصدر كل خير وملكهم

كل الفضائل ، وهو دين مرتفع فوق جميع الأديان وفوق سائر المصالح والمنافع .

وفي هذه الحياة يتأرجح الانسان بين الدين الأول والثاني ، تارة

يعنى بهذا وتارة يعنى بذلك ، وتارة يتأرجح في وقت واحد بين الثلاثة ، ولكن هذا عبث مؤكداً فلن يكون للإنسان هدف واضح يجب أن يختار دين واحد .

أما سنة ١٨٩٥ فقد طلعت عليه بآلام عدة لأن نيكولا

الثاني تولى عرش روسيا وعزم على إدارة الحكم كوالده

١٨٩٥

بنظام استبدادي، لم يسمح فيه لمثلي البلاد أن يشتركوا في أي عمل، فأشاع ذلك التصرف الحزن العميق في نفس تولستوى .

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ مات ابنه « إيفان » وعمره سبع سنوات تقريباً، وتلك أول مرة توفي له فيها ابن بعد أن اجتاز دور الطفولة، ومما زاد أثر الحزن أنه كانت تبدو على الصبي صفات جميلة كريمة كانت موضع الأمل — ولقد حزنت الكونتس كذلك حزناً شديداً، ولم تستطع العودة إلى ياسنايا خشية ذكريات المكان المؤلمة، ففكرا في السفر إلى الخارج، ولكن بعض الناس أشار عليه بعدم مغادرة روسيا لأن الحكومة سوف لا تسمح له بالعودة، ولقد أشيع وقتئذ خطأ أنه نفى .

وبعد قليل من وفاة الابن دخل عليه صديق في حجرته

خبرته قائلاً : —

« إنه لمن الحق حقاً المبالغة في الحزن بسبب الموت ... إن الشيء المزعج ليس هو الموت ولكن هو الحياة ... الحياة الميتة ... الحياة بغير هدف أو غرض ... لاشك أن الموت والفراق يثيران فينا الشجن والألم، ولكن لا يجب أن نستسلم لهذه المشاعر ولا أن نسمح لهذه العاطفة أن تغلو ... »

ثم كتب مرة لصديق يقول « إن زوجتي حزينة جداً وأنا أود لو ينقل إليها شيء من شعوري الضعيف بالتدين وبالله الذي يجعل من الموت حياة ... وإني لأرجو أن يصلها هذا الشعور لا مني

ولكن من الله مباشرة ، وان كنت أعرف أن ذلك عسير جداً
على النساء ... »

ثم كتب: « سيد ورجل » - « العار » - « والأمثلة الثلاث » .
وكتب دفاعه عن طائفة معينة من الروسيين هم « الدخوبوريون »
الذين كان له معهم شأن كبير ، وهم قوم يتميزون بالاحتمال والصبر على
الاضطهاد ويعيشون في أخاء ومحبة بغير حكومة وبغير جيش ،
لا يخضعون إلا للعقل وللضمير ولنصائح كبارهم واختباراتهم . ومع
ذلك فلم يعيش في وسطهم الإنجليزي أو روسي أو كندي واحد .
ويقال إنه كان لهم زعيم ينسبون مصدره إلى الإله ويعتقدون
أنه متجسد فيه .

وإلى سنة ١٨٤٤ كان المذهب يعيش في القوقاز ، وبعد وفاة زعيمهم
« بيتر كالكوف » في سنة ١٨٦٤ انقسم أهل المذهب إلى قسمين . قسم
يؤيد الزعيم الجديد « بيتر فيرجس » ، وقسم يعارضه ، فانهزت الحكومة
هذه الفرصة وتدخلت في شؤونهم وفصلت في الأمر ضده ، وأمرت
في سنة ١٨٨٧ بنفيه في مكان بعيد ، كان يزوره فيه بعض تلاميذه
ومشايخه ومعاونيه . وعمدونه بالمال والمعاومات ، وكانت تعاليمه مشابهة
لحد كبير لتعاليم تولستوى ومنتشرة في عدة أماكن .

وحدث في أثناء تقي زعيمهم ، وعند زيارة بعض أتباعه له أن أخبروه
عن تولستوى وعن مذهبه ، وقدموا له بعض كتبه فاستجاب لها
واقتنع بها ، وأصدر أوامره لشعبه بأن لا يأكلوا اللحوم وأن يجعلوا
المال شركة شائعة بينهم ، وأن يتبعوا مبدأ عدم مقاومة الشر بالعنف

وأن لا يلتحقوا بالجيش، وأن يحددوا من رغباتهم الجنسية في حياتهم الزوجية، فاعتبرت الحكومة هذا استمراراً منهم ومنه في المشاغبة والثورة ضدها وأصدرت أمرها بنفى الزعيم إلى سيبيريا - وفي طريقه ذهب بعضهم إلى ملاقاته أثناء مروره على موسكو، وهناك تعرف تولستوى بثلاثة منهم، وأرتاح لهم جداً لأنه فهم أنهم يعتقدون بنفس آرائه ويطبقونها عملياً، ولكنه كان يجهل أنهم خاضعين لفكرة خاطئة عن ألوهية زعيمهم ولنظام استبدادي فظيع يسلم لهم كما كانت تسلم لوائح موسى بين آن وآخر .

ولقد اجتمع أصحاب هذا المبدأ في ٢٩ يونيو سنة ١٨٩٥ وحرقوا علناً الأسلحة ومعدات الحرب، فهاجمتهم الجيوش وقتلت منهم الكثيرين وشردتهم وعذبتهم ومنعتهم من السفر إلى أى مكان .

أثار هذا الاضطهاد عواطف تولستوى فأخذ يدافع عنهم بقوة سنة ١٨٩٦ . واستنجد بالدول الأوربية وكتب

المقالات الحارة، إلى أن وقف الاضطهاد فعلاً، وصرح لهم في سنة ١٨٩٨ بالانتقال إلى حيث يشاءون، فسافر عدد وافر منهم إلى كندا بعد استئذان حكومتها وموافقتها على عدم أجبارهم على العمل في الجيش .

ثم توثقت علاقة تولستوى في هذا العام « بشرثكوف » الذى كان يعاونه في الدفاع، والذي عهد إليه بطبع سائر مؤلفاته، وأطلق له السلطة فيها الدرجة أثارت حقد الزوجة وغضبها وحقد بعض الأصدقاء وحسدهم .

وبعد تمثيل روايه له هي «قوة الظلام» سنة ١٨٩٦ في موسكو
ذهب اليه رهط كبير من طلبة المدارس يحبونه ويشيدون بذكوره،
فاهتم بهم لأنه كان يعنى بأمر رجال الجيل القادم إلا أنه شعر بالحياء
والخجل فلم يعرف مايقوله لهم .

وله دأرهق من جراء طلبات الشعراء والكتاب لرأيه فيما
يكتبون ، ولكنه كان يسر بتشجيع الكتاب الذين كانوا يكتبون
ويقولون الشعر للعامة .

وبمجرد أن كان يلمح أن شخصاً ما يرغب حقاً في الوقوف على
حقائق الحياة الكبرى ، فإنه كان يرحب به ويرفع من أمامه جميع
العوائق سواء كانت بسبب الجنس أو النوع أو الدرجة أو الأهلية
ليتيح له كل الفرص ليتحدث ويسأل على قدم المساواة كما يشاء حتى
يتسنى له أن يفهم ما يريد وأن يستوضح مشكلاته .

وكان صديقاً حبيباً لكل شخص نزيه في بحثه وكان قوياً جداً
في التعبير عن آرائه ، شجاعاً إلى أقصى حد في مقاومة الظلم ، وإلى الآن
لم يعرف رجل في التاريخ كان أقدر من قولستوى على خدمة الآخرين
وعلى محبة الغير ، وتشجيع الناس والتأثير فيهم وفي أخلاقهم .

وعندما كان يدخل داراً فيه أطفال كنت تجدهم يفرسون به
ويهللون له ويدكرونه دائماً في غيبته بكل خير ومحبة .

ولما ضغط مراقب النشر على ما كان يبغى نشره ، أنشأ لنفسه
مجلة خاصة كان يطبعها بالآلة السكّابة وأصدرها في اثني عشرة نسخة ،

وقد فقد معظم هذه النسخ من أيدي الناس إلا نسخ السيد « مود »
أحد أصدقائه فهي باقية للآن .

ولقد سافرت من شيكاغو « جان آدمز » مع صديقتها « ماري
سمت » ليشاهدا بنفسيهما تولستوى وليقابلاه شخصياً بعد أن تأثرتا
بكتابيه « ماذا نعمل إذا » ، وكان والد الأولى صديقاً « للنسكولين »
رئيس جمهورية أمريكا ، أما هي فقد خصصت نفسها بعد مرض
طويل أثناء طفولتها لمساعدة الفقراء والغرباء والمساكين في مدينة
شيكاغو ، وكانت في غاية الكفاءة والهمة ، وأقامت عدة فروع لخدمة
هؤلاء المعوزين في عدة أمكنة ، وأصبحت من كتاب أمريكا
المعروفين . فلما قابلت تولستوى امتقبلها وهو في الثامنة والستين من
عمره برحابة وبشاشة ورضى ، وسار مرة معها هي وصديقتها في نزهة
إلى النهر يبادلها الحديث ويشرح لهما بعض آرائه وسلوكه ، فتأثرتا
بتعاليمه وبطييبته وبمحبتته وعادا إلى أمريكا وكتبت « آدمز » إلى « مود »
صديق تولستوى تقول : — « إن مقابلي لتولستوى كان لها أعمق
الأثر في نفسي فقد تأثرت حقيقة لامن كلماته فقط بل من أعماله
ومن سلوكه الفعلي في حياته ومن رفته ومن روحه الوديع المتدفقة
تديناً وصلاًحاً » .

وزار مرة حاكم « تولا » فلم يجده ، ولكنه وجد كبير ضباطه
الذي عرفه وأخذ يبالغ في تحيته بين الكلمة والكلمة « بصاحب
السعادة » فرغب أن يأخذ القطار حالا ليتخلص من كثرة هذه
التحيات ، ولكن الضابط ألح في أن يستحضر له التذكرة وسأله ، عن

الدرجة التي يطلبها: ثم أردف سؤاله بقوله « ظيماً يأميدي تسافر في
عربة خاصة » ولا يمكن تولستوى خشي أن يقول له « درجة ثالثة »
رغم أنه كان راغباً في السفر فيها فعلاً لئلا يزهل أو يرتبك فقال
مضطرباً: « لا . بل درجة ثانية » .

وقال مرة لصديقه :

« استطعت أن أستغنى عن الكثير ولكن شيئاً واحداً
لا أستغنى عنه وهو غرفة هادئة أكتب فيها ... » .

وكان مرة واقفاً على أفريز محطة لا بساً لباس الفلاحين العاديين ،
فنادته سيدة وكافته أن يسلم رسالة صغيرة لزوجها في نفس القطار في
عربة أخرى مقابل خمسة عشر (كوبكس) دفعتهما له فما كان منه إلا أن
أخذ الرسالة بكل هدوء ، وذهب بها فعلاً وسلمها للرجل ، ولما عرفت
بعد ذلك أنه السكوت تولستوى خجلت وضحكت واعتذرت
وطلبت منه رد النقود ولما كنه هو أيضاً ضحك وأجاب « لا . لا
هذا مال كسبته ... » .

وكان يلعب (التنس) بنشاط وخفة ، أما لعبته داخل البيت
فكانت الشطرنج التي أتقنها خد بعيد .

وقد نشر المجمع المقدس في هذا الوقت بعض الكتب لمقاومته
ومناهضة آرائه ورماه فيها بالجنون ، ولما كنه لم يهتم ولم يغضب بل
قابل كل ذلك بالابتسام والحلم والصبر .

وفي سنة ١٨٩٦ ترجم له إلى اللغات الأخرى: «مطالب المحبة»
ثم خطاب عن عدم مقابلة الشر بالعنف وفي هذا العام كتب: «خطاب

للأحرار : « الوطنية والسلام » ، « كيف نقرأ الانجيل » و « خطاب
لوزير الداخلية والعدل » يحتج فيه على القبض على طابعي كتيبه
ومقالاته وطلب أن يحاكم هو لا هم .
وأخرج « الاقتراب من النهاية » ذكر فيه بالاعجاب شخصاً
رفض الالتحاق بالجيش في هولندا .

١٨٩٧ وفي يونية سنة ١٨٩٧ تزوجت ابنته « ماري »
ثم كتب عن الثورة الروسية وعن التعاليم الدينية
١٨٩٨ وكتب جزءاً من رواية « البعث » التي انتهت في
آخر سنة ١٨٩٩ ، وراجت جداً في إنجلترا وأمريكا ، ثم وضع كتاب
« ما الفن ؟ » مما كان يقتضيه الذهاب أحياناً الى التياترات وبعض
المعارض وهو كتاب عظيم طبع في إنجلترا وانتشر فيها انتشاراً
واسعاً .

وفي هذا العام وصله خطابان يهددانه بالقتل لاعتباره كافراً
مخالفاً للكنيسة الروسية ، ويحددان له ميعاد غايته ٣ أبريل سنة ١٨٩٨
لتنفيذ الجريمة فاهتزت الكوتقس وانزعجت ، اما هو فلم يحرك ساكناً
ولم يتخذ اي احتياطات للمحافظة على حياته .

وفي هذا العام اختلف صديقه « مود » « وشركوف » لمدة
طويلة على طباعة كتيبه ونشرها وكتب لمود :
« لا يحزنني انك لا تعمل مع شيرثكوف بل لأنه لا يوجد بينك
وبينه شعور المحبة والتعاطف ، إن منشأ النزاع ليس ما تسميه كرامة
واسكنه الكبرياء . ومع ذلك فليست أنا الذي أدینك » .

ومن خطاب له « للمستر مود » صديقه في سنة ١٨٩٨ :
« لا يعنيني ما يرميني به بعض الناس من التناقض أو من العيوب
الأخرى، بل ان ذلك يفيدني لأنه علمني أن أعمل متفقاً مع ضميري
فقط ، متجاهلاً تماماً حكم الناس .. هذا اختبار عظيم ثمين أحب
أن أرفع دائماً من قيمته .. ».

وفي سنة ١٨٩٨ كتب مقدمة لكتاب قام بتأليفه ابنه وكان
كثير المرض في شتاء هذا العام
وفي ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين كان مريضاً كتب الى
١٨٩٩ صديق له :

« أني أشعر بالمرض بين آن وآخر ، وأنى أوجه كل قوتي الى
إخراج رواية « البعث » ، وأن حركات نفسية كثيرة تطرأ على نفسي ،
ولكنني أحمد الله فاني أرى من خلالها النور ، وأراه كل مرة أبهج
وأوضح من المرة السابقة ، وكثيراً ما أدرك بأنني لست مسيد حياتي بل
أنى فقط حامل فيها .. »

اما ابنته ماري فتزوجت في يونيه سنة ١٨٩٧ وفي ١٤ نوفمبر
سنة ١٨٩٩ تزوجت الكبرى

وقد انتهى في هذا العام من رواية « البعث »
ولما اعتلت صحته في سنة ١٩٠٠ وعرف ذلك المجمع المقدس
١٩٠٠ أصدر في ٥ ابريل منشوراً سرياً للكنيسة يسجل فيه بأن
تولستوى خارج على الكنيسة ، وتعاليمها وفي حالة موته لا تقام له
بالكنائس المراسيم الدينية المعتادة .

وفي أوائل سنة ١٩٠٠ كتب إلى صديقه « مود » خطاباً جاء فيه
« أن صحتي لم تكن حسنة طيلة هذه المدة ، ولكن المرض أمر
حتمي ، فلا سكي الموت يجب أن أمر أولاً بالمرض تماماً ، كما يجب على
من يريد الانتقال من مكان إلى آخر أن يمر بالقطار مثلاً . أنا لا أنور على
المرض خصوصاً وأنه لا يشعرني بألم ومع ذلك فهو يهيئ لي فرصاً
موفقة للتفكير والكتابة ، وأني مشغول الآن بكتابة شيء عن مسألة
العمال ، وأرجو أن أقول ما أعرف في ذلك ببساطة ووضوح »

*
**

وفي سنة ١٩٠٠ أيضاً كتب عن الرق في عصرنا وعن الضرائب
فقال عن الرق ما يأتي : —

« أن القوم في سبيل تبرير استعباد العمال والفلاحين اخترعوا في
السنين الماضية النظرية القائلة بأن هناك إرادة إلهية عليا كتبت الذلة
والشقاوة لفريق من الناس ، وكتبت الرفعة والسيادة لآخرين ، وقد
دافع العلماء عن هذه النظرية في كثير من كتبهم ، كما أن رجال
الدين نشروا المواعظ المختلفة تأييداً لها ، حتى أثبتوا كما زعموا أن الله
خلق الناس فريقين ، فريق العبيد وفريق السادة وأن فريق الفقراء
لهم العاقبة في الدار الآخرة !

فلما جاء الوقت الذي ظهر فيه زيف هذه الآراء المتبدلة :
خصوصاً في نظر الفقراء الذين أدركوا كنهه مراكزهم لم يلبث
العلماء أن اخترعوا « علم الاقتصاد السياسي » يبحث في رأس المال
والعرض والطلب والأجور والأرباح ومناجات العمل وو .. الخ مما

يسير في نظر العلماء على قواعد ثابتة ولكنه يؤدي فعلا وحقا إلى
تفاهم الشر وقسوة الناس وغلظتهم وخشونتهم ونشر الظلم والقضاء
على العدل.

أن الرق موجود بالنسبة إلى العمال والفلاحين والفقراء على
أقصى شدته ولكننا لا ندر كهولا نبصره بوضوح، كما كان غيرنا لا يدرك
ولا يبصر بيع الناس وشرائهم وامتلاكهم واسترقاقهم في الماضي القريب،
وكما كن القوم في الماضي ينظرون إلى هذا الأمر الشنيع نظرة طبيعية
كذلك نحن الآن ننظر إلى الأنظمة الفاسدة الفاسية السائدة في
عصرنا نظره باردة طبيعية

أن الرق الغي حديثاً في روسيا وفي أمريكا، ولكن الحقيقة أن ما
الغي إنما هو شكل من أشكاله بطل استعماله وذهبت ضرورته
فامتعض عنه اليوم برق أقوى دعامة وبرق شامل لعدد أوفر
من الناس»



أما عن الضرائب فقال :

«إن جزء من الضرائب يصرف في روسيا على التعليم، وهو مع
ذلك تعليم سقيم ضرره أكثر من نفعه أما الباقي وقدره جزء فهو
كتسليح الجيوش أمور ليست فقط غير لازمة بل ضارة كل الضرر،
يصرف على ومد المواصلات الحربية وبناء الحصون والسجون
ومساعدة رجال الدين ودفع مرتبات الموظفين الحربيين والملكيين
الذين يحمون الأنظمة الفاسدة الجائرة».

وقال عن التشريع والقوانين ما يأتي : —

« أما القوانين فهي لا توضع بإرادة الناس كافة كما يزعمون، بل بإرادة ذوي السلطان والقوة والنفوذ وليس هذا قاصر على الممالك الاستبدادية بل ينطبق على البلاد الديمقراطية كأمجلترا وفرنسا وأمريكا، وأن فائدة القوانين في الواقع لا تعود إلا على أصحاب السلطان والاغنياء .

وان هذا العلم الفأثم الذي يسمى « أصول التشريع » هو أشد ختلاوخداعاً من علم الاقتصاد السياسي، وليس الفرض منه كما يدعون الشرح والارشاد عما ينبغي أن يكون، ولكن غايته المستورة هي التدليل على أن ما يقع الآن هو ما يجب ان يكون . »

وقال في رواية البعث :

من هم أولئك الذين يسنون القوانين ويقيمون أنفسهم حراماً

عليها ؟؟

أليسوا هم أصحاب الثروات الطائلة والممتلكات الواسعة انهم سرقوا الأرض كلها وجردوا الناس من ملكية كل شيء . . . وأنكروا عليهم حقوقهم . . . وقتلوا من لم يدع لارادتهم . . . ثم شرعوا القوانين ووضعوها . . . وحرموا على الناس بعد ذلك القتل والسرقة

وفي أغسطس سنة ١٩٠٠ بدأ المرض يأخذ دوراً شديداً أقلق عليه أهله وأصدقائه .

ولكنه شفي وكتب في ٢٣ نوفمبر لصديق . . .

« لقد زرت ابنتي « تانيا » في موسكو وقد شفيت ولكني بعد

شهر من شفاثي لازلت ضعيفاً قليل الميل إلى العمل وقد تضايقت من ذلك في أول الأمر ؛ ولكني عدت فارتحت ؛ وأدركت أن الانسان يستطيع أن يحيا مستريحاً راضياً مهما لازمه المرض ؛ مادام نشاطه العقلي والروحي متوفر غير متعطل ؛ ولا منقطع وهذا هو الذي احيا به الآن لحد ما .

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٩٠١ أعلن المجمع المقدس قراراً بحرمان ١٩٠١ تولستوى ، زعماً منه بأنه معلم كاذب ضد المسيحية وضد الكنيسة . وقد أثار هذا القرار غضب البعض على تولستوى ؛ فصودرت بعض كتبه ؛ ومنعت الصحف من ذكر الفاظ التمجيد والتعظيم له ؛ ومن نشر صورته في الصحف ؛ وقيلت ضده المواعظ والخطب ؛ وأقيل من عضوية إحدى الجمعيات ؛ وأمرت مصلحة البرق والبريد مستخدميه بعدم تسليمه رسائل التأييد والاعجاب به ؛ وأباحث تسليمه الرسائل التي تحوى السباب والشتائم .

غير أن نتيجة ذلك كله كانت انتصاراً باهراً له ؛ فقد قويت رغبة الناس في اقتناء كتبه ؛ وأكبوا على الاطلاع عليها وبحثها ؛ فأحبوها وفهموها ومجدوا كاتبها ورفعوه إلى أكبر مقام .

وبدأ كان يسير في أحد الميادين قال أحد الناس لآخر هازئاً « أنظر أنه الشيطان يسير في ثوب انسان » .

ولكن الجماهير بدلا من أن تهاجمه وتهينه ؛ كما كان المتوقع لكل من يحرمه الكنيسة . فانها أحبته وهتفت له بمنتهى الاخلاص والحرارة لأن الناس وثقوا واطمأنوا على أنه أعظم مرب ومهذب لهم ولأولادهم .

وفي أحد المعارض حيث كانت صورته موجودة اندفع ، الناس اليها ، يضعون حولها الزينات والزهور وسائر علامات التكريم ، مما جعل الحكومة تأمر بنقلها .

أما الطلبة والطالبات والعمال ، فقد ساروا في الشوارع يهتفون له وذهبوا إلى داره ليظاھروه ويكرموه ، ولقد انتهالت عليه البرقيات والخطابات بالتأييد والتبجيل من كل مكان .

وبعد شهرين من قرار الحرمان بلغ حب الناس بتولستوى ان العامة حاولوا قتل رئيس المجلس الذي أصدر قرار الحرمان . كما أن كثيرين نشروا بعض الكتب للاعتراض على هذا الرئيس والخط من كرامته .

وقد اخطرت الحكومة للتدخل لحماية بعض رجال الدين من اعتداء الجمهور الذي وثق كل الثقة بفيلسوفه العظيم .
أما هو فلم يهتم لأمر الحرمان بشيء سوى أنه رد عليه رداً نبيلاً عظيماً وبعد أن بين فيه ما يؤمن وما لا يؤمن به قال : —

« سواء كانت اعتماداتي تضايق البعض أو تغضبهم ، وسواء كانت عثرة في سبيلهم أو صدمة لآرائهم ، ومهما كان من أثرها في نفوس من لا يحبونها ، فاني لا أستطيع أن أتخلى عنها ، كما أتى لا أستطيع أن أتخلى عن جسدى . يجب ان أحيا حياتي انا ، لا الحياة التي يختارها الى الناس فاننا لوحدى الذى سأواجه الموت قريباً ان شاء الله ...

وأنا لوحدى الذى سألقى الآلهة ولذلك وأنا فى طريقى اليه لا أستطيع أن أومن بغير ما أومن به الآن

أنا لا أقول بأن إيماني هو أصلح الإيمان في كل الأزمان، ولكنني أقول اني لم أجد للآن لنفسى أجهل ولا أبسط ولا أوضح ولا أصدق منه... ولا شئ يحل لي مشاكل عقلي وحياتي سوى إيماني هذا... ومادمت قد وجدته فلن اتركه، ولن أعود للحالة التعيسة التي أتقذت منها... ولعله يسر القارىء أن يعلم ان الشيخ محمد عبده ارسل لتولستوى الخطاب الآتي على أثر صدور القرار بجرمانه :

« أيها الحكيم الجليل المسيو تولستوى .

لم نخط بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، إذ سطع علينا نور من افكارك، وأشرق في آفاقنا شمس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر اليها، فأدر كمت أن الانسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويتمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعيها يبقى به ويربى جنسه، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، في ما كدر راحتهم وززع طمأنينتهم

ونظرت إلى الدين فخرقت حجب التقاليد، ووصلت به إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله اليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هادياً للعقول، كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياءاً يهتدى بها الضالون، كان مثالك في العمل إماماً يقتدى به المسترشدون . »

(وهذا الخطاب يوجد في كتاب جمعه السيد محمد رشيد رضا عن تاريخ الشيخ محمد عبده)

وفي ١٥ مارس سنة ١٩٠١ أرسل تولستوى خطاباً شائقاً لقيصر، يعتبر كأنه صادر من نبي، يطالب فيه بحرية الكتابة والدين والتعليم ومسئولية الفلاحين بغيرهم والغناء بعض القوانين الظالمة والاستبدادية.

وكان يُحسن على الفقراء المنتشرين في موسكو بنقود نحاسية صغيرة، رغم أنه كان يعرف أنهم يشترون بها خمرًا، فاعترضه بعضهم على هذا فقال : —

« إني لا أبغى من وراء ذلك حل مسألة ما، ولا أظن ذلك علاجاً لأمر ما، ولكن ينبغي إنشاء الشعور الجميل في نفسي أنا » وقال عن النجاح .

« ليست العبرة بما نحصل عليه في أعمالنا من النجاح اللامع البراق بل بالروح التي تقوم بها أثناء تأدية أعمالنا » .

وقد زاره مرة عظيم من أمريكا لبضع أيام، واعترض عليه أنه شديد التمسك بآرائه ومبادئه الانسانية، ولا يقبل فيها خلافاً، ولكنه اعترف بعظمته ونزاهة آرائه ومقاصده واخلاصه .

أما تولستوى فقد قال عنه إنه تعلم كل العلوم، وعرف جميع اللغات، وقرأ الكثير من الكتب، ولكنه بالأسف لم يبدأ بعد يفكر وعيناً حاول بعض أصدقائه أن يقنعوه بتبرير الحرب، التي مشنها

« ابرام لنكولن » : لأن الغرض منها كان انقاذ العبيد في أمريكا وتحريرهم .

وفي هذا العام كان يعمل في كتاب « الحل الوحيد » واليك بعض ماقاله فيه : -

« اعمل لغيرك ما تحب أن يعمله الناس لك »

عرف الناس هذا القانون منذ النى سنة ، وقديما قال « كوفشيوس » :

« لا تفعل لغيرك مالا تحب أن يفعله الغير بك » .

ثم قال بذلك « بوذا » والمعلم « هيليل الموسوى » و « المسيح » وهذا قانون سهل مفهوم لاشك في فائدته العظمى للبشر ، وكان المعقول أن يعملوا به على قدر جهدهم ، وأن يلقنه الآباء للأبناء ، ولكن آلاف الأعوام مضت وكأن الناس ما عرفوه وما فهموه وما وقفوا عليه إطلاقا . . . ومن عرفه منهم نظر إليه باعتباره قانونا غير لازم وغير مهم وغير عملي ١١

فالكهنة والقسوس يعلمون الناس المثات من العقائد الاكيريكية ، والشعائر والندور والطقوس السطحية ، ويذيعون بين الناس أن هذه القوانين هي أعظم الأوامر الالهية ، وأن من يخالفها يعاقب بالعذاب الأبدي ، ولكنهم يهملون هذا القانون العظيم ١١

أما الحكام فقد سنوا قوانين جمة ، يخالف هذا القانون ، ودعوا الناس إلى وجوب طاعتها ، واندروا من يخالفها بالعقاب ، وليس لهم من غرض سوى حماية سلطانهم ، وتغليب القانون الغريزي الحيواني الذى يدفع

كل شخص إلى محاولة التساطع على غيره ...
أما العلماء والاعنياء : الذين لا يؤمنون بالله فهم يزعمون أن
لا شيء أنفع من العلم ومن مسائله ومن قوانينه !
في وسط هذه القوانين اللاهوتية والحكومية والعلمية ، يختلف
هذا القانون السهل البصريح الجميل : مع أن العمل به يؤدي إلى رفع
معظم أثقال وآلام وهموم السواد الأعظم من بني الإنسان .
إن هذا القانون هو ثمرة اختبار السنين والاعوام الطويلة من
الحياة الإنسانية كلها ، وليس هو مجهود رجل واحد أو هيئة واحدة ...
ولقد وصل إليه الناس أجمعون بلامتياز في الأجناس والأديان وسائر
الظروف والاحوال ، وهو قانون صادق في كل زمان ومكان ، ومن
درسه وفهمه لم ينكره أبداً ...
إن القوانين الأخرى قد لا تكون صحيحة إلا في زمان معين
ومكان معين : ولم تدفع عن الناس شراً ، ولم تجلب لهم خيراً ، بل هي
التي خلقت الضغائن والاحقاد والآلام بين الناس ...
أما هذا القانون فكله خير ، ولا يؤدي إلا إلى السلام والوثام
والسعادة ..

وإن حاول الناس أن يتعاملوه بنفس الهمة التي يتعاملون بها اليوم
الخزعبلات والخرافات : أو العلوم الضارة : أو العلوم القليلة الفائدة
لتبدلت حياة الإنسان وتبددت سحب الظلم والظلام ...

أما عن العمال فاني أنقل إليكم بعض ما كتبته لهم في أواخر
سنى حياته :-

الى العمال :-

قد دنى أجلى ، وقربت نهايتى ، وأحب أن أنبئكم قبل أن أموت
بما جال فى خاطرى ، وتردد على ذهنى ، عندما فكرت كنير آمن أجالكم ،
ومن أجل مركزكم الحرج ، ومن أجل تحريركم ، ومن أجل محاولة
إخراجكم من المآزق ، عسى أن تنتفعوا بتفكيرى .

إنى أخطب العمال الروسين الذين أعيش فى وسطهم ، والذين
أعرفهم وأعرف أحوالهم أكثر من باقى عمال أوروبا ، ولكنى أرجو
أن يستفيد الآخرون من حديثى .

حقا إنكم لستم ملزمين بقضاء أيامكم وحياتكم فى عوز
وشغل شاق فى حين أن أصحاب رؤوس المال ممن لا يشتغلون أبداً هم
الذين ينتفعون بكل ماتنتجونه .

حقا أنكم لستم عبيداً لهؤلاء الناس ، وواضح لكل ذى عين
وقلب ، ان حالتكم ليست مما ينبغى بقاؤها ، ولكن ما الذى يحسن عمله
لتغيير الحال ؟

يخيل لكم أن الحل السهل الطبيعى هو الالتجاء إلى القوة ،
لا تنزع ثمار مجهوداتكم ، من الذين يستغلونها استغلالا غير عادل ،

ولكن هذه وسيلة ضارة أكثر منها مصلحة، ثم هي غير ناجحة ولن تصل بكم الى أغراضكم .

لقد أصبح الآن في حوزة الحكومة كثير من الاموال والسكك الحديدية والاسلاك البرقية والتليفونية ورجال البوليس والجيش وسائر أنواع القوة التي يستخدمونها في البطش بكم، والقضاء على قوتكم، فلا تلبث فتنكم أن تنتهي كما انتهت غيرها في الماضي، بتعذيبكم وبانتصار العاطلين (أصحاب المال) على العاملين .

أن مثلكم يامعشر العمال في محاولتكم مقابلة الظلم بالعنف مثل الشخص الموثق الذي يحاول التخلص من وثاقه ، بالشد عليه فتزداد عقيد القيد تماسكا وشدة !

يقول البعض بأن حالكم يتحسن شيئا فشيئا بواسطة إنشاء جمعيات التعاون والنقابات والقيام بالمظاهرات وانتخاب من يمثلكم في « البرلمان »، وأنكم في النهاية ستتملكون الآلات والمصانع والمعامل والأرض وتسيطرون عليها ... أبدأ هذه طريقة مليئة بالعقبات، وهي مبنية على أفكار جائرة متناقضة، ومع أنها ليست إلا حقا فقد انتشرت في الأيام الأخيرة، وصادفت قبولا في الممالك المشتغلة بالزراعة والصناعة على السواء .

هذا هو المذهب الحديث المسمى بالاشتراكية ، الذي يدعو إلى ترك الأرض وترك الاستغلال الزراعي وترك الصناعة التي يتمتع بها الناس في الأرض، ويدعو إلى العمل في المصانع تحت سلطة أصحابها، ويدعو إلى ابدال عادات الفلاح وحالته الصحية السليمة وسعادته

في عمله الزراعى بعادات أخرى ضارة مملة متعبة داخل جدران المصانع .

هذه الاشتراكية إنما تدعو إلى ازدياد الحاجيات والرغبات والتمتع بأكثر ما يمكن منها ، فلا فائدة إذاً منها لتحرير العمال ... فهم ليسوا في حاجة الى كثرة الحاجيات ، ولا إلى رفع الأجور ، ولا انقاص ساعات العمل ، ولا إلى جمعيات التعاون ، بل هم في حاجة إلى شيء واحد فقط هو «العمل في الأرض» ، أذ ليس لديهم منها سوى جزء صغير لسد رمقهم وعائلاتهم ...

ان الاشتراكيين يقولون لكم «دعوا الأرض أولاً ، واطركوها ، وابذلوا جهودكم لتملك الآلات والمصانع ، فانكم بعد أن تملكوها فستملكون الأرض ...»

هذا عمل كله تعقيد ، فان المصانع لا تصنع سوى المدافع ، وسائر الأسلحة ، والروائح العطرية ، والصابون المعطر ، والمرابا والشرايط الحويرية ، وغير ذلك من أدوات النعيم والترف ، التي لا حاجة لكم بها ، ثم هم يريدون منكم أن تتعاملوا هذه الصناعات ، وأن تحذقوها بمهارة فائقة ، فتفقدوا كفاءتكم على فلاحه الأرض ثم يمنونكم زوراً بتملكها بعد ذلك !! .

ان الحياة في الأرض بين النبات والحيوان ، ووسط الحقول ، والحصول على الغذاء مما تنتجه ، هي أهنأ حياة ، وأوفر سعادة واستقلالاً ، وستبقى كذلك الى ما شاء الله ، وهذا حق أدركه الناس من قبل ، ولا زالوا يدركونه حتى اليوم .

عودوا إليها العمال الى الأرض ...

أنتم في حاجة الى شيء واحد فقط ، هو البحث عن الوسائل التي
تحرركم من رق المصانع لترجعوا الى الأرض ، التي اغتصبها منكم الملاك
الذين لا يعملون فيها ويحولون دون اقامتكم بها ...

إن الأرض تنتج وفرة من المحاصيل تكفيها جميعا اذا نحن
عنينا بالزراعة العناية الواجبة .

ان ملكية الأرض يجب إلغائها ، لما نجم عنها من الظلم والجهل
والقسوة ، ولكن كيف يمكن إلغاؤها ؟ إن الحكومات مؤلفة دائما
من قوم يعيشون على حساب غيرهم وعلى كدهم ، وأن ملكية الأرض
هي التي تؤدي الى رفاهيتهم ، فالحكام والملاك وكبار الموظفين والفنيين
وكبار التجار والأتباع يرتبطون بروابط عدة تجمع بينهم المصالح
والفوائد ، فهم لا يعنون بإلغاء الملكية لأنهم سيخسرون مراكزهم
القائمة على ارتفاع الكسالى بمجهوداتهم

كما ان أخذ الأرض بالقوة مستحيل لأن السلطة هي بأيدي
الملاك وهم في كل وقت أقوى منكم .

أما الانتظار الى أن تتحقق فكرة الاشتراكية فهو منتهى السخف ،
ويؤدي الى جعل العمال أذلاء لرؤسائهم ، وإن الاشتراكية نهيشكم في
المستقبل لأن تكونوا عبيدا أيضا لأولئك الزعماء الذين سيدبرون
النظام الجديد

قد يلوح في بادىء الامر أن لاحول لكم ولا قوة ، وأن قيودكم
ووثقكم شديدة يستحيل التخلص منها ، ولكن الحقيقة المؤكدة هي

انه في وسعكم أن تتحرروا . .

ففي أنعمتم النظر : تجدون انكم تملكون حتما شيئا غير الثورات والفتن ، وغير الاشتراكية ، وغير الحكومات وغير الزعماء

أنتم تملكون وسيلة لا يمكن مقاومتها وهي في كل وقت في قبضة أيديكم . افتنعوا أولا بأسباب الظلم املاؤا يقينكم بأن مصدرها كلها هو الملكية وافتقاركم الى الأرض .

ثم اعلّموا أن مبدأ تملك الأرض هو جريمة ، وخطيئة ، كالقتل والسرقة والرباء مما يجب عليكم اجتنابها

املاؤا اعتقادكم بهذا أولا ، واملاؤا جوارحكم به واعرفوا أن الملكية شر ، وان الاشتراك فيها شر ، وانها شر كأبش أنواع الخطيئة ، ومتى رسخ ذلك في نفوسكم تدريجيا ازداد عدوكم ووضحت فكرتكم على مر الأعوام وانفضحت عواقب الملكية الوحشية .

هذا هو الذي يؤدي الى تكوين وحدة أقوى دعامة وأطول أجلا

من وحدات الاعتصاب والثورات

كثيرا ما يقال : ماذا نحن فاعلون ضد الأغلبية التي لا تقرنا ؟

وكثيرا ما نظن أن النجاح في مسألة ، مالا بد فيه من موافقة الناس جميعا ، أو أكثرهم على الأقل ...

لا . لا . . . إن هذا الاتفاق ، أو هذا الاجماع ، لا يلزم إلا حين يراد

اقتراف الآثام والاعتصاب والتخريب والثورة ، وقام الله شرها ، أما الخير فيمكنه فيه ولو بشخص واحد ، لأن الله تعالى نصير الخير دائما ، ومن كان الله له نصيرا ، أخذ الناس بيده ، وشددوا عزمته ، إن قريبا أو بعيدا

انى أريدكم أن تعتقدوا، كما أعتقد أنا، أن الملكية خطيئة، وانها أمر محرم كباقي الجرائم ...

إني أنصحكم أن لا توجهوا قواكم الى معاركة الطبقات الحاكمة، بل وجهوها الى تحسين اخلاقكم وحياتكم الشخصية، فان نفس الناس ناشئ عن سوء الحياة الشخصية. أكثر مما هو ناشئ عن الأمور الخارجية والأنظمة الاجتماعية الأخرى

انكم إن أخطأتم، ففهمتم الأمر على غير ذلك، ووجهتم عنايتكم وأفرغتم جهدكم في تبديل وتغيير الأنظمة والقوانين، فان حياتكم لا تزداد إلا سوءاً

لا فائدة في أن نفكر في تغيير الجنس البشرى، وفي إصلاحه، مادامنا لا نفكر في إصلاح نفوسنا، ان جميع الطرق التي توصل الانسان الى الخير، إنما تفتح أبوابها على مصراعيها لمن أصلح نفسه »

وفي ٢٩ يونيه ساءت صحته واضطرب قلبه، فأرسلت زوجته الى تولاستندعى طبيباً رغم اعتراضه .

وكان يرى أن المرض يجب أن يستخدم لتحرير الروح من الخضوع لمطالب الجسد، ويرى انه واسطة لنقل الانسان الى الموت، بغير أن يكون مثقلاً بالانفعالات والأهواء والرغبات والشهوات الجسدية، لأن المرض يضعف كل ذلك الى حد كبير .

وقال :

« المرض كالنار ، فكما أنها سبب للحريق ، فهي أيضا مصدر خير كبير »

وبعد شفائه من أزمة حادة قال لابنته ، ما يأتى قاصداً أن يخبرها أنه كان على وشك الموت :

« إن العربة سارت بى ، حتى وصلت الى الباب (يقصد الموت) وكدت أدخل واتوغل ... ولكن فجأة غيرت الخيل وجهتها ، وتحولت العربة بعيدا عن الدار ... إنه شىء يؤسف له ... فالطريق كان سهلا معبداً ... وأخشى أن أجده خشناً صعباً فى المرة القادمة ... »

ولسكن التحسن لم يستمر طويلا ، ففي ٣ يولييه فقد قوته على الكلام وأعلن الطبيب سوء الحال ، إلا انه فى بعض الفترات كان يشعر بشىء من التحسن ، فينصرف الى الكتابة ولكنه كان دائماً يصاب بنكسة على أثر ذلك .

وأخيراً قررت العائلة استدعاء طبيب من موسكو سبق أن وفق فى علاجه فى سنة ١٨٩٩ ، ولما وصل الطبيب قرر انه مصاب بذبحة صدرية ونصح بنقله الى مكان أدفأ لأن جو « ياسنايا » كان رطباً . ثم عاد فى ١١ و ١٢ يولييه فتمحسن قليلا ، وأستطاع أن يمشى من غرفة الى أخرى . وفى أثناء مرضه كان يحس بالعطف والمحبة والود يحوطه من كل جانب من أفراد أسرته والمقربين اليه ، وبالأخص من أخيه الذى أحبه كثيرا ، والذى توفى فى أغسطس سنة ١٩٠٤

وقد دعتة الكونتس « بانن » الى ضيعتها فى « جيسبرا » والى قصرها هناك ، عندما علمت محتاجته الى مكان دافئ ، كما أن وزير المواصلات

الأمير « خلكوف » أمر بأعداد عربية خاصة تاحق بقطار ممتاز، ليسافر فيه مستريحاً، فسافر ولما وصل مع زوجته وابنته وبعض أصدقائه، الى « تولا » في طريقهم من « ياسنايا » شعر بالمرض يشتد عليه، ولكنهم مع ذلك فضلوا الاستمرار في السفر، وفي الصباح شعر بتحسن ملحوظ.

وفي محطة « خار كوف » اجتمع جمهور كبير من الناس، ليرووه فلم يرتح لهذه المظاهرات، ولكنه سمح لبعض الطلبة بالدخول اليه في العربية ليتحدثوا اليه، كما انه اضطر أمام الطلبات المتكررة أن يطل من النافذة ويحيي الناس.

ثم تحسنت حالته قبل وصوله الى « سيفاستبول »، حيث وجد أيضاً الجماهير تنتظره، ولكن البوليس احتجزهم في مكان ما بعيد عن المحطة.

وقد مكث بهذه البلدة ليلة واحدة، وتمكن من الخروج بعد الظهر، وزار متحف آثار حصار « سيفاستبول »، فعاودته الذكرى لما وقع له في أثناء الحصار، أيام ان كان جندياً... وقد رأى المواقع والامكنة القديمة، إلا أنه بمجرد أن وقع بصره على صورته في هذا المتحف أحس بتعب، اضطره الى العودة الى الدار وفي أثناء طريقه قال: « ما أسوأ هذا !!... ما فائدة كل هذا البناء الشاهق الذي يعنى فيه بجمع كل هذه الآثار الشنيعة المؤلة...؟ »

إن الواحد يجب أن ينسى هذه الوحشية، لا ان يذكرها... ثم يذكرها !!... انه لمزعج انه لمزعج !! »

ثم غادر تولستوى ورفاقه ومن بينهم « بولنجيه » سيفاستبول الى « يالتا » بطريق البر ، وعندما وقفوا فى إحدى المحطات ليغيروا الخيل قابل تولستوى شاباً وسأله عن اسم مكان ما ، فأجابه الشاب بخشونة ازدراء : ظناً منه انه فلاح بسيط... وبعد قليل مآل الشاب « بولنجيه » من يكون هذا الشيخ ؟ فكان الجواب انه « تولستوى » فقال الشاب : ماذا ؟ كونت تولستوى الكاتب العظيم ؟ ... آه يا الهى ... يا الهى ... ثم القى بقبضته فى الوحل قائلاً :

« انى كنت مستعداً أن أقدم كل ما أملك لأستطيع أن أرى تولستوى وأن أتحدث اليه ... »

ولما وصلوا الى « يالتا » ، تحسنت صحته ، وبدأ يكتب ، واجتمع « بتشكوف » و « جوركى » عدة مرات ، واستقبل فى منزله « ويزر » عازف البيانو المشهور ، واستمتع فى كثير من المرات بهذا النوع من الموسيقى الذى أحبه من كىل القلب .

وفي يناير سنة ١٩٠٢ أصيب بأزمة من جراء الذبحة
الصدرية ولا مكنه ظل يكتب في بعض الأحيان وأحس
مرة بقرب موته فكتب إلى القيصر :

« أخي العزيز »

إنى أرى أن هذا اللقب هو اللقب المناسب ، لأنى إنما أخطبك
كأخ لا كقيصر . ولأنى متوقع موتى قريباً ، فأنى أكتب إليك فى
أمانة وصدق ، كأنى أكتب من عالم آخر ، وأنى لا أحب أن أموت
قبل أن أتحدث إليك عما يجب أن يكون ... »

ثم أخذ يشرح له فى تفصيل أنظمة روسيا الاجتماعية ، مؤكداً
له أنها لم تعد صالحة ، طالباً منه أن يقوم ببعض الإصلاحات .
ثم مرض فاستدعى أهله له طبيباً من موسكو ، فلما وصل وجده
مصاباً بالتهاب فى الرئتين .

وما أن علم المجمع المقدس بأن تولستوى لن يبرأ ، حتى أصدر
تعليمات سرية بأنه فى حالة وفاته يجب فى سرعة على أحد الكهنة
أن يدخل منزله ثم يخرج على التو ويعلن (كذباً) بأن تولستوى قد
ندم وأنه رجع إلى الكنيسة الأصلية وأنه اعترف وأنه قد أخذ
« التناول » قبل وفاته . كل هذا ليحاول رجال الدين القضاء على
تعاليمه وعدم نشرها .

وفي آخر فبراير شعر المريض بتحسن ، واستطاع أن يخرج على مقعد خاص يسير على عجل وفكرت الأسرة في العودة ولكن مع ذلك تحسن ثانياً فغادر « جسبرا » إلى « سيفاستبول » ، وكان أمامه بعض الساعات يقضيها في الانتظار ، ولما شعر بشدة الحر طلب أن يستريح في حديقة المحطة ، ولكن سرعان ما جلس حتى تعرضت له إحدى السيدات ، وطلبت إليه أن يخرج قائلة أن هذه الحديقة هي لموظف كبير ، وليس لكل من هب ودب أن يجلس فيها ، فخرج صامتاً ما كتباً ، وقبل أن يغادر المكان أدركته الجماهير فاجتمعت لتحييه قبل رحيله ، فعرفته السيدة التي طردته وطلبت بكل إلحاح أن تراه وأن تعتذر له ، ولكن لشدة الزحام لم تتمكن ، فندمت وتأملت وقدمت طاقة من الزهر ، وطلبت أن تسلم له وأن يغفر لها . وأهم ما كتبه وهو في « جسبرا » هو « ماهو الدين ؟ »

وبمناسبة الدين فقد قال :

« أن حقائق الحياة العظمى متوفرة في كل الأديان الهامة »

وفي « لينزج » في ٩ يولييه سنة ١٩٠٢ حوكم ناشري كتب تولستوى ومترجمها بتهمة الزندقة ، ولكن المحكمة قضت بالبراءة ، وقررت في أسباب حكمها أن تولستوى هو أعظم قوة أخلاقية لروميا ولكل العالم .

ومن « سيفاستبول » عاد إلى داره في « ياسنايا » حيث كان يزخر بالزائرين وأفراد العائلة كلهم ، وليس فيه سوى أثاث بسيط قديم ،

وخالٍ من الأبسطة والسجاجيد ، كما أن الحديقة كانت مهملة ، مما يدل على أن ما كن الدار كان منصرفاً إلى أمور أخرى على أعظم جانب من الأهمية .

وكانت روحه المليئة بالرأفة والمحبة والصراحة والبساطة والحكمة تسيطر على كل هذا الوسط ، وكان الجميع يحيطونه بالمحبة والتقدير والاحلال ...

قال مرة مازحاً مع طبيب : « حسن . أنا طالما أسأت القول في الأطباء ، أما وقد اختبرتهم فاني الآن أعترف بأنى لم أنصفكم ، حقاً إنكم رجال طيبون ، وتعرفون كل ماقدمته لكم العلوم ولكن هذه العلوم لسوء الحظ هي التي لاتعرف شيئاً »

وفي أثناء أقامته في « ياسنايا » في هذا العهد ، روى أن يلازمه طبيب خاص ، ولكنه لم يقبل هذا الترتيب ، إلا على شرط أن يكون هذا الطبيب في خدمة باقى الفلاحين — وفعلاً نفذ الطبيب هذا الشرط وأقام في « ياسنايا »

أما أخته « الكونتس ماري » فقد ذهبت بعد وفاة زوجها إلى الدير ، وأقامت هناك إلا أنها حصلت على أجازة بسبب مرضه ، وسافرت وأقامت معه بعض الوقت .

وكان لا يكره ولا يغضب من أولئك الذين ينتقدونه أو يخالفونه ، إلا أنه اعترض مرة على صحيفة فرنساوية نشرت ما اعتبره غير صحيح عن آرائه في المسائل الجنسية ، وأرسل خطاباً بذلك يسند

الخطأ فيه إلى أحد أصدقائه الذى جمع آرائه من أوراق متناثرة غير مؤرخة ولا مرتبة .

وقد انتهى تولستوى من رواية « الحاج مراد » : وكتاب آخر عن « الأب سيرجى » ، ولكنه أوصى أن لا يطبع إلا بعد موته لأنه لم يجد وقتاً للمراجعة والاصلاح .

وقال عن الغرور : « أنى متسلح ضده ومنتبه اليه » .

ثم اخرج كتاب « ماهو الدين ؟ » وبعض توجيهات للجنود .

وقد تقدم اليه ناشر أجنبى وعرض عليه مليون « روبل » مقابل الحصول على الحق المستمر فى نشر كتبه . وتقدم اليه آخر بمئة ألف روبل مقابل النشر لمدة سنتين فقط . ولكنه صمم على مبدئه بأنه متنازل عن سائر حقوق النشر ، وأنه يعطى لكل واحد الحق فى أن ينشر ما يشاء من كتبه بغير مقابل ، وإلا فانه يعتبر نفسه معيباً مثل ذلك الرجل الذى يندفع فى شهامة الى تخليص غريق من الماء ثم يطلب بعد ذلك أجره !!

وطالما صرح بأن اصلاح النفوس وتنقيتها لا يجب أن يؤجر عليه أحد .

وفى هذا الوقت ضعف تولستوى جداً فلم يستطع أن يلعب الشطرنج وكان دائم التفكير فى الدين . وقال عن المرض لأصدقائه : « انى كسبت كثيراً عن المرض لدرجة أنى أصبحت أجيء ليكم جميعاً » .

وفي أول نوفمبر سنة ١٩٠٢ كتب يهاجم كذب الكهنة ونفاقهم
وسوء تعاليمهم وتفسيرهم

١٩٠٣ وفي يناير سنة ١٩٠٣ كان لا يزال ضعيفاً بعد إصابته
بانفلونزا وشفائه منها، وكان يشكو من الكبد ومن القلب،
وفي ٦ مايو سنة ١٩٠٣ كتب ثانياً الى صديقة «مود» يرجوه مخلصاً أن
يكون على سلام ومحبة مع «شيرثكوف» واخبره بأنه ينوى أن يكتب
عن حياة الاشخاص الماديين، وأن يكتب عن شوبنهاور الذي قال عنه
بعد ذلك: «حقيقة أنه كان مجنوناً وليسكن أى شخصية موهوبة
هو...؟ لقد أخذت أنا حقاً بسحر لغته وألفاظه ومنطقه عندما قرأته
لأول مرة..... أى قوة هو... وأى جمال؟ ولكنى بعد ذلك أخذت
أفكر على مهل وأخذت أحاول أن أهضم ما قرأت.... يا الهى لقد
ظهر لى أنه متوحش.... أى توحش... انه لمزعج حقاً أن يحط
شوبنهاور من قدر الديانات لهذا الحد !!»

وحدث بعد ذلك وهو فى سن الخامسة والسبعين: أن ركب
حصاناً ولما أراد أن يعبر مجرى صغيراً نزل من عليه وقاده من
زمامه شفقة به. إلا أن الحصان داس على قدمه، فأصيب إصابة بالغة
وعجز عن السير وعن الخروج واضطر الى ملازمة مقعده
ذى العجل.

١٩٠٤ وانصرف فى هذا الوقت الى الكتابة عن عدم المقاومة
بالعنف مردداً فى كل وقت أن استعمال القوة الجسدية فى
دفع الشر هو أسوأ أنواع الأسلحة وأسوأ أنواع العلاج.

ويحكى ان منزله هوجم مرة بجيش من الفيران فالتحذت
 الاحتياطات اللازمة لصيدها ، ولكنه امر بعدم قتلها ، فاختت حية
 الى مكان سحيق حيث تركت هناك حرة طليقة
 أما صديقه « مود » فكان يرى أن العيب ليس في القوة ولكنه
 في الوسائل والنيات ، لأن القوة قد تكون لازمة ومفيدة ، أما النيات
 السيئة والدوافع السيئة فهي دائماً وفي كل وقت شريرة
 آتمة .

وكتب « مود » إلى تولستوى بهذا الرأي فرد عليه : —
 « إنى ارجوك ن تعيد قراءة ما كتبتة .. وانك لو حللت حججك
 لاقتنعت بخطئك واكتشفت بنفسك مواضع الخطأ ... اما اذا لم
 تكتشفها فلا انا ولا غيرى نستطيع ان نذلك عليها ... »
 وفي هذا العام نشبت حرب قاسية بين روسيا واليابان فتألم
 لها تولستوى آلاما عميقة شعر معها بشر هذه العاطفة التي تسمى
 بالوطنية لدرجة انه بكى عند سماعه بسقوط « بورث ارثر » .
 وكتب « عودوا الى انفسكم » منتقداً هذه الحرب وسائر
 الحروب ، واعلان عن مقتته لها في اروع بيان واقوى حجة . وقد ذكر
 بعضه فيما سبق .

وقد عني هذا العام بجمع مقتطفات من اقوال عظماء الكتاب
 في كتاب سمي الجزء الاول منه « آراء الحكماء » .
 وكانت روسيا في هذا الوقت ثائرة ، فتطالعت جميع الهيئات
 والاحزاب الى كسب تأييد هذا الرجل العظيم الذي كان يهاجم القيصريّة

بكل شجاعة واقدام ، ولكنه عارض جميع هذه الاحزاب ، لأنها جميعاً ترمى الى القوة والعنف
وظل ينادى بأنه يجب أن يجاهد كل فرد أولاً لتحسين خلقه
وتفسيه

ولم يوافق على تكوين الهيئات والجماعات من عدة أشخاص ،
مختلفى الرأى والقلب والضمير ، كالكنائس والجمعيات والاحزاب
السياسية ، لأنه لم يتوقع منها خيراً ، وكان يرى أيضاً أن الأعمال السياسية
هى أعمال فارغة لا تستحق عناية المصلح الاجتماعى الحقيقى

١٩٠٥ وفى سنة ١٩٠٥ ألف بعض السكتب والروايات وكثيراً
من المقالات لتأييد نظريته فى وجوب عدم استعمال العنف ،
وفى حوالى سبتمبر سنة ١٩٠٦ مرضت زوجته ، وتأثر هو لذلك
وقال لها مرة « لأنك • لازمة الفراش ولا تسيرين بين جوانب المنزل
وحوالى الغرف : فاني أشعر بوحشة لصوت اقدامك ، وإني لذلك
لا أستهطيع أن أقرأ أو أكتب كما أحب » - ثم أجريت لها عملية
نجمت بعد ثلاثة أيام ثم شفيت بعد شهر

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٦ استطاع فى أحد الايام بعد الظاهر أن
يلعب الشطرنج مع أحد زملائه ، وكان فى العادة يلعبها بحذق ولكنه لم
يكن لينصرف أثناء اللعب عن أى غرض آخر ، فكان يمزح ويتحدث
مع الجالسين كما يشاء وكما يشاءون

ثم قال عن الحركات الثورية والاجتماعية فى روسيا
« لا ينتظر وقوع أى تقدم مالم يكن الرقى الاخلاقى أساسه وأن

أى اتجاه يعتمد على القوة لا يمكن أن يعتبر بأى شكل اتجاهها خلقيا
مسلما »

وقد أظهر إعجابه بـ « جولد سميث » الكاتب الانجليزى المشهور
وفى نوفمبر سنة ١٩٠٦ توفيت ابنته الأميرة مارى فى « ياسنايا » أثر
اصابتها بالتهاب رئوى فحزن عليها هو وكل من عرفها

وفى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٧ استولى البوليس على كل النسخ
١٩٠٧ المطبوعة من كتبه .

وفى مايو كتبت عنه ابنته « تايتانا » بأنه فى الشهرين الآخرين
كان ضعيفا وكان يصاب أحيانا بنوبات تقضى على ذاكرته وانه كان
يقرأ لبرناردشو .

وكان أظهر مافى أيامه الأخيرة هو رقة حاشيته ووداعته التى
لاحد لها وتمسكه الشديد بمبادئه ومحاولة تطبيقها عملا وبكل اخلاص
فى سائر المناسبات .

وفى آخر أيامه فتح المدارس مرة أخرى فى هذا العام
١٩٠٨ لأطفال القرية وكان يلقي عليهم أحيانا خطابات وقصص
مفيدة ، ويحدثهم فى أسلوب بسيط عن الحياة وواجباتها .

وأهم ماحدث فى هذا العام أن بلغ أله أشده من جراء ماكان
يلاحظه من عيوب وتقائص فى أنظمة الحكم فى روسيا . ومن جراء
البؤس والشقاء الذى خيم على مملكته . فخرج من صمته بعد أن سكنت
طويلا عن السيامسة فكتب : « لا طاقة لى بعد اليوم على السكوت »
شرح فيه ماتعانيه روسيا من البلاء ، وشرح مساوىء القوة واحتج

على شفق الكثيرين من الناس ممن اعتبرتهم الحكومة ثائرين ، ودعى فيه الى الاتحاد والائتلاف برباط المحبة ونبذ العداة : ثم وجه فيه الى الحكومة العبارة الآتية : -

« اذا كان لا بد لك من سفك الدماء وارتكاب الجرائم وازهاق حياة الناس ، فهناك رأسى أقدمها أنا فدية لبنى وطنى »
وقال فى آخر المقال :

« إني سأكتب مقالى هذا ، وسأشره بكل وسائل النشر فى روسيا ، وفى كل العالم ، حتى يقع أحد أمرين ، إما أن تقف هذه المظالم الموجهة . وإما أن أودع أنا فى سجن بعيد عنها . وخير من هذا وذاك وهو ما أطلبه من كل نفسى ، أن يضعونى على نفس طبلية المشنقة وأشد بثقى الخناق على رقبتى ، لألقى نفس مصير من يعدمون ، ولا سقط مناهم صريعاً » .

وقد أثار هذا المقال شعور الطبقات المثقفة وحزن الأحرار ، ودفع الناس الى تقديم كافة أنواع الاحترام والتكريم لهذا الرجل العظيم . وقد ترتب على طبع هذا المقال القبض على محرر الصحيفة وتغريم صاحبها ، وبعد ذلك قبض على «سكرتيره» وصدر الامر بنفيه
وفى أغسطس سنة ١٩٠٨ وصل تولستوى الى عمر الثمانين ففكر الكثيرون فى الاحتفاء به وإقامة المآدي والحفلات له ولكنه اعترض على ذلك بكل قوته .

وقد قال أحد الخطباء مازحاً فى هذه المناسبة :
« إن أحسن تكريم له هو أن يرسل الى السجن من أجل »

مؤلفاته التي يسجن بسببها غيره من الناشرين »

فعلق تولستوى على ذلك بما يأتي :-

« حقاً لا شئ يرضيني رضاء جزيلاً أكثر من إيداعى فى سجن حقيقى ، ألاقى فيه الظامة والجوع والبرد . إني لأستطيع أن أخلص من رغبتى الحققة فى هذا المصير ، لا هذا ولكن جداً ، ليرضى بذلك الناس الناقون على مؤلفاتى ، ولأنال أنا قبل موتى ، وفى آخر أيامى ، سعادة حققة ورضى أوفر ، ولا أبتعد أيضاً عن هذه الحفلات »

واتجهت الحكومة فى هذه المناسبة فى أول الامر الى محاربة الحفلات ، وهددت بمعاقبة القائمين بها والمهتئين بأمرها ، وكذلك حرض رجال الدين الناس على عدم الاشتراك فى أى تكريم ، ولكن بمجرد أن جاء يوم الثمانين حتى ظهرت رغم ذلك كل علائم الاحترام والتبجيل والتقدير لهذا الشيخ ، وقد بلغ الأمر بالوزراء أنفسهم أن لم يصدروا اى أمر بالقبض على أحد . أما الصحف فقد خصصت أكثر أمكنتها إن لم تكن كلها لتكريمه وذكر مناقبه وأسباب عظمتة وسموه ، كما وردت له آلاف الرسائل البرقية بالتهنئة من روسيا وغيرها . أما هو فكان ملازماً داره عقب النفاهة من إحدى النوبات المرضية غير حافل بكل هذه المظاهرات .

وقد قدم الى روسيا فى هذه المناسبة لزيارته ورؤيته عظماء العالم من انجلترا وفرنسا وأمريكا والمانيا وايطاليا والهند واليابان وقد زارته فتاة اخذت عهداً على والدها أن يمكنها من رؤية تولستوى ان هى نجحت فى الامتحان

وقد لقب بأنه « رجل العالم »
وان أصبح ماقيل في هذه المناسبة أثناء الخطب هو
« لقد اتضح أن أعداء الحرية والفضائل كانوا هم أعداءه . وان
أصدقاءها كانوا هم أصدقاءه » .

واليك صورة خطاب تعطيك فكرة عن شخصيته في آخر هذا العام كتبه الى سيده أرسلت له تقول :

« نعم أيها الكونت ليونيكولا فتس . إني أود لو أستطيع أن أطمك على وجهك من أجل كتاباتك الكفرية . كما إني أود لو أعذب كل اتباعك ومشاييعك لو كانت لدى القوة على ذلك »
فأجاب عليها بما يأتي :-

« اختي العزيزة »

وصلني كتابك الذي اشكرك عليه كثيرا؛ لأنه ادخل على نفسي بعض السرور ، إذ يفرحني ان الالحظ عليك حبك للتدين وأن أحس برغبتك في أن تعيشي حسب قوانين الله .

أما أن يتمسك الانسان بدينه ، فاني متفق معك عليه ولا اخالفك فيه ابداً، بل هو الذي سيؤدي الى تفاهمنا الروحي وإلى إتفاقنا لأن كلانا يشترك في الرأي الاساسي الجوهرى في الامر، اما فيما عدا ذلك فاننا مختلفين .

أنا اظن ان الشخص الذى يؤدي مطالب السماء حقاً ويقوم بواجبه حقاً، هو الذى يكون فعلاً مثلاً للرجل الطيب الصالح فيكافح لكي ينتصر على الشر ، ولكي يقوم بكثير من الاعمال الصالحة . أما اى محاولة اخرى شكلية بعيدة عن هذا الهدف، يقصد بها إرضاء الله فهي وهم وخداع وتفاق ، يهرف الانسان عن الغرض الاساسى الى اغراض تافهة سخيفة .

ولئن نسير بخطوات بسيطة، وسعى متواصل، واجتهاد مستمر،
في هذا السبيل هو كل المطلوب منا. ولذلك كان الواجب الاول
على الشخص هو ان يسعى إلى الرقى بنفسه بدون ان يضيع مجهوده
في شيء غير ذلك .

إن الله قد منح للانسان كل الوسائل التي تهىء له الطريق في
سبيل التقدم الروحي، فوهبه «الضمير» الذي يسلمه ضد الآثم، وقد
أعطاه «العقل» ليميز به الخير من الشر .

ان ملك السماء ليس بعيداً عنا بل هو في داخلنا قريب منا. ولكننا
لا نصل اليه إلا بالكفاح والجهاد .

انى ألاحظ شيئاً آخرأ في خطابك هو شعورك بالتواضع عندما
تتحدثين عن شخصك، ولكن عندما تتحدثين عن الدين يختفى هذا
التواضع، وتثور فيك الكبرياء ولعل مرجع ذلك هو انك انت واولئك
الذين اشتهر كوا في تعليمك، تظنون انكم لوحدكم الذين تعرفون كل
الحق . وأن غيركم لا يعرف عنه شيئاً. أما أنا فلا أظن أنى لوحدى
الذى أعيش في النور وغيرى يعيش في الظلام فقد بلغت الثمانين من
عمرى ولكنى لازلت أبحث عن الحق . إن معلميك ظاموك وضلاوك
وهم المسئولين عن خطيئة الكبرياء في نفسك .

إن كل شخص في أعماق نفسه له وجهة نظر خاصة في اتجاهه
إلى آله، وصلته به، وهذه المنطقة من الانسان هي منطقة حرام
مقدمة، ينبغى أن لا يحاول أحد أن يقتحمها، وينبغى أن نعلم أنه ليس
في متناولنا أبداً أن نعرف كل ما فيها .

كل ما تكتبينه عن حياتك يسرني، وأرجو الله أن يوفقك الى إنفاذ مشيئته لوحده ، وعندئذ هو سيكون معك ، ومتى كان الله معنا فكل شيء عظيم جميل .

أنت تقولين إنك آسفة لأنك لم تطلعي على كتاباتي . فيها أنا أرسلها لك بكل سرور ...

وإلى اللقاء ثم صاحيني واكتبي لي»
ولقد انتهى الأمر بهذه السيدة أن عدلت عن أفكارها الأولى . وعن تعصبها الذميم ، وعن تمسكها بأرائها القديمة واعتنقت مبادئ تولستوى بكل إخلاص .

وفي الشهور الأخيرة من حياته ، نشأ بينه وبين زوجته خلاف كبير بسبب رغبة هذه الزوجة في أن تستولى على مؤلفاته كلها . وأن تتولى هي نشرها وان تحتكر سائر حقوق التأليف لتحصل من وراء ذلك على المال الوفير ، إلا انه كان قد سبق فأعلن تنازله عن سائر حقوق التأليف والنشر والترجمة ، وباح لأي انسان في أي مملكة ان ينشر ما يشاء وأن يترجم ما يشاء من كتبه ، بغير اذنه وبغير أي مقابل وصمم على ذلك حتى النهاية . اما هي فلم ترض عن هذه المبادئ السامية ولم تستطع ان ترتفع إليها ...

ونصب صديقه «شرثكوف» على مباشرة الطبع والنشر ، وسماه كثيرا من المسودات مما أغضب الكونتس ، وجعلها تمقت «شرثكوف» هذا وتحقد عليه وتغار منه . ويرى بعض الكتاب أن هذا الشخص كان سبباً ملحوظاً في زيادة الخلاف وسوء التفاهم بين الزوج وزوجته

وقد أصبحت الزوجة في حالة عصبية شديدة وطالما تظاهرت برغبتها في الانتحار ، أما هو فكان يحب السلام ، ويحب أن لا يزعجها ، ويختلف لها المعاذير ويغفر لها ويأتي باللائمة على نفسه .

وقد كتب عنها كتب في آخر أيام تولستوى ، يرميها ببعض الرذائل فاءترضه بشدة وقال إنها مسكينة ، وإن حالتها الصحية غير سليمة وإن البواعث والعواطف تختلط عاينها وتتناقض في نفسها .

وفي سبتمبر سنة ١٩٠٩ ترك تولستوى « ياسنايا » الى بلدة ١٩٠٩ قريبة من موسكو لزيارة صديقه « شريوكوف » . ولما عاد من الزيارة بعد اسبوعين - وقد اتعبته الجماهير الغفيرة في المحطات بسبب الاستقبالات الحارة - لازم الفراش . ولما سئل عن صحته أجاب « إنى دائماً قريب من الموت . وهذا حسن . إنى في مثل عمري هذا لست مستطيعاً أن أجرى أو أقفز وذا كرتى تخوننى كثيراً ، وقواى العقلية والجسمية تضعف ولكن شيئاً واحداً فى يزداد نماءً وتوفرأ هو « القوة الروحية » . وإنى لأرضى عنها بديلاً من مسنين شبابى الاولى مهما كانت مليئة بالقوة والنشاط .

وقد اطلع على بعض مؤلفات « برناردشو » وأعجب بها وأثنى عليها وقد أرسل « شو » اليه كتاباً من كتبه وطلب اليه أن يعلق عليه فأرسل اليه خطاباً قال فيه :

« يا عزيزى المستر « شو » : إن الحياة أمر جاد عظيم ، وكلنا أثناء اقامتنا القصيرة فيها ، يجب أن نسعى وأن نبحث عن هدفنا الأساسى بكل قوتنا .

ولأني واثق بأنك سوف لاتستاء عندما أذكر لك بعض ملاحظاتي على كتابك ، فاني أقول لك أنك لست كثير الجد في كتابتك عن هدف الحياة الالماسي ، وعن أسباب ضرورها وتقائضها وآلامها . فهذه مواضيع في الدرجة الأولى من الأهمية لا يجب أن نعالجها فعلاً وأن يكون ذلك بكل اجتهاد وبكل وقار .

وقد لاحظت أيضاً أنك تعتمد أن تفاجيء وتدهش قراءك بما تكتبه في مهارة وذكاء ، مما قد يؤدي إلى صرف نظرهم عن التفكير في المسائل الهامة .

كما أن شرحك لبعض هذه المسائل هو شرح ابتدائي غير ناضج وأرجو أن يتطور في المستقبل القريب إلى نوع أكمل حتى يصل بنا إلى الحقيقة الواحدة التي نحاول جميعاً أن نقرب منها .

وإني أرجوكم أن تغفروا لي ، إذا كنت ترى في خطابي شيئاً لا يرضيك ، لأنني ما كتبتك لك إلا لأنني أقدر مواهبك العظيمة وصداقتك الخالصة .

وقبل أن يموت ببضع مشهور قال حينما استعرض بعض أسماء الكتاب العظام: لا يوجد أحد منهم حياً الآن . ثم استطرد « إلا ربما جورج برنارد شو » ... وكان معجباً كل الاعجاب « بديكنز » وأطرى « رسكن » و « جوجول » و « أمرسن » و « بوشكين » الذي وضعه في الدرجة الأولى .

وكان وهو في هذه السن لازال يسير على كرسيه ذي العجل ويعمل عند ما يستطيع بكل همة ومثابرة .

كان الرجل قوى العاطفة والعقل، مخلصاً إلى أقصى حد . فكانت الكلمات التي يكتبها قوية نفاذة ، تصل إلى قلوب الناس ، وتعمل في نفوسهم ، وتتفاعل مع تفكيرهم ، فتجعل منهم أشخاصاً آخرين متجددين .

ولم تنشر أو تترجم كتب أى فيلسوف إلى لغات كثيرة في حياته مثل كتب هذا الشيخ .

لقد كان أعظم رجل شغل أذهان الناس في عصره . ذلك لأنه كان موهوباً أميناً مخلصاً مجتهداً دقيقاً شجاعاً صابراً ، ممتعاً بيديه عظيمة وقوة في الملاحظة وجمال في فن الاخراج ، مخلصاً كل الاخلاص في خدمة الحق والخير منكرأ ذاته مهتماً بأهم المسائل البشرية العويصة ، محاولاً أن يضع آراءه في سهولة ووضوح ويكاد يكون من المستحيل أن نجد شخصاً آخرامثل تولستوى ، أو في الدرجة الثانية له ، رغم أن بعض آرائه في بعض المسائل الاجتماعية تخالف آراء كثيرين غيره ، وقد توصف بالغرابة والتدوذ .

لقد سجل هذا الفيلسوف اسمه ، وأثره في قلوب الناس ، لقد آمن إلى آخر لحظة في حياته بمبدأ المحبة وظل يعمل بهذا المبدأ حتى مات .

ولا شك في أنه لم يوجد في كل كتاب القرن التاسع عشر في روسيا من مهد الطريق إلى « لينين » « وتروتسكى » أكثر من هذا الكونت الذى ظل يطعن على كل الأنظمة الفاسدة ويهدم فيها بأمانة واخلاص حتى آخر حياته .

ولا يوجد كتاب . ولا كاتب : جعل من روسيا أمة جديدة عظيمة غيره ، ولا يوجد شخص يعقت الشيوعية العنيفة مثله . ولم يوجد في روسيا غيره أحب الفلاحين وشجع فيهم الجرأة وعدم الخوف .

وكما كان «روسو» أساس الثورة الفرنسية فكذلك كان تولستوى رغم إرادته مصدراً للانقلاب الروسى .

ولقد كان له أثره في الهند فان «غاندى» وملايين من أتباعه تشبّعوا بأرائه في عدم مقاومة الشر بالعنف .

أما في روسيا ذاتها فقد تأثر أهلها بعد وفاته بأرائه واندفعوا إلى ثورات عنيفة كان هو ينكرها ويحذرهم منها .

واليك بعض مآقاله عن المدنية الحديثة :-

ان المنتوجات العقلية والمادية قد تقدمت وتعاظمت تعاظماً فاق كل تناسب مع التقدم الروحى حتى أصبحت هذه المدنية بوضعها الحاضر تشبه قنبلة من الديناميت وضعت في أيدي أطفال صغار فلا يستخدمونها إلا في الدمار والخراب .

اننا نسير ببطء وتأخر في تقدمنا الروحى أما في المسائل العقلية والمادية فاننا نقفز ففزات سريعة عجيبة .

وفي هذه الأيام الأخيرة شعر بمرارة الخلاف مع زوجته واتسعت الهوة بينهما ، لأنها كانت تنصرف كأن غرضها الأول أن تؤذى وتغيظ زوجها وتحط من قدره لدرجة أن ابنتها السكونتس مارى أقامت نفسها عدوة لأمها ، ففكر أن يهجر منزله إلى جمة ما .

وقد قيل بانها كانت تحب « تانيف » الموسيقى المشهور ولكنها قيدت في مذكراتها ان شبتها له كانت بريئة . وانها لا تحفل باقاويل الناس وانها كانت تحب اغنيته المشهورة : « اغنية بغير كلمات » وفي سنة ١٨٨٤ حاول ترك الدار ولكن لشدة تمسكه بأهداب المحبة والسلام عاد قبل أن يصل إلى أقرب بلدة .

ثم حاول ذلك أيضا في يونيو سنة ١٨٩٧ وقد كتب وقتئذ خطاباً لزوجته لم يسلم اليها إلا بعد وفاته وجاء فيه ما يأتي :-
« عزيزتى سونيا

إنى غير مستطع أن أحملك على تغيير حياتك وعاداتك ، ولهذا فقد عزمى على الرحيل .

إنى وقد أصبحت شيخاً وقربت من السبعين ، أتوق من كل قلبى إلى السلام والهدوء والوحدة ، فأغفر لى ودعيني أذهب بسلام وبقلب راض مستريح .

ان ذهابى ليس مغناه أنى غير راض عنك ، فأنا أعرف أنك بالأسف لا تستطيعين أن تبصرى ولا أن تشعرى بما أبصرو بما أشعر ، وانى عالم أنى غير مستطيع تغيير أى شىء فى حياتك . لهذا لا أعيب عليك شيئاً ولا أدينك فى أمر ما . ولكنى بالعكس أذكر بكل محبة الخمس وثلاثين سنة الماضية التى قضيناها سوياً خصوصاً نصفها الأول حين كنت تغدقين على من عناية الأم واخلاصها وتضحياتها .

أما فى السنين الخمسة عشر الاخيرة من حياتنا فقد اختلفنا

الأسف كثيرا ولم أستطع أن أكون كما تريدن أنت ، لأنى أدركت
النور وعرفت الحق ولن أستطيع ان اتخلى عنه أبدا .

سأذكرك دائما بالشكر والمحبة على كل ما قدمتيه لى من خير ...

الوداع يا عزيزتى سوئيا »

ولعله من المناسب أن نقارن بين هذا الخطاب وبين بعض

ما كتبه لزوجته حين رغب فى الزواج منها :-

« هل ستكونين زوجتى ؟ إن كنت تستطيعين أن تقولى من كل

قلبك وبغاية الاطمئنان « نعم » فقوليهما ، وإلا فقولى « لا » - من

أجل السماء أرجوك أن تفكرى فى الأمر جيداً . حقيقة إنه ليزعجنى

أن تقولى « لا » ولكنى مستعد لسماعها ومستعد لاحتمالها لأن الذى

يحزننى أكثر منها أن لا تحبنى زوجتى بمقدار ما أحبها » .

وقد حدث مرة أن ابنته غضبت منه فى سنة ١٩١٠ على

١٩١٠ شأن من شئون طباعة كتبه لأنها أرادت أن تفضل

« شرتكوف » على والاتها وقد لاحظ عليها أنها غاضبة فعتب عليها ،

ثم بعد قليل قام بإشارة يستدعيها فلم تذهب ، ثم دق الجرس ثانية لها

فلم تتحرك ، وأخيراً أرسل اليها رسولا ، ولما قدمت قال لها :- « إني كنت

فى حاجة إليك لتكتبى عنى خطاباً » . ثم سكنت ... فجلست هى مستعدة

للكتابة إلا أن الشيخ الهرم أسند رأسه بيده على ذراع المقعد وأخذ

يبكى وقال لها فى عبراته :- « لم أعد الآن بالكسندرا فى حاجة إلى

كتابتك ومساعدتك » فتأثرت وقامت فى الحال وألقت بنفسها تحت

قدميه طالبة منه الصفح والمغفرة وسط دموعه ودموعها .

وأخيراً أحس بأن حياته أصبحت مستحيلة في «يامنايا» بسبب
تمرد زوجته . ويحسن أن ندون له هنا خطابا سطره لها في ١٤ يوليو
سنة ١٩١٠ :

« أهم ما أبغي أن تعرف فيه هو أنني لازلت أحبك كما أحببتك في
شبابك الماضي رغم كل الاختلافات التي بيننا والتي نشأت من عدم
متابعتك لاتجاهاتي الروحية ومن عدم اهتمامي بالحياة وآمالها الفارغة ،
وبقاءك أنت مشغولة بها مشغولة بحبها . . . إني لألومك ولأؤنبك
فلا حيلة لي ولك فيه ، وهو سر بيني الله والإنسان وليس من حق أحد
أن يتعرض له .

ولسكن طبعك قد ساءت في الأيام الأخيرة وأصبحت مستبدة
عصبية للغاية ، وأنى من أجل حرصي على عدم فراقك حاولت في الماضي
أن أحتمل كثيرا . . . أما اليوم فاني أخشى أن أكون غير مستطيع
الاحتمال » .

ثم طلب منها الموافقة على بعض الشروط الخاصة بطابع ونشر
الكتب وقال في آخر الخطاب :

« فإن لم توافقي على هذه الطلبات فاني أ سحب وعدى لك بعدم
الفراق . إني سأذهب بعيداً لأنه قد أصبح مستحيلا عليّ أن أحييا
هذه الحياة؛ ولو كان في مكنتي أن أحتمل أكثر من ذلك لصبرت

واحتملت ... قدّرى الأمر حسناً ... أصغى إلى قلبك وضميرك
فتستطيعين أن تصلى إلى أحسن قرار ... أما أنا فقد قررت أمرى
نهائياً ... أبى غير مستطيع ... كفى يا عزيزتى عن تعذيب نفسك
فإنك تعذبينها مثلات المرات أكثر مما تعذبين غيرك هذا كل
مافى الأمر ... »

ولكن الزوجة لم تغير سلوكها لأنها فقدت توازنها العقلى،
ولأن الحق قد كان يملأ قلبها. وقد دفعها هذا الحق بعد موته إلى أن حاولت
عينا تشويه سمعته بالكذب والتضليل .

فلما أعيته الوسائل بعد ذلك رأى من الخير لها وله أن يغادر
الدار إلى جهة ما ، فاتخذ قراره النهائى فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٠ .

وما أن آوت هى إلى مخدعها فى هذا المساء حتى جمع هو بعض
أوراقه وحماتها مع قليل من الملابس وأخبر صديقه الطبيب الملازم له
بعزمه على الرحيل فى التو ، وودع أبنته الكسندرا بعد أن وعدّها
بأن يملكّنها من اللحاق به . وفى نحو الساعة الخامسة صباحاً ترك
المنزل بسرعة إلى الاسطبل فى ليلة مظلمة كان يعثره ظلامها أثناء سيره
السريع ، وأيقظ السائق وطلب منه اعداد العربّة وكأفّه باغلاق الباب
لكى لا يشع من المكان نور قد يرشد زوجته اليه .

ولما أعدّت العربّة ، اصطحب طبيبه وخروج وقرر أولاً أن يزور
أخته التى كانت مقيمة بأحد الاديرة وركب القطار عند الظهر من
أول محطة واضطر إلى أن يقف وقتاً طويلاً فى نهاية العربّة حيث كان
المطر يتساقط والهواء يشتد فأصيب بالبرد وأخيراً وصل إلى الدير

حيث قابل راهبا فقال له : « أنا تولستوى هل تقبلونى للمبيت هذه الليلة ؟ » فأجابه « نحن نسمح بذلك لكل طارق » .

وفى الصباح قابل أخته التى كانت تحبه ومحبتها ، ولأنها مطلعة على ظروفه فعندما التقت به بكمت وبكى هو معها ، وأقام فى تلك القرية حيث لحقت به ابنته الكسندرا حسب وعده وأخبرته أن أمها الكونتس حاولت الاتجار كالعادة ، ثم بحث عن كوخ من أكواخ الفلاحين لاستئجاره فلم يجد ، وقال لأخته أنه لولا ما يحيط وجوده فى الدير من تأويلات دينية لفضل أن يبقى فى هذا المكان الهادى البعيد ، ولعل هذا هو سبب الخطأ فيما نسبته بعض الكتاب إليه من أنه ترك منزله ليعيش فى الدير .

وقد قضى اليوم الثانى (السبت) مع أخته وأستاذتها بغير أن يكون لديه أى تصميم على مغادرة البلدة ، إلا أن ابنته الكسندرا حرصته على السفر لئلا تلحق بهما أمها . وفى هذا المساء مرض والسكنه رغم ذلك استيقظ فى الساعة الخامسة صباحا من يوم الاحد وأخذ القطار الى بلدة قريبة ليلتقى بأحد أصدقائه ويكلفه باعداد جواز سفر له إلى خارج روسيا ، وعند الظهر أحس بالمرض وهو فى القطار فقرر الطبيب الملازم له أن يتخلفوا فى أول محطة هي « استوبوفو » وبمساعدة ابنته والطبيب استطاع تولستوى بعشة أن ينزل وهو يسعل كثيرا وقد ارتفعت درجة حرارته واختل نظام نبضه ، فما كان من ناظر المحطة إلا أن وضع داره تحت تصرفه .

وقد استقبل هذا المرض بروح راضية وكان يقول :

« إن الموت ينذرني كما ينذر لاعب الشطرنج خصمه عندما تهديده بالاستيلاء على « الملك » مثلاً . »

وفي صباح اليوم التالي (الاثنين) قيد في مذكراته بعض الأفكار . وما كان يعلم أحد مكانه لولا أن أحد الصحفيين كان يتعقبه في سفره بدون علمه .

وقد أرسلت الكسندرا برقية إلى أخيها الأكبر في موسكو ليبعث لهم بالطبيب وأخبرته أن والدها يرغب في رؤيته فسافر إليه حالاً .

وقد كتب إلى بعض أولاده : -

« أرجو أن لا تلووموني لأنني لم أرسل لكم لتلحقوا بي فإن هذا قد يؤلم والدكم »

وإني أنصحكم وأنا على حافة الأبدية أن تفحصوا بكل أمانة وإخلاص وعناية : - من أنتم ؟ وما أنتم ؟ وما معنى الحياة البشرية كلها ؟ وكيف يجب أن يقضيها الرجل العاقل ؟ .

أما زوجته فما أن عرفت من الصحف أن زوجها يقيم في (استوبوفو) حتى أخذت قطاراً خاصاً مع بعض أبنائها إلى هذه البلدة . ولما وصل الطبيب قرر أن المريض مصاب بالتهاب في الرئة اليسرى ولكنها إصابة غير خطيرة ، والغالب أن الاجتهاد العصبي الطويل هو الذي قضى عليه .

وفي مساء الاثنين أول نوفمبر شكى المريض من قلبه ولم يمت يوماً مريحاً ولكنه في الصباح استيقظ واستطاع أن يلى هذه الكلمات : - وفي

طريقى الى المكان الذى أردت أن أكون فيه وحيدا» ولم يستطع أن يكمل، وكانت هذه الكلمات آخر محاولة له فى الكتابة .

وفى الساعة الخامسة بعد ظهر الثلاثاء امتدعى اليه «شركوف» «ونيكيتين» وأظهر لها أنه يخشى عدم ارتياحه فيما لو علمت زوجته مرضه وجاءت اليه، وقال لشركوف: «أنت تعلم أنها لو حضرت هنا فلا أستطيع أبدا أن أرفض مقابلتها» ثم أخذ يبكي.

وقد وصل فى هذا الوقت الى حالة من المرض لم يستطع معها أن يتحرك الا بمساعدة غيره، وفى مرة بعد أن قام بمعاورته ثلاثة أشخاص قال فى كلمات حزينة متأثرة بعد أن شعر بجهد الحركة: «الفلاحون ...! الفلاحون ... كيف يموتون؟!» ثم اغرورقت عيناه بالدموع .

وطلب أن يقرأ له أحد شيئا فقراُ شركوف مفعالا كان أعده للطبع ليصف فيه كيف ترك تولستوى منزله .

ثم قضى بعد ذلك ليلة قلقه تخلفها شرود الذهن واضطراب القلب حتى باغ عدد نبضاته من ١٢٠ الى ١٢٠ نبضة .

وفى يوم الخميس اشتدت عليه العلة فابيضت شفته وذبلت عيناه، وظهر على وجهه الضمور وظل عقله شاردًا وأنفاسه شديدة، وكان يحاول دائما ملاقة مصيره فى صبر واحتمال .

وفى بعض الاوقات كان يقول: «انه صعب جدا ... عسير جدا ... ماذا يجب أن أفعل .» ولعله كان يقصد من ذلك ان أمام مشيئة الله واراذه والحصول على الكمال المطلق هو من أصعب الواجبات .

وفى الساعة الثانية والنصف صباحاُ نظمت الكسندرا شركوف

وقالت له: «ان والدى فى حالة سيئة جدا» فذهب الى غرفته ولما أحس به طلب منه أن يقرأ له شيئاً فاطاعه ثم شكوف ليرضيه وأصغى قولستوى إلى القراءة اصغاء حسناً .

ولما علم أن الاطباء يحقنونه بالمورفين عارض فى ذلك .
ومن الكلمات التى كان يفوه بها بين آن وآخر الدالة على أنه لم يكن ليخشى الموت « آه ... إنه حسن !! هـذا أيضاً حسن ... كل شيء بسيط وحسن .. انه حسن .. نعم ! نعم ! » .

وكان يستقبل أثناء مرضه فى كل يوم ابنه الاكبر وابنته الكبرى وغيرهما ويتبادل معهم عبارات الحب العميق . وقد سأل ابنته مرة عن زوجته التى كان يظن أنها بعيدة عنه فى «ياسنايا» وانها مريضة وانها لا تعرف عنه شيئاً بينما هى كانت تقيم فى غرفة بجواره ولكن ابنته كانت تتحاشى الاجابة خوفاً عليه فقال لها:- « يجب أن تعلمى أنه ضرورى لراحة نفسى أن أعلم ذلك » ثم بكى ورأت ابنته أن تتركه فحيتة وخرجت .

وفى يوم الجمعة فكر كثيراً فى زوجته وخشى أن يظن الناس بها سوءاً، وفى هذا الوقت وصلته برقية من أحد رجال الكنيسة الكبار ليطلب اليه العودة الى الاعتقاد بتعاليم الكنيسة فقال لابنته:- « قل لهؤلاء السادة أن يتركونى بسلام » وفى المساء حضر كاهن مبعوث من المجمع المقدس ليقابله ولكن أهله أبوا عليه ذلك .

وفى يوم السبت الساعة الثانية بعد الظهر جلس فى فراشه وقال بصوت عال « هذه هى النهاية .. وانى أقدم لكم فقط هذه النصيحة .. ان

هناك كثيرين في الدنيا غير «ليوتولسوى» .. فاما ذتهتمون بي أنا
لوحدى ؟؟

ولم يكن يخشى الموت كما ظن بعض السكتاب ، لأنه كان شجاعا
في «سيفاستبول» ولأنه كان في مرضه الاخير غير خائف ولا متذمر ،
ولأنه كان دائما متوقعا هذه النهاية الحتمية .

وفي نصف الليل من يوم السبت كانت الحالة شديدة وسمع
يقول : « لكى ينجو .. لكى ينجو .. !! » وفي الساعة الرابعة صباحا
عندما كان في غيبوبة دخلت عليه زوجته وقد أمسكت انفعالاتها
وسارت اليه في هدوء وسكون وركعت تحت أقدامه وقبّلت يده
وقالت هائسة : - « ساحنى » ... فتنهد تنهدا عميقة ولكن لم يُعرف ان
كان أحس بوجودها أم لا .

وقد عنيت الكونتس بأن يؤخذ لها عدة صور في هذا المكان
بمناسبة وبغير مناسبة لدرجة أن احدى بناتها غضبت وانتقدتها فأجابتها
أمها بقولها : - « على الأقل .. على الأقل .. ليعرف الناس اني كنت معه
في هذا المكان » .

وفي الساعة السادسة من يوم ٧ نوفمبر اجتمع كل أهله حوله وقال
الطبيب الذى كان يقف معهم بجوار مخدعه : « تلك هى الانفاس الأخيرة »
وبعد بضع دقائق فاضت روحه بسلام وهدوء ورقد مغمورا باقدس
الآراء وأقدس الاهداف .

وقد زاره في الاسبوع الأخير من مرضه كبار رجال الحكومة
ومن بينهم مبعوث من رئيس الحكومة والمحافظة وكبار الضباط

ورجال الصحف والمصورون والسيدماثيون .

وقد كان لوفاته دوى عظيم في سائر أُنحاء العالم فسرعان ماسمع الناس بهذا الخبر حتى قاموا باظهار شعور الحزن العميق والمحبة والتكريم كما أظهر القيصر نفسه وأعضاء مجلس الدوما ومجلس الدولة شعورهم الفائق بخسارة روسيا في أعظم كتابها وأصلح رجالها، وقد ظهرت الصحف مجللة بالسواد، وأغلق أصحاب التياترات والملاهي دورهم، وأعلنت الجامعات عن مواعيد كثيرة لحفلات الرثاء والتكريم .

ونقلت جثته بمشهد لامثيل له من العظمة في قطار خاص بعد أن صدرت الاوامر بوقف القاطرات الأخرى، وكانت الجماهير في كل محطة تتجمع وتتزاحم زحاما شديدا لاطهار سائر أنواع التقدير والتبجيل لهذا الراحل الفريد ولتشجيع جثمانه الطاهر الى مقبره الاخير .

ومن بين هذه الجموع احتشد أهل «ياسنايا» كلهم يحملون علما مكتوبا عليه « تولستوى . . ! ان ذكرى طبيبتك سوف لا تزول من قلوب الفلاحين » .

ثم نقلت الجثة أخيراً الى قبر حفره الفلاحون محاطاً بشجر البلوط الطويل فوق تل صغير أوصى أن يدفن فيه، لأنه كان من خمس ومبعين سنة خلت هو المكان الذي كان يلعب فيه هو واخوته، وكان هو المكان الذي زرع فيه أخوه « نيكولا » فرع شجرة أخضر صغير تذكراً لجمعية أنشأها الشقيقان كان شعارها تأخى الناس جميعاً وارتباطهم برباط المحبة والصدقة .

اعتزانی

أذكر مرة أني بينما كنت مجتمعاً باخواني ، وأنا في الثانية عشر من عمري ، إذ دخل علينا تلميذ في يوم أحد ، وأمضى معنا طول اليوم ، يحدثنا عن فكرة جديدة خطيرة اكتشفها مدرسته ، وهي أن الله غير موجود ، وأن كل التعاليم التي قالت بوجوده هي من مخترعات الناس ، وبعد أن اشتركنا جميعاً في البحث ، ارتحنا لقبول هذه الفكرة ورحبنا بها .

ثم أذكر أيضاً أنه كان لنا شقيق أكبر هو « ديمتري » ، مؤمن بدينه مخلص لعبادته ، يصلي ويصوم ، ولا ينقطع عن الكنيسة ، ويتمسك بالحياة الفضلى ، فكنا ونحن صغار نهزأ به ونطلق عليه لقب « السيد نوح » وإن « موسين بوشكين » عميد « جامعة كازان » في ذلك الوقت ، دعانا جميعاً إلى حفلة راقصة ، ودعا معنا أخي « ديمتري » هذا ، ولكنه رفض تلبية الدعوة ، متمسكاً باعتقاده أن الرقص مناف للدين ، رغم أن العميد حاول عبثاً أن يقنعه بأن الملك داوود نفسه وهو نبى كان يرقص أمام « التابوت » .

وكنت وأنا في هذا السن المبكر ، أقرأ « فولتير » ، وأحبه وأحب تهكمه على الدين وعلى رجاله .

وقد كان لهذا النفور من الدين أثر فعال في حياتي ، كما كان له نفس الأثر في الكثيرين من أمثالي .

ولعلني أستطيع اليوم أن أعلق على هذا الموقف بملاحظات الآتية : -
« يعرف الناس جميعاً قواعد دينهم ويحفظونها عن ظهر قلب ، ولكنهم لا يطبقونها فعلاً ، بل قد يطبقون عكسها تماماً ، لأن الدين في نظرهم هو أمر بعيد عن الحياة ذاتها . . . كائن في دائرة مستقلة عما غربية عن هذه الأرض وعن هذه الدنيا ، وهو في نظرهم أمر تحيط به الأسرار والطلاسم ،

فلا يستهدون بإرشاداته في علاقاتهم وفي معاملاتهم ١١
وكما تعارض الدين مع مغريات هذه الحياة من شهوات سفلى ،
انتصرت شهوة الدنيا على الدين ، لأن سلطان الأخير في نفوس الناس
لا يعدو المظاهر الشكلية للعبادة ، وكل الذين يتمسكون بهذه المظاهر
لا يبعون من ورائها سوى تحقيق مصالح شخصية مادية

ولازلنا نرى في كل يوم أن الذين يتعلقون بشكليات العقائد ، هم الذين
يؤلفون الأكثرية الساحقة من المرائين والبله وخليط الطباع والمغرورين ،
أما الصراحة والشرف والذكاء والأدب فإنك تجد كثيراً منها بين الذين
لا يتظاهرون بالتدين الكاذب ١١

إن تأثير الدين الذى تعلمه في المدرسة من أنصار الطقوس الشكلية
يزول حتماً شيئاً فشيئاً ويتبخر كالهواء عندما نتمو ، وعندما تواجهنا
مشاكل الحياة فعلاً ، فلا يعرف الدين الطقسى كيف يحلها لنا .

زارنى أخيراً رجل فاضل من إخوانى ، وقص على كيف خسر دينه
قال : -

« منذ ست وعشرين سنة ذهبت للصيد مع أخى الأكبر ، وقبل أن أنام
سجدت لى أصلى حسب عادتي ، وظل أخى الأكبر يرقبني ويتأمل أمرى
إلى أن فرغت من صلاتي فصاح بي :

« أف منك ألا تزال تحتفظ بعبادة الصلاة ؟ »

لم يقل أخى أكثر من هذه الكلمات القليلة ، ولم يحاول إقناعي
بأكثر منها ، ولكنك تدهش عندما تعلم أنني تأثرت كل التأثير من
هذا الاعتراض وانقطعت حالا عن الصلاة ، ولم أعد أذهب إلى
الكنيسة ، أو أعترف ، أو أتناول الأسرار المقدسة ، ثم ظلمت على
هذا الحال عشرات السنين .

لم يحملنى على هذا التخيير الفجائى الكبير، اقتناعى بآراء أخى
الأكبر، لأنى لم أفحصها، ولم يحملنى عليه إقتناعى بحقائق جديدة
وصلت إليها، لأنى لم أدرس ولم أبحث فى ذلك، ولكن لأن كلمات
أخى القليلة دفعتنى إلى السقوط كما تدفع يد الإنسان الضعيفة حائطا
كبيرا ضخماً ولكنه فى غاية الوهن فيسقط فى الحال - لقد اكتشفت
أن إيمانى كان واهياً وكان نوعاً من الطقوس العمياء التى لاتصل بالقلب
ولا بالعقل !!

إن كل كلمة كنت أنطق بها فى صلواتى كانت فارغة، وإن كل
سجدة كنت أقوم بها كانت نوعاً من العبث، وإن كل إشارة أو
حركة فى عبادتى كانت عملاً ميكانيكياً لا معنى له فى نفسى، لقد
فهمت وأدركت أنى لم أكن إلا مقلداً تقليداً أعمى !! .
على غرار حياة هذا الرجل عاش ولا زال يعيش الكثيرون من
أبناء طبقتى .

لهذا فإنى أعترف بأن إيمانى الذى درجت عليه منذ حداثى
قد تزعزع تدريجياً فى سنى شبابى مثل الكثيرين غيرى، ولكن الفرق
بينى وبينهم أنى بدأت أدرس الفلسفة فى سن الخامسة عشر، فأدركت
وفهمت مبكراً وهن عقيدتى، ومنذ السادسة عشر أبطلت الصلاة،
وأضربت عن الكنيسة، وعن الصوم ...

ولكنى مع ذلك كنت لا أزال أو من « بشيء » إيماناً نظرياً غامضاً ...
لم أعرف كيف أعبر عنه ... لعله الله ... أو بالحرى لم أنكر وجود إله ..
ولكن أى نوع من الله ؟ ... لم أعرف ولم أفهم ... لم أنكر المسيح،
ولا تعاليمه، ولكنى لم أستطع أن أثبت منها الحقائق الهامة والأهداف
البعيدة التى ترمى إليها أو تقوم عليها ...

كل ما كان لى من إيمان عملى فى ذلك الوقت ، هو حنين مبهم وحب غامض إلى السعى وراء الكمال الشخصى .

ولكن ما الكمال ؟ وما نتائجه ؟ وكيف أصل إليه ؟

عملت على تقوية إرادتى ، فأجبرت نفسى على اتباع قواعد معينة ، ثم جاهدت طويلاً لتقوية جسمى بالرياضة البدنية المتنوعة ، وروضت نفسى على الاحتمال والصبر ، واخضعتها باختبارى لمقاومة الصعاب والمشقات والحرمان - بذلت كل هذه الجهود وغيرها ، لأنى فهمت وقتئذ أنها أمور لازمة محتمة تساعدنى على السير فى طريق الكمال الشخصى الذى كنت أنشده من كل قلبى .

ولكن سرعان ما وجدت نفسى ساعياً وراء كمال آخر ، من نوع آخر ، هو الكمال « العمومى » بمعنى أنى أردت أن أكون « أحسن » ، ولكن لا أمام نفسى ولا أمام الله ولا وفق إلهامى أو وحي ضميرى ، بل أمام الناس وطبق مقاييسهم ومعاييرهم

ثم لم يمض وقت طويل ، حتى تحول هذا الشعور إلى شهوات أخرى ، هى أن أحصل على سلطان أكثر من غيرى ، وأن أبلغ من الشهرة والمال والجاه نصيباً أوفر من نصيب زملائى .

لقد أحببت أولاً من كل قلبى أن أكون « طيباً » ... ولكنى كنت شاباً مثقلاً بأهوائى الجامحة ... ثم كنت وحيداً ... وحيداً جداً ... ومنفرداً فى جهادى وسعى وراء « الصلاح » ! !

فى كل مرة كنت أحاول أن أظهر حنين النفس والقلب إلى الحياة الطيبة الفاضلة ، كنت أقابل من الناس بالسخرية والإهانة ! ! أما عند ما كنت أترك نفسى لأهوائها الفاسدة ، وأسلك كما يسلكون ويحبون ، فكانوا يلقوننى بالترحاب وبالتشجيع وبالإطراء والاحترام ! !

إن الطامع وحب السيطرة وحب المال والشهوات الخسيسة والفخر والاعتداد بالذات والنضب والانتقام ، كلها صفات كان لها الاحترام الأول في اعتبار الناس ، الذين خدعوني وعلفوني بأنها أسمى مراتب الفضائل ... فلما أطعتها وأستسلمت لها مثلهم فزت برضاهم ومحبتهم واحترامهم ... كنت في نظرهم رجلاً ذا خلق عظيم !!

ومن أعجب ما أذكر الآن ، أن كانت لي عمّة طيبة كنت أعيش معها ، فكانت تقول بأن أقصى ما تتمناه لي هو أن تكون لي علاقات حب خفية مع سيدة متزوجة ، وأن أراودها عن نفسها ، وأن أحظى بحبها ! أما أمنيته الثانية فهي أن أكون ضابطاً عسكرياً ، وإن أمكن فللقصر ، وأحسن من كل هذا هو أن يوفقني حسن الحظ إلى عروس غنية ، تحمل لي آلاف الجنهيات وعشرات العبيد !!

آه ... إنني لا أستطيع الآن أن أذكر هذه الأعوام السوداء ، دون أن أشعر بالندم المرير في قلبي ، وأحس بالآلام تحز في أعماق روحي ، فقد اشتركت في اثنائها في الحروب ، وقتلت الناس ، ودخلت المبارزات لأذبح إخواني ، وأنفقت المال الذي كنت أحصل عليه من جهد الفلاح وكده في القمار واللهو !! وكنت أوقع العقوبات بقسوة وعنف على خدمي وأتباعي ، وعاشت النساء الفاسدات علناً ، وسلسكت كل سبيل الفسق والعهر ، وتعلبت الطرق المختلفة للراوغة والخداع ، وكانت كل حياقي في هذه الأيام كذباً ، وسرقة وفسقاً وزنى وسكراً وتمرداً وقتلاً ، ومع ذلك كله فقد كنت في نظر الناس وفي نظر زملائي وإخواني الرجل المحترم المثقف الفاضل !!

عشت على هذا الحال لمدة عشر سنوات ، بدأت في خلالها أكتب ، لا لغرض إلا لأرضي غروري ، واتخذت القلم حرفة ، لا لغاية إلا

لأحصل على المال والشهرة ، ومن أجلهما كنت مضطراً أن أخفي «الخير»
الذي أحبه وأن أقول «الشر» الذي يجهل الناس !!

نعم فعلت هذا ، فطالما قضيت الليالي أضغط عقلي ، وأحارب أفكاري ،
وأقاوم مشاعري وقلبي لأخفت ما فيه من طموح إلى «الأكل» و«الأشرف»
و«الأحسن» ، من أجل المال والشهرة !!!

والعجيب أني على أساس هذا الكذب والخداع والنفاق في كتاباتي
وفي تفكيري ، نجحت نجاحاً هائلاً ... وكان القوم يقرأون ما أكتب
شاكرين معجبين !!

ولما كنت في السادسة والعشرين في نهاية عملي في الحرب ذهبت إلى
« بطرسبرج » وتعرفت إلى كبار الكتاب والأدباء ، فقابلوني بترحاب
عظيم ، وقبل أن أتمكن من دراسة الوسط الذي جئت إليه ، الفيت
نفسى ملتزماً فعلاً بغير فحص أو تأمل آراء فاسدة ومعتقدات ضالة
لهؤلاء الزملاء ، ففضي على الباقي من آمالي وجهادي في سبيل محاولتي
الرفعة بحياتي الشخصية ، لأن هؤلاء الزملاء لم يغنوا أبداً بالسكال الحق ،
ولم يهتموا سوى بالمال والشهرة ، ولم أعدم أنا أن أجد لآرائهم المبررات
الكافية في ذهني ، الذي كان في ذلك الوقت شغوفاً باستقبال كل جديد
راغباً في كل أنواع المرح والسرور وللظهور !

ومن آراء هؤلاء الكتاب :-

« إن الحياة نشوء وارتقاء لا نهاية له ولا حد لتطوراتها ، وأن القوة
الفعالة الحقيقية في هذه التطورات ، وفي نمو الحياة ، إنما هي قوتنا نحن
المفكرين والكتاب ، وإن أقدرنا في هذا الشأن هم الشعراء والفنانون ،
وإننا نحن قادة المجاهدين ، - إن وظيفتنا في هذه الحياة ، وواجبنا فيها

ينحصر في أن نعلم الناس ونحاول أن نصيغ آراءهم ومعتقداتهم بأرائنا نحن ومعتقداتنا نحن .

تلك هي نظريتهم التي قبلتها بكل سهولة ، وسرت على أساسها ، ولستكن سؤالاً طبيعياً كان يواجهني أحياناً في هذه الظروف : - « ماذا أعرف ؟ ما الشيء الهام الذي أستطيع أن أعلمه للناس ؟ » ولما كنت أجد نفسي عاجزاً عن الجواب موقناً بجهلي ، كنت أحاول أن أزوغ من الإجابة وكنت أقول لنفسي إنه ليس من الضروري أن تكون عارفاً إن الفنانين والشعراء لا يعرفون ما يقررون إلا بطريق الوحي والإلهام ...

ومن الغريب أن الناس صدقوا هذا الخداع ونظروا إلى نظرتهم إلى شاعر ملهم كبير ، وفنان عظيم ، فازددت تمسكاً بمركزى وبنظريتي أنا .. أنا الشاعر .. أنا الفنان .. كتبت وعلمت ما لم يكن له أقل أهمية وما لم يكن لي به الملم حقيقى !! بل أنا من أجل هذا الجهل نلت الكثير من المال والجاه ، فاقتنيت لنفسي قصوراً فخمة ، ونساء كثيرات جميلات وأصدقاء عديدين ، وانفقت الأموال الطائلة على الولائم والحفلات واهماً بأن ما أكتبه كان عظيماً وكان صالحاً !!

بقيت عاملاً في هذا السبيل زمناً طويلاً ، ونشرت الكثير من كتيبي ، ولم أرد أن أشك في صحة نظريتنا نحن الكتاب ، لأن الناس كانوا يؤمنون حقاً بالكتابة وبالشعر وبنمو الحياة وتطورها ، وبأثرنا العظيم في كل هذا ، ولأنى أيضاً ككل كاهن يبشر بذلك ، حظيت بالمال والمجد والآية في كل مكان !!

٢

ولكنى شككت .. شككت .. فى صدق هذه النظرية التى تقول بأننا نحن الكتاب والشعراء أنفع الناس ، وأننا قادة المجاهدين لنمو الحياة ومدنيتها ، فعمدت إليها أفحصها وأتأملها فى دقة وعناية .

وأول مادفعنى إلى الرية فيها ، أفى ألفيت المبشرين بها مختلفين فيما بينهم أشد الاختلاف ، على كل جزء من تفصيلاتها .

ثم وجدت بينهم من يقول مثلاً : « إننا نحن وحدنا أحسن المعلمين إننا نحن وحدنا الذين نعلم الناس الحق والخير .. أما غيرنا فهم على ضلال مبين » !!

ثم لاحظت أن هذا الخلاف يـُؤدى بهم إلى الخصام والتناؤد والحقء ، مما كان يدفع بالواحد منهم لأن ييندل غاية جهده لممكر بزميله ويخدعه ويسىء إليه .

حتى الذين كانوا يقفون على الحياء من الفريقين المتخاصمين فقد كانوا يعمدون إلى استغلال موقف الخصومة وإستثماره للحصول على منافع مادية ومصالح شخصية !!

لقد ارتبت فى عصمة نظرية هؤلاء الكتاب ، وفى حسن نياتهم ، وقد دفعتنى هذه الرية إلى الاهتمام بدراسة حياتهم الشخصية العملية ، فكتشفت أنها فى الغالب حياة فاسدة لاصلاح فيها ، وأن أعمالهم كذلك لاخير فيها ، وأنهم بينما يعيشون فى مستوى أكثر انحطاطاً من رفقاءنا الذين يعيشون فى العسكرية ، تراهم مخدوعين واهمين متبجحين متظاهرين فى رياء وكذب بثقة عظيمة لا توجد فى الواقع إلا بين القديسين ، بينما هم أبعد الناس حقاً عن القداسة . وأقربهم إلى الخسة والشر

كان لوقوفى على هذه الحالة أثرا مريرا شديداً ، فكرهت نفسى ،
وكرهت الانسانية وأدركت أن أعتقدي بهذه النظرية لم يكن إلا وهما
فارغا ، فامتنعت عن الاجتماع بالزملاء من الكتاب والمؤلفين ، وتحاشيت
مقابلتهم ، وهجرت مجالسهم وأنديتهم ، ولكنى تمسكت بقلب «شاعروفنان»
«ومعلم» ، لأن ذلك كان يدر على المال والجاه !!

ولا أنسى أنى كسبت من عشرتى طولاء الناس رذائل معينة ، هى
الغرور والكبرياء والعناد ، والثقة الكاذبة ، التى تقوم على أنى مستطيع
أن أعلم الناس مالا أعرفه ومالا أؤمن به !!

وعندما أذكر الآن هذه الحالة التى كان تسود على تفكيرى وتفكير
رفاقى ، والتى لا تزال سائدة على الآلاف من الكتاب ، أشفق على نفسى
وعلى غيرى ... أيه... إنها تشبه حالة قوم يقيمون فى مستشفى المجاذيب !!
كنا جميعا مقتنعين بأنه وضع علينا واجب ضرورى هام ، هو أن
تحدث وأن نكتب وأن نرسل للطبع بأسرع ما يمكن ، لأنه يتوقف
على عملنا هذا رقى الجنس البشرى والانسانية بأسرها !! .. آلاف منا
كتبوا ونشروا وعلموا... ولكنهم بالحقيقة كانوا يضللون وكانوا يكذبون
وكانوا يسيئون إلى غيرهم وإلى بعضهم ، وكانوا يتنازعون ويتخاصمون
لأنهم لم يريدوا أن يدركوا وأن يعترفوا بأنهم جهلة ، وأنهم لا يعرفون
شيئا ، وأنهم يحلون أبسط المسائل .. ما الخير؟ ... ما الشر؟ ...

كنا جميعا نندفع إلى الكلام فى وقت واحد ، وليس فىنا من زميل
يصغى ، يشجع الواحد منا الآخر ويكيل له الثناء والاطراء ، على شريطة
أن يعود اليه من الغير مضاعفا ، وأن يحظى كل منا بدوره فى هذا المديح !!
ثم لا نلبث بعد تبادل هذا الثناء أن يثور بعضنا على بعض ، ويخاصم

أحدنا الآخر، ونعود إلى الانقسام والعداء، كأنا نمثل رواية كل أبطالها
مجانين !!

آلاف العمال عملوا ليلاً ونهاراً بأقصى جهدهم، يعدون العدة،
ويصفون الحروف ليطبّعوا ولينثروا كتبنا بالبريد في كل أنحاء روسيا،
ونحن لا نقطع عن الكتابة والتعليم السكاذب ونشكو من ضيق الوقت،
ثم نغضب وتندمر لأن الناس لا يصغون إلى كلماتنا الحكيمة !! .

حالة غريبة حقاً .. ولكني فهمتها الآن ... إن المدافع الصحيح الذي
كان يدفعنا إليها هو الشهوة الطاغية إلى المال والشهرة، وعجزنا عن
الوصول إليهما إلا عن هذا الطريق

ولكني نحتفظ بمقامنا وباعتقادنا أننا أعظم طبقة في روسيا، رغم تفاهة
الأعمال التي كنا نقوم بها، فقد بحثنا عن الأفكار التي نبرر بها مواقفنا،
فقررنا في اجتماع عام الفكرة الآتية : — « كل ما هو واقع بيننا هو حق
وصواب، وكل شيء هو نتيجة الشهوة والارتقاء، والرقى لا يكون إلا
عن طريق المدنية، ومقياس المدنية هو انتشار الكتب والصحف والمجلات
التي نحررها، ونحن ننال المال وإكرام الشعب، مقابل ما نقدمه له من هذه
الكتب وهذه الصحف، ولهذا فنحن أحسن الناس جميعاً وأعظمهم نفعا .. »
وحتى هذه الفكرة، فأننا لم نضعها بنظام أو عن إيمان، بل قررناها
كما هي لأننا على أساسها كنا نقبض المال وننال الاطراء ونحظى بالكرامة
والمجد !!

أعترف الآن وأنا أكتب هذه السطور، أننا كنا أقرب إلى المجانين ..
ومع أني كنت ألحظ هذا في بعض الأحيان، إلا أنني كسائر المجانين كنت
أظن أن جميع زملائي هم المجانين وليس فيهم من عاقل إلا أنا !!
قضيت على هذا الحال ست سنين، سافرت في أثنائها إلى أوروبا

وتعرفت إلى بعض عظمائها وكتابها ، فوجدتهم هم أيضاً مثلنا تماماً
يسرون على نفس منهجنا، لا يحنون أى عناية لمعرفة الهدف النهائى لحياة
الفرد الشخصية ، ولا بمصيره بعد الموت ، ولا بصلاح أيامه فى هذه
الدنيا ، ولا زالت هذه النظرية بالأسف تسود وتنتشر إلى اليوم بين طبقات
المشقفين .

« التقدم » . . . « التقدم » . . . لقد اعتقدت فى أول أمرى أن لهذه
الكلمة معنى حقيقى فى ذاتها فاهتممت بها ، وبت مضطرباً أسائل نفسى :-
« كيف أستطيع أن احيا حياة أفضل ... ؟ كيف أتقدم ؟ . كيف
أرقى ؟ »

حاولت كثيراً ... وفسرت طويلاً ، ولسكنى تهت وضللت ... وأخيراً
تبعث ما يتبعه غيرى وسرت كما يسير غيرى ، فلم أعرف هدفاً لحياتى ،
ولم أعرف إلى أى غاية وإلى أى مصير أنا منته
ومن الغريب أنى لم أعن بجهلى هذا ، ولم أحفل بقصورى فى المعرفة ،
ولسكنى كنت أثور فى بعض الفترات على هذه الخرافة العامة السائدة التى
تؤدى بالناس إلى تجاهل جهلهم بأهم اهدافهم فلا يقفون على معانى الحياة
الهامة !!

وفى أثناء إقامتى بباريس ، تكشف لى خطأ نظرية « التقدم العام » بسبب
ما رأيته مرة من تنفيذ حكم بالأعدام - فعندما رأيت رأس المسكين تنفصل
عن جسده ، وعندما سمعت صوت هذه الرأس وهذا الجسد وهما يهويان
فى صندوق خاص أعد لهما ، أدركت أنه لا معنى من معانى الحكمة
أيا كانت ، يمكن أن تبرر هذا العمل الوحشى الفظيع . . . إنه لو أجمعت
كل كلمة كل أبناء البشر منذ الخليقة حتى الآن على عدالته ، ومهما قيل لى من
دفاع ونظريات بضرورته ، فانى لأستطيع أبداً أن أقنع به... لقد عرفت

وتيقنت من اعماق نفسى وقلبي وعقلي ، أن عقوبة الاعدام هى عمل شرير
فظيح . . . عمل مزعج وحشى دنىء

ثم تعلت على الأثر، حكمة عظيمة فائقة ، تتناقض تماما مع نظرية « التقدم
العام » وهى أنه يجب على أن أحكم على الخير والشر والصواب والخطأ ،
لأبما قاله الناس ولا بما فعله ويفعله الناس ، ولا بما أقروه من نظريات أو
آراء يدعونها لخير الانسانية ورقبها ومدنيتها، ولكن بما أحسه أنا إحساسا
صادقا نزيها ، عفو خاطرى وعفو قلبى .

وهناك أمر آخر خطير زعزع إيمانى بقصور نظرية « الرقى العام » فقد
مرض أخى العزيز ومات فى مستقبل عمره ، واحتمل آلام المرض عاما
كاملا ، ولكنه مات من غير أن يستطع أن يفهم لماذا عاش ؟ ...

لم تستطع نظريات السادة الكتاب أن تحل له المسائل والمشاكل الخاصة
بالحياة وبالموت - لم يقتنع هو ولم أقنعع أنا أيضا طول مدة مرضه وآلامه
بأى رأى من الآراء يضئ لنا معنى الموت والمرض والألم ، أو يكشف
لنا عن الغاية من الحياة ، أو عن مصيرنا بعد الموت . . .

على أن هذه الحوادث التى عملت على تخلخل عقيدتى فى نظرية « التقدم
العام » كانت قليلة ، وحدثت فى فترات متباعدة ، فظلت متمسكا بها
سائرا بمقتضاها ، أبررها بالعبرة الآتية التى كنت أرددها بينى وبين
نفسى :-

« كل شئ ينمو ، وكل شئ يتطور ويتغير ، وأنا نفسى فى كل يوم أنمو
وأتغير ، وسيأتى اليوم الذى أدرك فيه أنا وغيرى شريعة هذا النمو ونتيجة
هذه الحياة ومصير الفرد بعدها ... »

عدت من أوروبا إلى روسيا ولكنى لم أقم فى هذه المرة فى المدن بل
عشت فى الريف بين الفلاحين والفقراء ، وأنشأت المدارس والمزارع

لتعليمهم ، ولقد أحبت هذا العمل وأعزته لأنه كان بعيداً عن الادعاء الكاذب والوهم الفارغ ، الذى يلزم فى المدن الانسان المشتغل بالكتابة والتأليف ، والذى يلقب عادة « بالأساذالكبير » ١ ، « والكاتب العظيم » ١ . ولكنى كنت أثناء عملى هذا فى الريف لا أزال أقوم به على أساس نظرية « التقدم العام » .

وفى هذه المرحلة كنت قد بدأت أبحث بالدقة وبروح الفحص معنى التقدم فقلت فى نفس : - إن التقدم الحقيقى لآى أنسان ، لا بدله أولاً من العقل ومن الحرية ، فأنشأت للفلاحين المدارس ، ثم وجدت أنه يجب أن يعتقدوا هم وأبناؤهم من الرق ، فعملت على ذلك ونجحت .

وحاولت أنا أن أعلمهم ، ولكنى أقول بصراحة بأنى إلى هذا الوقت كنت لا أزال أحاول أن أحل قضية لاجل لها وهى « كيف أعلم غيرى وأنا نفسى أجهل معنى حياتى الشخصية ، وأجهل مصيرى وأجهل هدفى ١١ وإنى لازلت أخجل عندما أذكر الطرق العديدة الماضية الخادعة التى لجأت إليها لتعليم الناس

وبعد أن قضيت عاماً كاملاً فى إدارة هذه المدارس الريفية ، ذهبت ثانية إلى أوروبا لأزداد علماً ، ولأنزودثقافة أغزر وأكثر ، وبعد وقت معقول ودراسات وأبحاث وافية ، ظننت أنى وصلت إلى هدفى ، فعدت إلى روسيا فى نفس العام الذى منح فيه الفلاحون حريتهم ، متسلحاً بمعلوماتى الحكيمة الجديدة ، لأعلم الناس وعينت قاضياً للبلدة فبذلت جهدى فى القضاء ، وعمدت إلى تعليم الأميين بواسطة المدارس الأولية ، وإلى تثقيف المتعلمين بواسطة صحيفة أصدرتها ، وسار على هذا سيراً ناجحاً موفقاً ، ولكنى أحسست فى آخر الأمر أن حالتى العقلية أصبحت غير طبيعية وغير هادئة ، وأدركت أن تغييراً فجائياً لابد سيطرأ

على ، وإني الآن أرجح أن موجة اليأس الهائلة ، التي طغت على نفسي بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، كان يمكن أن يتأخى الآن ، لولا ذلك الحادث العظيم الذي أنجاني منها وهو حادث زواجي سنة ١٨٦٢ .

أما قبل الزواج فقد مضى العام الأخير وأنا مرهق طول ساعات اليوم بأعمالي في المدارس وفي تحرير صحيفتي وفي القضاء ، وظل هذا الحال يثقل كاهلي حتى كدت أموت ، فسكرت عملي ونظرت إليه كأنه ألد أعدائي وشعرت بمرض عقلي يزعجني فهجرت في الحال كل أعمالي ، ورحلت إلى سهول « باشكير » الواسعة — وبعد فترة استجمام وراحة عدت من هذه السهول ، ثم تزوجت ، فقادتني السعادة التي وجدتها في حياتي الزوجية إلى التخلص من التفكير العميق ومن السعي وراء البحث عن معاني الحياة ، لأنني وجهت كل عنايتي إلى زوجتي وإلى أولادي وإلى إنماء موارد من أجلهم ومن أجل ، ولقد كان ذلك نوعاً آخر من الأناية لأن غايته وإن لم تكن « أنا » فإنها أصبحت « نحن » .

وهكذا ترى أن شوقي الأول وحنيني الأول وهدفي الأول إلى كمال الشخصى ، قد تحول بعد ذلك إلى الاندماج في مايسمونه « بالمدينة العامة ، أو « التقدم العام » ، ثم تحول بعد ذلك إلى السعي وراء خدمة وإسعاد أسرتي الصغيرة وحدها مدة خمس عشرة سنة .

ومع أنى كنت في هذه المدة أنظر إلى عمل الكاتب والمؤلف نظرة صغيرة تافهة ، إلا أنى ظللت مواظباً عليه ، لأنى وجدت فيه فضلاً من المال والشهرة خصوصاً إذا نالت كتي رضاء العامة والجمهير ، فأعرضت عن البحث كلية في حقيقة حياتي الفردية وفي الغاية من الحياة الانسانية، وعانيت في جميع كتاباتي باظهار أن أهداف الحياة تنحصر فقط في السعي إلى سعادة أشخاصنا وسعادة أولادنا لا أكثر ولا أقل .

هكذا عشت لمدة خمس عشرة سنة ، ولسكنى منذ خمس سنوات (أى حوالى سنة ١٨٧٤) اضطربت حياتى اضطراباً عنيفاً ، واهتزت هزة قوية ، وأخذ القلق يسود على واليأس يتقاذفنى ، فإذا بحياتى واقفة راكدة ، ونفسى هائمة حائرة ، لا أعرف كيف أعيش ؟ ولا لماذا أقضى أيامى ؟ ، ولا ماذا أعمل ؟ ولا ماذا أحب ؟ ولا ماذا أرجو ؟ حتى وصلت أخيراً إلى حالة من الهبوط الروحى شديدة فظيعة ...

ولسكنى انتصرت على كل هذا ، فعادت حياتى إلى صفائها بعض الوقت ، غير أنى سرعان ما عدت إلى ما كنت فيه من شقاء وبأس وحيرة ، فحاولت مرة أخرى أن أبحث عن راحتى وأن أسـتردها . وحاولت أن أجد طمأنينة نفسى ، ولسكنى شبحاً قائماً كان يزعمجنى بالأسئلة الآتية الرابعة :- « لماذا تعيش ؟ ... لماذا تعيش ؟ ... ما الغاية من حياتك ؟ ... »

ظننت فى أول الأمر أن هذه هى أسئلة سخيفة تافهة لا معنى لها ، وأنها على كل حال أسئلة سهلة ، وأنى لا بد واجد الجواب عليها متى أردت ومتى اهتممت .. واعتقدت بأنى وإن لم أعثر فى وقتها على الجواب بسهولة فذلك لأنى كنت مشغولاً بمواضيع أخرى وأبحاث أخرى .

كنت أحاول أن أوّجل البحث وكنت أحاول أن أوّجل الإجابة ، ولسكنى الاسئلة لم تصبر ، وزادت فى الحافها وفى الحاحها — لم تسكت ولم تنقطع ، وظلت تترى على ذهنى مرات كثيرة متوالية ، وظلت تمسك بتلابيى ، وتلاحقنى فى كل مكان ، وأشاعت فى نفسى ضيقاً وقلقاً لا حد لهما

كانت حالتى مثل حالة المريض الذى تظهر عليه فى الأول أعراض خفيفة لا يأبه لها ولا يلقى إليها بالاً ، ثم لا تلبث أن تعاوده المرة بعد المرة

حتى يزداد خطرهما ، ويقوى أمرها ، وإذا بالمريض يحس ويدرك أن المرض لم يكن توقعكاهمينا كما بدا لأول وهلة ، بل هو داء عياء خطر ، يسلبه كل راحته وكل سعادته ، وعندما يعمد الى محاولة ملاقاته يجمد نفسه ضعيفاً عاجزاً أمام عدو خطير يهدده بالموت ...

هذا تماماً هو عين ما حدث لى ، فقد أدركت أن ما يواجهنى من الأسئلة ومن الاضطراب والانزعاج ليس أمراً عارضاً ، لا يؤبه له كما ظننت أولاً ، ولكنه أمر خطير كله جد ، ووجدت أنه لا بد لى من أن أبحث بهمة واجتهاد عن حل للأسئلتى ومشاكلى ، لأنقذ نفسى منها خصوصاً وأنها تسلبنى وتحرمنى هنائى .

فبدأت البحث وحاولت الوصول سريعاً ، ولكنى وجدت أن الأسئلة ليست سهلة ولا بديهية مثل أسئلة الاطفال ، كما تبادر الى ذهنى أولاً ، وليست هى عابثة ولا سخيفة تستحق الإهمال والاعراض عنها ، بل سرعان ما سلطت عقلى عليها ، حتى بدت أنها تمس أهم مشكلة فى الحياة ، وأنها تتناول أعظم الأسرار البشرية ، وأنى عاجز عن الجواب عليها ، رغم كل معلوماتى وأجهد عقلى الطويل .

كنت وأنا مشغول بإدارة أملاكى وتربية أبنائى وبكتابة كتبى أراى مضطراً الى أن أسأل نفسى :-

« ما الذى يدفعنى الى القيام بكل هذه الأعمال ؟ لماذا أقوم بها ؟ »

وحين أدركت أنى غير مستطيع العثور على جواب مرضى قلت لنفسى :-
« لا .. لا يجب اذن أن تقوم بأعمالك ، ولا أن تؤدى واجباتك ، إذ لا خير فيها ... ولا فائدة منها .. بل ولا خير فى وجودك على هذه الأرض ولا فائدة منه »

سم كان يخطر لي ، وأنا قائم أفكر في في تدبير بيتي وأطيانى، التى كان لها المقام الأول في ذلك الوقت السؤال الآتى :-

« عال .. عظيم .. أنا الآن أملك خيرات واسعة — ستة آلاف فداناً فى سمارة ، وخيولاً وعبيداً و . و الخ ولسكن ما الفائدة . ١٩٠ ... » ،
وفىما كنت منصرفاً إلى التأمل فى وسائل تربية أبنائى باحثاً عن خير الوسائل التى تؤدى إلى ترقيتهم ؛ و ترقية الناس عموماً صرخت على الفور :
لماذا ؟ ما الذى يعينى من هذا كله ؟ وماذا يهمنى فيه ؟
وما علاقتى به ؟ وما شأنى فيه ؟

ولما فكرت فى الشهرة التى تغمرنى قلت لنفسى « حسن وجميل . وماذا لو صرت أشهر من جوجول وبوشكين وشكسبير وموليير ؛ ومن أعظم كتاب العالم ؟

— ماذا بعد هذا ؟

— ما أنا ؟ وما مصيرى ؟

لم أجد جواباً يهده من روعى ؛ والاسئلة لسوء الحظ لا تريد الصبر على ، وإن نفسى تطلب منى حالاً جواباً مباشراً وافياً .
وأمر من هذا ، فقد تيقنت بأنى إن لم أصل إلى إجابة تقنعنى ، فإن الحياة ستصبح مستحيلة على حتماً ..

أين ؟ ... أين الجواب ؟ ... أين أجده ؟ ... لم أدر ...

أحسست ان الأرض تميد تحتى ، وليس فيها شيء ثابت أعتمد عليه ،
وانتهى بى الأمر إلى أنى شعرت بأن ما عشت لأجله حتى الآن كان
« لاشيء .. » « لاشيء .. »

فلم يبق إذاً لحياى من سبب أو معنى ، ويجب أن أموت ... إن الحياة
هى « لاشيء .. »

حقيقة أنى كنت قادراً أن أتففس ، وأن آكل وأن أشرب ، وأن أسير على أقدامى ، وأن أنام فى فراشى ، وأنسى فى الواقع كنت أودى كل هذه الأعمال ، كما تودى الآلات السماء سر كاتها ، لأن الروح التى كانت تنعش آمالى وتحى فى رجائى قد فارقتى وهجرتنى

لم أعد أحس بأمنية واحدة تستحق أن أسمى إليها ، وكنت كلما رغبت فى غرض ما ، شعرت مقدما بأن تحقيقه أو عدمه سيمان لى ، وأن جميع المشتبهات ليست سوى أوهام باطلة ، ولو أن ملاكا ظهر لى لينجنى كل مبتغيات نفسى لما عرفت ما اطلبه منه

أما الحقيقة التى كانت لا تقبل نقضاً فى نظرى فكانت : إن الحياة كلها باطلة لامعنى لها ، وإن كل خطوة أخطوها كانت تدنينى من شعورى المزعج بأن ليس أمامى سوى هلاك وخراب ، ودمار ويأس ...
لئن أتقدم للأمام خطوة كان مستحيلا ... ولئن أعود للوراء خطوة كان أيضا مستحيلا ... ولئن أغضض عيني لى لا أرى ، ولا أفكر فى ما يتمثل أمامى ما آلام الحياة المختلفة والموت المؤكد وما بعده من الفناء المطلق كان أيضا مستحيلا

أنا ... أنا الفتى المحظوظ السعيد ... أنا القوى الجسم الصحيح العقل ، أصبحت خائفاً ... خائفاً من الحياة ، وأصبحت شقياً تعيشاً بائساً ، لأن قوة جبارة عنيفة جرفتني إلى اليأس ، وألقت بى بعيداً عن موكب الحياة ، وكانت هذه القوة اعظم وأعم من قوة أية رغبة دنيوية ، يمكن أن تجول بخاطرى لا أقاوم بها هذا اليأس ...

لهذا فقد رغبت من كل قلبى أن أموت ، فبينما كان أولاً حى للجهاد فى سبيل الوصول إلى كمال حياتى الشخصية ، هو رفيق آمالى وأحلامى ، فقد أصبح اليوم «الموت» هو من منع رجائى ودعائى ... كانت فكرة الانتحار

تهددنى بين يوم وآخر ، أو قل بين ساعة وأخرى ، وكانت فكرة جذابة خطيرة ، ولم يحملنى على التردد فى تنفيذها ، سوى أنى أردت من كل قلبى أن أزيل أولاً هذا الغموض وهذا الإبهام والتناقض والخلط الذى يملأ رأسى ، وأردت أن أستخدم أولاً كل قوى نفسى لأكتشف الآراء السديدة الحكيمة الواضحة ، عساهما تخرجنى من هذه الظلمات

أنا الرجل المغبوط ، كنت أخفى عن عيني حبلا ، كان معلقاً قريباً من المكان الذى كنت أدخل فيه ملابسى ، لئلا يغربنى أن أشبق نفسى به ! ثم خفت الصيد لأنى خشيت أن أجد فى البندقية وسيلة سهلة للقضاء على حياتى ! ولسكنى فى وسط هذا كله ، كنت أحس أحياناً فى أعماقى بحنين جميل خفى إلى شىء ... شىء عظيم سام ... شىء محبب إلى قلبى ... ولكنى لم اعرف ماهو ؟ ، ولا ما كنهه بالضبط ؟ ...

تلك كانت حالتى فى وقت كان كل ماحولى من الظروف يبعث على السعادة ، فلم أكن قد بلغت سن الخمسين بعد ، وكانت لى زوجة طيبة أحبها وتحببى ، وكان لى أولاد أعزاء على نفسى ، وكنت واسع الثراء والجاه ، أملك الأراضى الشاسعة التى كانت غلتها تزداد وتتمو بغير أى تعب ، وأملك العبيد والخيل وسائر المقتنيات .

كنت محترماً معظماً من أصدقائى ، ومن كل الناس ، الذين كانوا يصفون على الشاء والحمد والاعجاب ، ففزت بشهرة لم أحلم بأكثر منها فى كل العالم .

وفوق كل هذا ، فقد كان عقلى سليماً ، وكنت متمتعاً بوافر الصحة مما لم يتوافر لغيرى من زملائى ، فسكنت أستطيع أن أعمل عملاً جسمانياً كأقوى الحصادين ، وأن أعمل بفسكرى وأنا جالس على مكتبى ثمان ساعات أو عشر بغير انقطاع أو ملل .

« إن حياتي كانت في رأي أضحوخة بليدة ، ولعبة شريرة خبيثة ،
فرضت علي فرضا بمشيئة كائن جهار لم اعرفه ، ورغم أني لم أحط بعد
بهذا الكائن الذي يقولون عنه أنه قد خلقني ، فإن النتيجة التي وصلت اليها -
والتي ظهرت لي أنها أصدق النتائج وأكثرها انطباقا على العقل والطبيعة - هي
أن هذا الكائن الخفي الذي خلق الناس ، لم يخلقهم إلا ليلهو بوجودهم
ويعبث بهم ، بغير تعقل ولا حكمة ولا رافة من جانبه ... »

لقد لازمتني هذه الفكرة وسيطرت على كل السيطرة ، فلم أستطع
إلا ان أوكد بان في الوجود كائنا ما ، يراقب حياتي على الأرض ،
ويراقب أعمالي فيها ، ولكن ليتفرج على كل ذلك ويسخر مني ، ويتسلى
ويلهو على حسابي أنا ، وحساب غيري من خلائقه ...

وصلت الخمسين من عمري ، وقضيت أيامي في الدرس والبحث ،
ووصلت إلى القمة في المعرفة والنضوج العقلي ، وإدراك الحياة ، ومع ذلك
فلم أجد في الحياة شيئا نعيش من أجله ، ولا رجاء لنا يعمر قلوبنا ويهون
علينا مصائبنا وآلامنا

قلت : كيف استطاع البشر أن يخلقوا أذهانهم عن هذا كله الذي يملأ
اليوم ذهني ؟... وكيف استطاعوا أن يعيشوا للآن ؟ ؟ ؟...
أنا أفهم أن الحياة ممكنة جائزة لمن كان ثملا بخمرها ولهوها ، أما
الآن وقد صحوت ووعيت فاني غير واجد فيها سوى الألم والشر ، وغير
واجد فيها عزاء أو راحة أو أملا ، وحقا إنه قد يوجد عليها من يسكر
بخمرها أحيانا نادرة ، ولكنه سرعان ما يتنبه ويفيق حتى يدرك من
جديد أنها فراغ ووهم وخداع

لماذا نعيش ؟

جاء في إحدى القصص الشرقية القديمة ، أن وحشاً برياً مفترساً كان يطارد شخصاً ، فوجد في طريقه برأ غالياً من الماء فلبجأ إليه ، ولكن لسوء حظّه وجد في قاعه تيناً كبيراً فاغراً فاه مستعداً أن يبتلعه ، فأخذ الرعب والوجل بقلب الرجل ، ولم يستطع الخروج ، خوفاً من الوحش أن يفترسه ، ولم يستطع النزول خوفاً أن يمزقه التين ، ونظر فوجد غصناً من شجرة ثابتاً في سائط من حرائط البئر ، فتعلق به ، ولكنه بعد قليل أحس بالكلال والتعب في ذراعيه ، فأدرك أنه لا محالة هالك ، وأن الموت لا بد من ربه له فوق البئر أو في قاعه ، ولكنه ظل متعلقاً بفرع الشجرة ، وفيما هو ينظر إذ رأى جرذين (فأرين) أحدهما أبيض والآخر أسود يقربان جذع هذا الغصن ، فتيقن أنه حتماً ساقط ، وأنه حتماً هابط إلى فم التين ، الذي كان يترقبه بفارغ الصبر ، ولكن المسكين نظر في الوقت نفسه فرأى بضع نقط من العسل على أوراق الغصن ، فمد لسانه وأخذ ينحسها متأسياً هذا المصير المزعج ...

هكذا كنت أتعلق أنا بغصن شجرة الحياة ، عارفاً أن تين الموت ينتظرني في آخرها ، وهو على أهبة الاستعداد في كل وقت ليمزقني إرباً إرباً ، وكنت كهذا المسافر ألهو أحياناً بامتصاص بعض نقط العسل ، التي تعرض لي أثناء حياتي ، متأسياً مصيرى !! ..

لقد رأيت الجرذين وهما الليل والنهار ، يعملان بهمة في قرض شجرة حياتي ، ولقد أبصرت التين واضحاً متمثلاً ، ولم أستطع الهرب منه إن هذه القصة لم تكن في نظري واعتباري أقصوصة خرافية ، بل كانت هي هي حياتي بعينها وبحقيقتها .

إن المسرات والأفراح والشهوات التي كانت تحجب عني منظر الموت لم تعد قادرة أن تخفيه .

لقد فقد العسل حلاوته ...

« الموت » ... « الموت » ... هو مصيرى المؤكد

أمام هذه المتاعب الفكرية القاسية ، التى حطمت نفسى وأعصابى ، حاولت أن أقنع ذاتى بأنى عاجز عاجزاً مطلقاً عن إدراك معنى الحياة ، وأنه لا فائدة من السعى وراء تلك المسائل العريضة الشائكة ، وحاولت أن لا أعود الى التفكير فيها ، ولسكنى لم أستطع أبدا الخضوع لهذا العجز ، الذى عشت طويلاً متمرداً عليه ، وقد أصبحت فى نفس الوقت غير قادر أن أغضض عيني قط عن رؤية الأيام والليالى تسير بى فى عجلة وسرعة الى هاوية الموت الذى لا سلطان لى عليه

إن نقطتى العسل الكبيرتين ، اللتين حجبتا عني هذه الحقيقة فى وقت ما ، واللتين كان لهما من القوة والاثر أكثر من غيرهما ، كانتا هما « محبتى لاسرقى ومحبتى للكتابة (الفن ١) » ، ولكن لم يعد اليوم لهما نفوذ على قلبى ، لان ما فيهما من حلاوة قد أصبح مرأً علقماً ...

أما عن أسرقى فقد كنت أقول لنفسى « أفراد أسرقى . من هم ؟ اليسوا هم زوجتى وأولادى ؟ أليست حياتهم مثل حياتى ؟ لماذا هم يعيشون ؟ ما الغاية من حياتهم ؟ إما أنهم سيقضون أيامهم فى الكذب والنفاق والوهم ويعجزون عن العثور على الحقيقة ، وإما أنهم سيقفون عليها ، فيجدونها كما وجدتها أنا حقيقة مرعبة مزعجة كلها يأس ثم لماذا احبهم ، ولماذا اسعى الى تشقيفهم وتربيتهم ، وأعنى بكافة أمورهم ؟ ... ألكى أصل بهم فى النهاية الى هذا اليأس والبؤس الذى أنا غارق فيه الآن ؟ ... أم لأضيف الى جيوش الجهلة فى العالم عدداً آخر ؟ ... ثم هل أستطيع وأنا احبهم ، أن أتجاهل الحقيقة التى اقتنعت بها بأن كل

خطوة يخطونها في طريق المعرفة ، إنما تدنيهم من اليأس والموت
والفناء ١٩.....

أما « الفن والشعر ١١ » فرغم وثوقي بأن عوامل الفناء ستقضى على
حياتي وعلى كتاباتي كلها بما تحمله من ذكريات ومعان وفن ، إلا أن ما
أصبت به في الكتاب به من نجاح وزهو وإطراء ، كان يدفعني دائماً إلى المواظبة
عليها والتمسك بها ، أما اليوم فقد انفتحت عيناى لأرى أن هذا الفن هو
أيضا وهم باطل ، ولادرك أنى غير مستطيع أن أضع خيرا في كتابتي ، بعد
أن فقدت الحياة سحرها في قلبي

كان إحساسى الأول بأن لحياتى أى هدف ما ، ولو كان خاطئا أو
فارغاً أو سخيفاً ، يعمل على سرورى وعلى بهجتى وعلى تسليتى ، وكان كل
ما فى الحياة من جميل وقبيح ، ومن مخيف ، ومريح ، يعزىنى أو يسلىنى
أو يلهينى ، أما وقد هالنى بعدئذ أن أرى الحياة شبحاً مزعجاً ، وأنها
خلو من المعانى والأهداف الحقيقية ، فقد فقدت كل لذاتى الماضية وهجرت
مسراتى وجميع سلوكياتى ...

ولو وقف الأمر عند هذا الحال ، ووثقت بأن هذا هو نهاية الأمر
كله ولا شىء بعده ، ولا رجاء فى الوصول إلى أكثر منه ، لكان الأثر
أقل ثقلا ، ولقلت لنفسى فى بعض المرات ، بأن هذا هو كل قسمتى وكل
نصيبى من الحياة ... ولو أنى كنت كهذا الرجل الذى يعيش فى غابة يعرف
حدودها وغايتها ، لكانت الحياة أخف نوعا .

ولكنى كنت كهذا الانسان ، الذى ضل فى مسيره فى غابة فسيحة الأرجاء
واسعة المدى لا حد لها ، فامتلا بالخوف قلبه ، وظل يضرب فى الأرض
على غير هدى ، يمينا وشمالا ، ومع أن الخطوة الواحدة كانت قد تزيد

من ضلاله ، إلا أنه كان يرى نفسه مضطراً أن يسير ، وأن يواصل
السير بأقصى سرعة في أى اتجاه ، عساه ينجو من تيهه ويجد طريقه ...
كان هذا هو حالى فى تلك الأيام السود ، ولكى أنقذ نفسى منها ، كنت
فى كل وقت راعباً فى الانتحار ، لولا أنى شعرت بانزعاج آخر هائل من
جراء ماقد ينتظرنى بعد الموت وخفت أن يكون الحال أكثر هولاً
وأكثره ظلاماً

ومع ذلك فإن صبرى على الحياة كاد ينفذ



عدت وتساءلت : - ألا يمكن أن أكون ساهياً عن شيء ما ؟ ...

ألا يجوز أن أكون قد ضللت في فهم شيء ما ... ؟

ألا يجوز أني جهلت أسراً من الأمور ؟ ...

ألا يجوز أن تكون حالة اليأس التي أنا فيها هي حالة كل الناس ؟ ...

من أجل هذا أخذت أعيد البحث في كل فرع من العلوم البشرية ، على
اصل إلى حل لتلك المسائل الخطيرة التي عذبتني ... بحثت طويلاً .. بحثت
في ، ألم وفي صبر ... ليس لمجرد حب الاستطلاع وقتل الوقت - لم أبحث
بحث البليد السكسلان ... ولكنني بشغف وهمة كنت أسعى ... وفي نضال
ومرار كنت أجد .. ليلاً ونهاراً كنت أفكر وأتأمل .. نشدت المعرفة كما
ينشد الرجل الذي على وشك الهلاك ، طريقه لإنقاذ نفسه

ولكنني لم أجد شيئاً ، ولم أعرف شيئاً . . .

كان يحول في خاطري أحياناً ، حين كنت أقرأ وأبحث أن العلم والمادة
لادخل لهما في حل قضايا الحياة ، ولكنني ما اقتنعت بهذا ، لأنني كنت
أخشى أن أكون قد ضللت في نقطة من نقط البحث الهامة ، ولأنني كنت
أظن أن العيب ليس في العلم ، ولا في قصور الأجوبة التي كانت تخطر لي ،
أو في الأسئلة التي كنت أقدمها لنفسي ، بل ظننت أن العيب كله كان
كائنًا في أنا ، وفي جهلي أنا ، ولهذا ظللت عاكفاً على دراستي وعلى تأملاتي
العميقة ، أتدلل أمام المعرفة لتجود على بالحلول أو بالأجوبة ولكنها
لم تجد ...

لم أستطع أبداً التغاضي عن هذه الأسئلة ، لأنها لم تكن أبداً سخيفة ولا
ساخرة ، بل أن أعظم الحكمة البشرية تتوق إلى الوصول فيها إلى حل ...

واصلت جهادى للاسترشاد ، وأفرغت كل جمعيتى فى دراسة جميع أنواع العلوم ، ولكنى عبثاً حاولت

إن هذا السؤال « لماذا أعيش ؟ » الذى خطرت لى وأنا فى الخمسين ، هو فى الواقع سؤال طبيعى عادى ، وهو قائم فى نفوس جميع البشر ، يتردد على ذهن الطفل الصغير ، كما يتردد على ذهن الرجل الحكيم ، لأن الحياة تصبح مستحيلة بغير حله .

كل انسان يتساءل مثلى :-

— ما مصير هذا الذى اعلمه اليوم أو ما سأتعلمه فى الغد ؟؟ ...

— ما مصير حياتى كلها ؟؟ ...

— لماذا يجب أن أعيش فى هذه الدنيا ؟؟ ...

— لماذا تبقى وتوجد فى نفسى هذه الرغبات الوفيرة التى أحبها ؟؟ ...

— لماذا يجب أن أقوم بعمل كذا وكذا ؟؟ ...

— هل لحياتى من معنى يعجز عن القضاء عليه ، هذا الموت الذى يتربص

لى فى كل وقت بفارغ الصبر ؟؟ ...

وكننت فى فجر شبانى راضيا قانعا بالإجابات التقليدية المبهمة المصطنعة فكنت أقنع بالقول مثلا : — « إن كل شئ ينمو ويتغير ويتعرض للنقص والكمال ، ولهذا النمو وهذا التغير قوانين ثابتة عامة ، وما دمت أنا جزء من هذا السكل ، فتى وقفت على قوانين التطور والنمو ، فأتى لاشك واصل إلى إداراك مكانى من هذا الكل ، وإلى معرفة نفسى وحالى ومصيرى .. » وما كان يزيد فى قيمة هذا رأى عندى ، أنى أنا نفسى كنت أنمو ، فكانت عضلاتى تقوى وتكبر ، وكانت ذاكرتى تتحسن وتتسع ، وكانت كل قواى الفكرية تتقدم كل يوم ، فظننت أن شريعة نموى هذه هى شريعة الوجود كله ، وأنها قد تدير لى الأمر فيما بعد ، ولكن جاء

الوقت الذى وقف فيه هذا النمو ، فقد ضعفت عضلاتى ، ووهن فى الكثير من أعضاء جسدى ، وبدأت أسناني وأضراسى تسقط ، فأدركت بعد البحث الدقيق ، أنه من المستحيل أن يوجد فى العالم نمو دائم عام ، يدني إلى معرفة سر الحياة — لهذا لم أرتح إلى الاجابات الماضية ، وحاولت البحث من جديد .

كنت أميل فى عهد الشباب إلى دراسة العلوم المجردة « البحث عما وراء الطبيعة » وكذلك الرياضيات والعلوم الطبيعية التى فتننى بسحرها ، فسعيت اليها بكل شغف انشيز الاجابة ؛ ولكنى وجدتها تعجز عجزاً مطلقاً ، وتزداد غموضاً وإبهاماً وتعقيداً ؛ وتفقد ما فيها من السحر والروعة والعظمة والفائدة ، التى تتكشف عنها غالباً كلما عاجلت امراً آخرأ من الأمور المادية .

وإذا نظرنا مثلاً إلى العلوم التى حاولت فعلاً ان تجيب على سؤالى ، مثل علم دروس أعضاء الجسم ووظائفها والنفس وانفعالاتها ؛ والحياة ونشؤها ، والاجتماعيات وتطورها وشرائعها ، وجدنا القصور والغموض والابهام ، ووجدنا جدباً فكرياً شديداً ، ووجدنا الادعاء الكاذب والتناقض البين بين المشتغلين بهذه العلوم وبين انفسهم .

وإذا نظرنا إلى العلوم المبنية على الرياضيات ، فاننا نجدها تعرض عن الاجابة على مثل هذه المسائل وتتجاهلها ، ولا تعنى بقضايا الحياة ذاتها ولسكنها تعنى كل العناية بالمسائل العلمية المحض ، فتخرج لنا نتائجاً باهرة هائلة ، تدل على الذكاء البشرى الهائل وعظمة العقل الانسانى الرائع .

أما فى دائرة العلوم النظرية ، فكنت اعتقد بمبادئ الانسانية العامة التى تظهر فى بعض مظاهر الدين والعلم والفن وسائر النظم الاجتماعية والحكومية ، وكنت أظن أن هذه المبادئ ستسمو شيئاً فشيئاً ، ودرجة فدرجة ؛ وأن هذه الانسانية ستزهر جيلاً بعد جيل ، حتى يصل الانسان

عن طريقها الى رقى حياته الشخصية

قلت : - « بما انى عضو فى الهيئة الاجتماعية البشرية ، وجزء من هذه الانسانية العامة ، فعلى أن أندفع فيها وأن أسير فى موكبها ، وأن أقوم بنصبي فى إنشائها وفى تعميمها ، لانها ستؤدى فى النهاية الى ترقيتى والرفعة بنفسى وبشخصى .. »

واعترف بكل أمانة ، أنى آمنت فى عهدي الماضى بهذه « الانسانية العامة » وكان لى فى هذا الشأن مبادئ عزيزة ، كنت أكيف بها أفكارى وقتئذ ، وطالما حاولت أن أولف من هذا التفكير ومن هذه المبادئ نظريات خاصة .

كنت أَرْضَى بهذه الأفكار العامة القائمة غير المباشرة ولا المحدودة ، أيام أن كنت ضعيف العقل والفهم ، ولكن عندما واجهنى سؤال المباشرة عن قضية حياتى أنا الشخصية وعن سرها وعلتها ومصيرها ، لم أقنع بما يسمونه « الانسانية العامة » لأنى فهمت أن فى تعميمها ، وعدم تطبيقها على حياتى الشخصية هو سفسطه فارغة .

ووجدت أن المتمسكين بها لا يستطيعون مهما جاهدوا إلا أن يفهموا جزءاً صغيراً جداً من الانسانية ، ومع ذلك هم فى غرور يجعلون منه نتائج عامة هائلة ومبادئ إنسانية شاملة واسعة !!

هذا علاوة على التناقض العجيب بينهم على هذه الانسانية الهائلة وعلى

تحديد مبانيها ومعانيها ...

وأعجب ما فى الامر ، أنهم يطلبون منك ان تهمل نفسك ، وهى أعز ما تملك ؛ ولا تهتم بأمرها ، ولا تحفل بحياتك الشخصية ، وأن لاتسأل أو تهيب من أنا ؟ ... ولا لماذا أحيا ؟ ... ولا ماذا يجب أن أعمل ؟ ... بل أن تدرس وتظل تدرس الانسانية العامة من أولها إلى آخرها بسائر ما يتخللها !! ...

هذا هو منتهى السخف ، لاننا لن نصل من ذلك إلا الى العجز المطلق والجهل المانع . إذ أننا لن نعرف مهبنا عرفنا سوى القليل التافه ، لأن زمنى وزمنك وزمن أى انسان قصير محدود ، والموت لن يمهنا حتى نستطيع أن نتعرف كل نواحي هذه الانسانية الشامة الجامعة !!

إذا فقد فشلت العلوم الطبيعية والعلوم النظرية على السواء ، فى هدايتى ، وضلت فى السبل فى سائر المعارف البشرية ، فلم اجد حاجتى لا فى نور العلوم الرياضية التى كانت كل سبلها مفتوحة امامى ، ولا فى ظلام الفلسفة الدامس ، الذى كان يسير فى من سىء إلى أسوأ ، إلى أن ثبت لى قطعاً أنه لا يوجد ، ولن يوجد شىء فى الحياة مما أبحث عنه ، ولا يوجد أى جواب على سؤالى

جلت فى حقول العلم كلها ، وكلما كانت تتسع أمامى آفاقه ، وتتضح لى نتائجه ، وتتعاظم فتنته وقوته ، كلما وجدت نفسى غارقاً فى الجهل ، وكلما تعمقت فى الاطلاع على اسرار العلوم ، والوصول إلى دقائقها ، كلما وجدت نفسى فى آخر الأمر قاصراً عن إدراك الاجابة على سؤالى

كل ما وصلت اليه كان :-

— « ما معنى حياتى » ؟ ...

— « لا معنى لها » ...

— « ما مصير هذه الحياة » ؟ ...

— « لاشىء » ...

— « لماذا يوجد فى الوجود كل ما هو موجود ؟ » ...

— « لأنه موجود » ...

هذا هو اقصى ما وصلت اليه فى أبحاثى

عندما كنت مقبلا على درس أحد فروع العلوم الطبيعية ، وصلت إلى نتائج دقيقة في أمور هامة ، لم تخطر لي على بال ، مثل التركيب الكيميائي للمواد التي تتألف منها النجوم ، ومثل حركة الشمس حول برج هيرقل ، ومثل أصل أنواع الأحياء التي منها الإنسان ، ومثل الذرات الصغيرة التي يتكون منها الاثير ، أما عن حياقي الشخصية فالاجابة العلمية التي كانت تعرض لي فهي :-

« أنت اتحاد مؤقت من الذرات المختلفة ، تجمع بيتها الحركة المشتركة ، وإن مجموعة هذه الذرات هي حياتك ، وهي تستمر وتبقى ما دامت هذه الحركة قائمة ، ومتى هدأت وسكنت ، وقفت معها الحياة وانتهت ، وبانتهائها سيقضى إلى الأبد عليك ، وعلى كل ما يدور الآن في خلدك ، أو ما يشغل بالك - أنت كتلة اثتلفت اجزاؤها المجهولة بعضها مع بعض بطريق الصدفة ، وهذه الكتلة تتجدد بين آن وآخر ، ويطلق عليها الناس اسم « الحياة » ، ولكن هذا التجديد لا بد ان يقف يوما ما ، ولا بد أن هذه الكتلة تتلاشى وتزول إلى الأبد ، وتزول معها كل أفكارك وكل أبحاثك وكل شكوكك ، هذا هو أحد الأجوبة التي يعطيها العلم ، ولكنه جواب مرير شنيع ، قضى على كل رجاء قلبي ، وقضى على جميع آمالي ، لاني فهمت منه أن حياقي لا هدف لها ولا معنى فيها ، ولا قيمة لها ، وأنها قطعة من لحم وعظم ستتلاشى وتفتى بعد زمن قصير ! ! ! ! !

أن العلماء لا يعنون بكال الحياة الشخصية ، ولا يدلونا على الهدف الذي نسعى اليه ونريده من وراء هذا التقدم ... لماذا نسعى الى هذا التقدم ؟

هم لا يحسبون ...

اني لأعترف أن للعلوم روعة وعظمة ، تدل على تفوق العقل البشري تفوقا عجيبا ، وتدل على سمو الخيال والتصور ، ولكنها جميعا سواء في

العجز والتصور ، حين تتعرض لمثل الحاثي ، لأنها تقع في خارج نطاقها .
من جميع ما تقدم رأيت في «ضريح أن الفلاسفة الذين لا يعينهم
المنافع أو الخسائر المادية ، والذين يقررون الحق والصدق ، لا يستطيعون
بالأسف إلا أن يجيبوا كما أجاب «سقراط» و«شوبنهاور» و«سليمان الحكيم»
وبوذا .

أما سقراط فقد قال وهو يستعد للموت : - « نحن نقرب من الحق
كلما بعدنا عن الحياة ... انه خير لنا أن نبتعد عن الحياة ، وأن نسعى
الى الموت ، وأن نطلبه ونحبه ، لكي نتحرر من هذا الجسد وآلام هذه الحياة
وكذبها » - إن هذا الحكيم كان ينشد الموت في كل وقت ويكره الحياة
أما شوبنهاور فيقول : -

« ان أساس كل ما هو موجود في الحياة هو « ارادة الانسان ، في
شئ منافع الحياة ، وفي جميع مظاهر الوجود ، سواء كانت من عمل
قوات الطبيعة غير العاقلة ، أو كانت من عمل الانسان العاقل ، ولا نستطيع
أن نرى أثراً لقوة أخرى غير قوة الارادة ، فان زالت هذه القوة ، زالت
كل هذه المظاهر ، فان جميع الجهود وجميع العواطف تنتهى بانتهاء هذه
الارادة ، وأن جميع ما في العالم من كائنات حية أو غير حية ، يزول ويموت
ويندثر عندما تموت هذه الارادة ، التي تريد كل هذه الأشياء وتحبها وترغب
في التمتع بها - العالم كله يصبح لا شئ عندما نموت وعندما تصبح الارادة
لا شئ

ولكن هذا المصير الى العدم ، حين نشعر أنه لا يرضينا ، وأنه
يتعارض مع رغبتنا ، يزيد في قوة تمسكنا بالحياة ، ويدفعنا بقوة الى المحافظة
عليها ، وعلى بقاء هذا العالم الذي نحيا فيه - فكل الوجود اذا في الحقيقة

ليس سوى هذه الرغبة — الرغبة في الحياة والمحافظة عليها — الحياة هي التي تدفعنا الى الخوف من الموت والفناء — ولا تستطيع هذه القوة أن تفسر لنا من أسرار حياتنا أكثر من ذلك ، ولا تستطيع أن تمدنا بمعرفة شيء سوى أنه بعد انتهاء سائر رغباتنا وشهواتنا الكثيرة ، وبعد القضاء الأخير على إرادتنا بالموت ، لا يبقى لحياتنا من أثر ، وكل ما في هذا العالم من شمس وأقمار ومجرات يصبح أيضا لا شيء بعد زوال إرادتنا وحياتنا ، لأن جميع هذه الأشياء كائنة وقائمة وموجودة ، لأننا نحن نشعر أثناء حياتنا بوجودها وقيامها وكونيتها .

فإن متنا ، ومات شعورنا معنا ، فهي غير موجودة وغير كائنة .
إن الحياة تسير على عكس ما يجب أن تكون ، فبدلاً من أن يكون كل ما فيها متجهاً للخير العميم ، فإننا نراه سائراً الى الشر العظيم ... ، نغير لنا أن نهجر الحياة ، وأن نعبرها الى الفناء
فهذا الفيلسوف أيضا يطلب الموت ويسكره الحياة ولا يؤمن بشيء بعد الموت .

أما سليمان الحكيم العبري القديم ، الذي كتب سفر الجامعة في التوراة والذي يلقب نفسه « بالجامعة » أحياناً فقد كتب نفس المعنى فيما يأتي : -
« باطل الأباطيل ، الكل باطل ... ما الفائدة للإنسان من كل تعبته الذي يتعبه تحت الشمس ؟ »

ما كان فهو الذي سيكون ، والذي صنع فهو الذي سيصنع ، فليس تحت الشمس جديد ...

ليس ذكر للأولين الذين سبقوا ولا للذين سيأتون من بعدهم
في كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً
عظمت عملي ، وبنيت لنفسى بيوتاً ، وغرست لها كروماً ، وعملت لها جنات وفراDIS ، وغرست أشجاراً من كل نوع ثمر ، وأقنيت عبيداً

وجواري ، وكانت لى أيضا المواشى قنية وغنم ، أكثر من جميع الملوك الذين كانوا فى « أورشليم » قبلى ...

اتخذت لنفسى مغنين ومغنيات وسائر لذات بنى البشر ، سيدة وسيدات ، فعظمت وازددت أكثر من جميع الذين كانوا قبلى ، وبقيت أيضا حكمتى معى ، ومهما اشتتهه عيناي لم أمسكه عنهما ، ولم أمنع قلبى من كل فرح ... ثم التفت الى كل أعمالى التى عملتها يداى ، وإلى التعب الذى تعبت فى عمله ، فاذا الكل باطل وقبض الريح ، ولا منفعة منه تحت الشمس فى الأيام الآتية كل شىء ينسى ... ، وآسفاه يموت الحكيم كما يموت الجاهل ...

وشر ما يحدث تحت الشمس ، أن حادثة واحدة تحدث للجميع ، للصالح وللشرير ، للطاهر والنجس ، للصديق وللنافق

كل شىء باطل - باطل الأباطيل الكل باطل ١١

ما ما يقوله الحكيم الهندى العظيم فهو يظهر من الحكاية الآتية :

إن « ساكياموفى » الأمير العظيم الوارث لعرش كبير ، وقد منع عنه أن يرى المرض والشيخوخة والموت خرج مرة من قصره للنزهة فى عربته ، وفيما هو سائر ، إذ أبصر شيخا محمداً بظهره ، سقطت أسنانه وتغير شكله ، وحطمت الآيام ، وقضت عليه ، وعلى هيئته السنون ، فعجب الأمير من هذا المنظر الذى لم يره من قبل ، وسأل سائق المركبة عن سبب هذه الحالة المزعجة التى وجد عليها هذا الشيخ فأجابه هى : - « الشيخوخة » يامولاى وهى أمر محتم يصيب كل الأشخاص ، وأن الأمير نفسه لابد أن يصل إليها فى حينها ، فأمره بالعودة إلى قصره حالا ليجد متسعاً من الوقت ، يفكر فيه فى هذا الأمر الجديد المزعج ، فدخل مخدعه حزينا ، وأغلق بابَه وظل وحيداً يفكر ويتأمل

تم خرج مرة أخرى للنزهة، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى وقع بصره على
إنسان مريض، ذوت نضارة وجهه وأظلمت عيناه، يشن ويتألم في سيره،
فدهش الأمير ثانية لأنه لم ير المرض من قبل، وسأل السائق عن سبب
بلاء هذا الرجل فأجابه «إنه» المرض «مصير كل حي، وأنه ضعف
واختلال يطرأ على جميع الأجساد؛ وعلى جميع الأشخاص، وأن الأمير
السعيد نفسه قد يقع فيه، وقد يصل إلى مثل حالة هذا المسكين»، فاعتم
الأمير، وحزن حزناً شديداً، ولم يرد أن يواصل نزهته، وعاد إلى
القصر يفكر ويبحث عن سلام نفسه وينشد عزاءه...

ثم خرج للمرة الثالثة، ولكنه في هذه المرة رأى حالة أخرى جديدة:
رأى قوماً يحملون نعشاً ويسيرون به في الشارع فسأل سائقه: وما هذا
أيضاً؟ فأجابه: «رجل ميت يامولاي» فعاد الأمير يسأل «وماذا تعني
بقولك «رجل ميت»؟ فأجابه السائق «أن الميت هو رجل مثل هذا الشخص
الذي يحملونه أمامك ويسيرون به»، فنزل من عربته مندفعاً إلى الرجال
الذين يحملون الجثة، وأمرهم أن يقفوا، ودنا منها، وكشف عنها الغطاء،
ولما رآها ولا حراك فيها ولا حياة، فسأل: «وماذا سيصير إليه
هذا الرجل الميت؟» فأجابوه بأنه سيدفن حالا في التراب تحت الأرض،
فقال لهم «ولماذا؟» فقالوا له «لأنه لن يحيا فيما بعد، وإن لم يدفن في
التراب فسيخرج منه الدود والعفن»...

فعاد الأمير يسأل:- «وهل هذا هو مصير الناس جميعاً؟... وهل سأصير
أنا أيضاً إلى مثل هذه الحالة؟... وهل سأدفن أنا أيضاً في باطن
الأرض؟... وهل سيصبح جسدي مطعماً للدود ومصدراً للنتن؟...
فقالوا «نعم»، ... فصرخ في السائق مذعوراً منزعجاً:- «عد بي إلى

الدار، فلن أخرج منه بعد اليوم، ولن أحاول الخروج الى عالم فيه «الشيخوخة وفيه المرض وفيه الموت»

لم يجد «ساكياموني» في آخر الأمر، في هذه الحياة سلاماً ولا أماناً ولا طمأنينة، ولا عزاء، بل وجد أن الحياة باظله يائسة، وبذل قصارى جهده وكل قواه وتفكيره، ليتحرر هو وأصدقاؤه منها، وليستأصلوها من جذورها، بحيث لا تعود مرة أخرى بعد الموت كما يعلم جميع حكماء الهند

هكذا وجدت نفسي بعد تجوال الطويل في حقول المعارف البشرية، أقوى شكاً وأكثر يأساً، ولم يكن كل هذا نتيجة ضعف في عقلي، بل بالعكس، كنت أشعر أني أفكر تفكيراً صحيحاً كما فسر أقدم وأحسن المفكرين السابقين، وأنني قد وصلت إلى نفس نتائجهم.

بعد ذلك لم أعد أستطيع أن أخدع نفسي ١١ رأيت أن كل شيء باطل، وأن كل مولود المرأة تعس وشقي — الموت خير من الحياة — الحكيم العاقل هو من يلقي عن كاهله عبء الحياة الثقيل، فيستريح منها إلى الأبد

لم أفشل أنا فقط، ولكنني تيقنت أيضاً أن كل الذين بحثوا من قبلي، فشلوا مثلي، وبلغوا في آخر الأمر، كما بلغت أنا، وكما يبلغ دائماً أهل العلم والعقل، الى الحقيقة الواحدة المتمثلة يأساً، بأن الحياة لا معنى لها

قلت في نفسي :- «إني الآن أصبحت عارفا وملمة بكل ما تستطيع أن تقدمه لي كل العلوم ، ومع ذلك فلم أهتم إلى معنى الحياة ، فلا بد لي من وسيلة أخرى غير العلم والفلسفة .

وتأكد لي أن العجز هو في العلم ذاته ، لا في نفسي ، ووجدت أن العلم هو الذي يخدع ويكذب ، حين يدعى أن في مناله الجواب والحل .

تركت العلم ، وفسكت أن أبحث عن ضالتي في صميم الحياة نفسها ، وفي قلب العالم نفسه ، راجيا أن أوفق إليها فعلا ، عندما أدرس حياة غيري من الناس ، الذين يعيشون حولي ، فشرعت في مراقبة وملاحظة من هم مثلي ، وفي نفس مركزي ووسطي ، لأرى كيف يعيشون ، وكيف يحيون ويتصرفون حيال سؤال هذا الذي حيرني كل هذا الوقت ، والذي جلب على كل هذا اليأس ، فوجدت أنهم بالأسف يهربون منه هروبا ، وأن لهم طرقا أربعة للهرب ، لكي لا يتعرضوا لمثل حالتي المزعجة .

وأول هذه الطرق هو « الجهل » فإن أبناء هذا النوع أكثرهم من الشبان الصغار ومن النساء ، ومن بعض الأثرياء الذين يجهلون قضية الحياة ؛ ولا يعنون بدرسها وفحصها والنظر إليها .

هم لا يدركون الموت ولا يفكرون فيه ، ولا يشعرون بالليل والنهار طول الوقت ، يقرضون بنهم واستمرار غصن الحياة . انهم فقط لاهون مشغولون طوال المدة بلحس العسل الى أجل معين ، لأنهم لا يلبثون أن يكتشفوا رغما عنهم ، ما يشعرهم بالموت وبالأيام تعمل منجلها في غصن حياتهم ...

من أمثال هؤلاء لم أستطع أن أستفد شيئا ، لأنني لم أكن جاهلا بالأمور ، فقد رأيت فعلا الموت ووثقت به ولم أستطع أن أحول ذهني عنه ...
أما الوسيلة الثانية فهي ليست الجهل بل «التجاهل» ، وهي وسيلة أصحاب

الأمزجة الشهوانية والاهواء الجامحة ، وهؤلاء يعرفون ان كل شىء باطل
ويذكرون الموت جيداً ، ولكنهم يرون أنه يجب عليهم عمداً أن يفضوا
عيونهم عنه ، وأن يجدوا فى السعى وراء العسل ، وأن يبحثوا عنه حيث
يوجد الكثير منه ، لينسوا بطلان الحياة وهمومها ، فى غمار اللهو والفرح
وكل أنواع الملذات والشهوات . كأنهم يقولون لأنفسهم ما قاله « سليمان »
لنفسه : - « اذهب كل خبزك واشرب خمرك بقلب طيب . إلتذ عيشاً
مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطلك . لأن ذلك هو كل نصيبك
فى الحياة... ليس من عمل ولا اختراع ، ولا معرفة ولا حكمة ، موجودة
فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها ... »

إن بلاهة هؤلاء الناس وبلادة تصوراتهم تدفعهم إلى أن يضعوا عمداً
برقعا كشيئا أمام عيونهم ، ليتبعدوا عن الاحساس بأثر الشيخوخة والمرض
والموت ، التى لا بد واقعة إن قريبا أو بعيداً .

ورغم ما فى هذه الفكرة من غباوة واضحة ، فإن أكثر أبناء هذه الأيام ،
لا يريدون إلا أن يتصرفوا على مقتضاها ، ويلهون عمداً بملذاتهم عن رؤية
الخطر المحقق بهم .

أما أنا فلم أستطع أبداً أن أقتنع بهذه الفكرة ، ولم أستطع أن أقتنى
خطوات هؤلاء الحمقى ، لأنه ليس لى بلادة تصوراتهم ، وليست لى سخافة
خيالهم وغبائهم ، ولانى أحب ان أحيا الحياة المصحوبة بالفهم والادراك .
وفوق ذلك فقد كان شنيعا على أن أرضى وأن أقنع بهذه اللذائذ
المؤقتة ، التى لا تمنحنى إلا لذة ساعة أو ساعات . حتى أفيق بعدها أتأمل
فى الأمر ، فارانى شقيا طوال الأيام ، معذبا بمصيرى فى حياتى وفى موتى ،
فضلا عما أشعر به شعوراً أكيدا حقيقيا ، من أن هذه اللذات أن هى إلا
نوع تافه بخس رخيص من السرور ، لا يشبع إلا الجوانب الصغيرة من نفسى ...

أما الوسيلة الثالثة فقوامها كله هو قوة الرأى وقوة العزيمة . فان أصحابها يرون أنهم ماداموا قد أدركوا أن الحياة باطلة ، وأنها شر ، فعليهم فى الحال أن يقضوا عليها ، وهؤلاء هم الذين يلجأون إلى الانتحار ، وهم قلة شاذة نادرة من الناس ، يملكون عزيمة خارقة غير طبيعية ، وعندما يدركون أن الحياة أضحوكة ، خلقها بارؤها ليعبث بنا وليتسل على حساب الأحياء منا ، وعندما يعلمون أن راحة الموت والفناء ، خير من تعب الحياة ، وعندما يفهمون أن العدم خير من البقاء ، يبحثون عن حبل حول العنق ، أو سكين فى القلب ، أو مسدس فى الرأس ، أو قطار أو بحر يضعون به حدا نهائيا لشقايتهم وآلامهم ، وهؤلاء وإن كانوا قليلين إلا أنهم يتزايدون يوما بعد يوم ، بين رجال طبقتنا الاجتماعية من الشبان والشابات ، الذين وصلوا إلى درجة كبيرة من العلم ، ولكنهم لم يرضحوا بعد فى أعماقهم من النواحي الاختبارية النفسية والروحية .

أما أنا فقد حكمت فى هذا الوقت ، بأن هذه الوسيلة معقولة ومنطقية ، ولكن لم يكن فى طوقى أن أعمل بها ، لأننى لم أستطع فعلا الانتحار ، وعجزت فعلا عن تنفيذه لسبب ما

أما الوسيلة الرابعة فأساسها الضعف والخور ، وخلاصتها ان أصحابها يعرفون أن الحياة باطلة وأنها شر ، ويشعرون بما فيها من ألم ويأس ، ويفضلون فى قرارة نفوسهم الموت على الحياة اليائسة ، ولكنهم لا يملكون من القوة ما يدفعهم إلى الانتحار فعلا ، فيواصلون المحافظة على حياتهم ، غير أنهم فى كل وقت يترقبون الموت ويطلبونه ، لينقذهم من الحياة الباطلة ، والجبن وحده هو أساس تفكير أصحاب هذا الرأى ، لأنهم ماداموا يعرفون أن الحياة عبث وأن الموت رائدهم ، وماداموا يعرفون جيدا السبيل إليه ، ومادام لا يقف أمامهم فى هذا السبيل شيء ،

فلماذا لا يسلكونه ؟ لماذا لا يقتلون أنفسهم ؟ ؟ ...

تلك كانت حالته الطبقة التي كنت أنا أحد أبنائها المتمسكين بفكرتها،
والتي وصفها «شوبنهاور» و«سايهان» عندما علما بأن الحياة أضحوكة مزعجة ،
فرضت علينا مجرد فرض، وليس لنا فيها حيلة سوى الاستسلام لها، وتوقع
الموت بين آن وآخر، كأن علينا فقط ان نقضى الحياة فى الأكل والشرب
واللباس والنوم والكلام وتأليف الكتب والصحف و... الخ ...

حقيقة اتى لم أقتل نفسى فى هذا الوقت ، ولم أدر فى ذلك الحين سبباً
لهذا الامتناع سوى الجبن ، أما اليوم فقد أدركت ادراكاً واضحاً بأننى
ما أحجمت عن الانتحار إلا لأن شعوراً خفياً قوياً عزيزاً ، كان يوحى
الى من أعماق نفسى فى غموض وابهام ، بأن آرائى ونتائجى لا بد مضطربة
مشوشة ، وأن تفكيرى لا بد خاطيء ...

بعد ذلك حدثت نفسى ان الحياة مناقضة لعقلى ، بينما العقل هو أسمى
وأعظم ما فى الوجود ، فهو الذى خلق لى الحياة ... فكيف يستطيع هذا
الخالق ان ينكر ما خلق ؟

ومن جهة أخرى كنت أقول :- لو لم تكن لى حياة لما كان لى عقل ،
فالعقل إذاً هو ابن هذه الحياة وثمرتها ومع ذلك هو ينكرها !! فهل تنكر
الشجرة ثمرتها ؟

ثم قلت : -

« هب الحياة خالية من كل معنى ، وأنها شر وأنها الحماقة بعينها، فكيف

عشت فيها فعلاً ، وقضيت ما قضيت من عمرى ؟ ...

— ولماذا لا أزال حياً حتى الآن ؟ ...

— لست أنا فقط ، بل لماذا عاش الكثيرون غيرى ؟ ...

— بل لماذا عاش الجنس البشرى كله من قبلى ؟ ...

— ولماذا لازال البشر كلهم فى جميع أنحاء العالم يعيشون ؟ ...

— مامعنى هذا ؟ ...

— لماذا أرى جميع الناس اليوم أحياء ، بل هم يفضلون البقاء على

الموت ؟ ...

— لماذا لم ينتحروا فعلا ؟ ...

— ولماذا امتدت الحياة الانسانية الطويلة ؟ ! ...

— هل أنا وشو بنهور وأمثالنا الذين منحنا وحدنا أسرار الفلسفة

والفهم والحكمة ؟ ! ...

— وهل نحن فقط الذين أدركنا تفاهة الحياة وخلوها من المعنى ،

وأنها باطلة وأنها شر ؟ ! ...

أبدآ . . . إن المعانى التى اختلجت فى نفوسنا ، وقادتنا إلى الرأى ببطلان

الحياة ، هى معان سهلة واضحة لكل إنسان ولأبسط البسطاء ، طرأت

وتطراً على كل عقل ، ومع ذلك فالناس قاطبة لم يحفلوا بها وعاشوا رغبتها ،

وقضوا حياتهم كلها ، ولا زالوا يقضونها . . .

وأخيراً تأملت طويلاً فى هذا ، ثم تذكرت أنى وجدت فى أثناء بحى

وتنقيبى ودراساتى المختلفة - وجدت أن هناك حكمة سامية فائقة تسيطر

على كل ما فى الأرض من كائنات حية أو غير حية ، وليس سوى حياتى

أنا هى المتنافرة السخيفة الخالية من التنسيق والحكمة . . . ! ! ...

ان ملايين وملاييناً من عامة الناس وبسطائهم لا يدرون شيئاً مما أدريه

أنا عن الكمياء والكائنات العضوية وغيرها ، إذ لا يفهمون شيئاً إطلاقاً

عن أصولها وحالاتها العلية كما أفهمه أنا ، ولكنهم مع ذلك يدركون

ادراكا جيدا صحيحا واضحا ، الشرائع المعقولة الحكيمة التي تسير عليها حياتهم في انسجام وطمأنينة

وجدت أن الانسانية كلها بجماعها عاشت العصور والقرون ، ولا زالت تتمسك بالحياة ، ولا تفرط فيها كأنها تدرك كل الإدراك معناها وقيمتها ...

عاش كل أبناء آدم منذ الأزل . أما أنا اليوم فأقن لأقول لهؤلاء جميعا إن هذه الحياة الهائلة ، ومن أولها إلى آخرها ، بأسرها لا معنى لها ، وإن هذه الإنسانية القديمة العهد ، المتسعة ، الوافرة ، الزاخرة ، لا محل لها ، وإنني غير مستطيع البقاء فيها ؟ ! !

ثم ما الذي منعى من الانتحار ما دمت قد أنكرت الحياة ؟ ... إن الذي ينكرها عليه ، أن يسكت ، وأن يكف عن الكلام والمناقشات ، وأن يقتل نفسه فعلا ... قلت لنفسى أنت تسكره الحياة فأقتل نفسك !

أنت تعيش ولا تفهم لماذا تعيش فضع حدا لحياتك ! !
أنت في وسط جماعة كلهم مغتبطون راضون ، يعرفون ما يعملونه ، وأنت وحدك مقطب الجبين حزين بائس شقي مضطرب الفكر ناثر على كل شيء ، فلماذا لا تخرج من وسط هؤلاء الناس الراضين لتريح نفسك ، ولتريح غيرك ؟ ! ...

فهمت أننا نحن الذين شككنا في قيمة الحياة لا تزيد على بضع أفراد ، أما الإنسانية بأسرها فلم تشك قط فيها وفي معناها ، فلا مرية أن الناس منذ أقدم الأزمنة قد عاشوا فعلا كل هذه الدهور حتى الآن ، رغم أنه قد جال في خواطرهم مثلها جال في خاطري من الأفكار ، ولكني أنا وحدي أنكرت الحياة وجحدتها وكفرت بها ! ! ! أما هم فلم ينكروها بل كانت عزيزة غالية عليهم ، لها في نفس كل واحد منهم معنى خاص وقيمة خاصة

وهم الأصل في ولادتي ، وفي تربيتي وفي تثقيفي ، وهم الذين كشفوا عن الحديد في الأرض ونزعه منها ، وهم الذين علموا اولادهم قطع الأخشاب وتشذيبها ، وهم الذين اكتشفوا الزراعة وتربية البقر ، والخيول وتدجينها والح .

وهم الذين اخترعوا الصناعات ، وعملوا على تقريب الناس من بعضهم ، وتنظيم علاقاتهم ومصالحهم بالقوانين العادلة والانظمة السليمة ، فجعلوا للحياة هيئتها الخاصة المنتظمة المرتبة ، وهم فوق كل هذا الذين علموني كيف أفكر وكيف أتحدث .

أنا ابنهم وأنا صنع أيديهم - أنا ثمرة جهودهم ، وعنايتهم ورعايتهم - أنا جزء من تفكيرهم وأعمالهم - أنا قطعة منهم ... إلا أني أقوم اليوم صارخا في وجوههم جميعاً بأنه ما كان لوجودهم منذ الأزل أى معنى !! وأن كل ماسعوا إليه وكل ماعملوه وكل ماستقروا عليه ، هو فارغ تافه لاحكمة فيه !!! ..

على أثر هذا التأمل ، وثقت بأنى لاشك مخطيء في تفكيري ، ولكنى لم أكتشف بعد موضع الخطأ بالذات - فلم أعرف إن كان في النتائج التى بلغتها ، أم فى الطريقة التى وضعت بها المسألة من أساسها .

عرفت أن عقلى مع قوة اقتناعه ببطلان الحياة ، فإنه لم يستطع أن يدفعنى إلى ازهاق نفسى فعلا ، كما أنى أدركت أن العقل ليس هو الذى حال دون انتحارى ، رغم أنه كان دائم النشاط ، بل أقول الحق ، إن الذى أنقذنى من قتل نفسى عمدا ، هو قوة أخرى كانت تعمل بجانبه ، هى قوة شعورى بتمسك الانسانية كلها فعلا منذ الأزل حتى الآن بالحياة وبالرضاء بها .. فقد عملت هذه القوة حقاً فى اعماقى بأقصى طاقتها ، وكانت هى فى الواقع التى تقرر مواقفى العملية وتوجهنى إليها ، وكانت هى دائماً التى تكشف لى

عن أخطائي، وتمدني بالآراء السليمة أعالج بها القضايا النظرية المشروشة ،
التي كانت تغطي علي ، والتي كانت تتعارض مع الحقائق الفعلية .

هذه القوة هي التي انشلتني من هوة اليأس الذي غرقت فيه ، وهي التي
غيرت كل افكاري وآرائي ، وهي التي علمتني بأني لا أنا ولا المئات من
العلماء والمفكرين أمثالي ، نستطيع ان نكون مثل هذه الإنسانية الهائلة ،
التي تتالت وعاشت على هذه الأرض بسلام كل هذه الحقب من الأزمنة !
خيل إلى قبل اليوم ان هذه الدائرة الضيقة المحدودة ، التي تجمع بيني وبين
أمثالي من الأغنياء والمتعلمين والكسالى والضعفاء ، هي التي تؤلف
الإنسانية الحقة ، وما عداها من ملايين الناس الذين عاشوا راضين قبلنا ،
والذين يعيشون الآن باطمئنان ليسوا إلا بهائمًا لا بشرًا !!

ومهما بدا لي الآن هذا التقدير سخيفًا غريبًا خاطئًا ، فانه بالحق كان
رأني في الماضي ، لأنني كنت معجبًا بنفسى مزهوا مغرورًا بعلمى وبأدبى !!
لقد ظننت أني أنا وسليمان وشوبنهاور حين سألنا : « لماذا نعيش ؟ »
كنا اقدر من الناس جميعا في اكتشاف هذا السؤال بوضعه هذا ، وأن ملايين
الناس غيرنا عجزوا عن إدراك عمقه !! وانى أنا الوحيد الذي أغوص
في الأعماق أبحث بعناية وبدقة لا نظير لها عن معنى الحياة !! بينما هذا
السؤال هو سؤال بسيط ، خطر على بال كل فرد ، وعرفه كل الناس ،
حتى الأطفال ، منذ اقدم الأزمنة .

أعترف بأني عشت وقتئذ زمنيًا طويلًا مضطربًا معذبًا بهذه الاخطاء ، كما
عاش ويعيش اليوم أكثر الاحرار من المفكرين والمتعلمين ، ولسكنى عندما
تأملت الحياة العامة الشاملة للناس جميعهم ، وجدت اني لسكى افهم الحق ،
يجب أن أهجر أولًا هؤلاء القلة الضئيلة من الناس ، الذين يعتمدون على
التفكير العلى السقيم لوحده ، لانهم خسروا حياتهم فعلا ، فبعضهم جهلها ،

وبعضهم تجاهلها ، وبعضهم راغب دوماً في الموت ، ولا يجرؤ على قتل نفسه !! .

ثم أطمعت بعد ذلك بأنه لا بد أمامي حتماً ، معنى آخر صحيح هام في متناولي أن أكتشفه ، لآهتدى به بعيداً عن هذا النفر القليل من العلماء ، فرأيت أن أخرج إلى الآفاق المتسعة ، وأن أبحث عن ضالتي وسط الطبقات العامة والعمال ، الذين كنت أميل إليهم بفطرتي ، والذين ما كنت أصدق فيهم تلك الغباوة التي صورها فيهم كبار المفكرين والكتاب - أولئك الملايين من الأحياء والأموات الذين أحبوا الحياة ، والذين بنوها واسسوها وأقاموها على كواهلهم وحملوا أثقالها على أكتافهم راضين مغتبطين ، حتى وصلت إلينا كما هي الآن نستمتع بها جميعاً

أخذت في النظر إلى الحياة العامة الجامعة للبسطاء والفقراء وغير المتعلمين من الأموات والأحياء ، فوجدتهم يختلفون عن طبقاتنا الممتازة كل الاختلاف .

تأملت أمرهم ، وعرفت أن آراءنا الغربية التي تسود لنا وجه الحياة وتعقدها ، لم تخطر على بالهم ، ومع ذلك فلم أستطع أن أقول عنهم أنهم جهلوا معنى الحياة ، أو لم يريدوا أن يفهموه أو يبحثوه ، لأنني وجدتهم باحثين عارفين ، ملهين بهذا المعنى بكل دقة وبكل وضوح وبكل اطمئنان .

كما اني لم أستطع ان أحسبهم من ضمن الذين يتجاهلون ويتعامون عن (الموت) ، وينصرفون عنه إلى الشهوات واللذات ، لأنني وجدت حياتهم فائضة بالآلام وملئية بالتضحيات وان نصيبهم من هذه اللذات قليل .

كذلك لم أجدهم بين الضعاف الذين يرون الحياة بغير معنى وبغير هدف ، ويرون شرها وبطلانها ومع ذلك يصبرون عليها مترقبين في كل آن الموت الذي ينقذهم منها ، لأنني وجدتهم يحبون الحياة فعلاً ، ويضعون الغايات

المعاني المدركة المفهومة الواضحة في كل حركة يتحركونها وفي كل عمل يقومون به .

ولم أحسبهم من ضمن الراغبين فعلاً في الانتحار ، الذين يئسوا من كل معاني الحياة ، لآثي وجدتهم يعيشون على الرجاء ، ويحسبون أن قتل النفس هو شر الجرائم ، وأنهم لا يعمدون إليه إلا نادراً .

لذلك ثبت لدى ، أن المعرفة الصحيحة للحياة ومعانيها لا توجد إلا بين هذه الطبقات الغالبة من السذج والبسطاء ، الذين كنت أحتقرهم وأستهين بأمرهم .

وثبت لدى قطعاً ، أن الفهم المبني على العقل لوحده ، وهو فهم الحكماء والعلماء الفلاسفة ، ينكر معنى الحياة ويرفضه ولا يفهمه ويشور عليه ، ويحكم على الحياة بالبطلان ، ويؤدي حتماً إلى اليأس ، أما فهم الملايين من البشر فلا أثر لطغيان العقل فيه ، ولا سلطان لجوحه عليه ، وهو فهم يمنحهم معنى راضياً سامياً للحياة .

هذا الفهم الجميل ... هذا الفهم الوديع ... هذا الفهم الطبيعي ... هذا الفهم الذي يمنح أكبر القوى الروحية البشرية هو : —

الايان .

عرفت هذا ، ولكنني لم أستطع بعد أن أستقر عليه ، لأن عقلي كان لا يزال نشيطاً عاملاً مسيطراً على ، يدعي أنه لوحده دون غيره صاحب السلطان الأعلى ، وكان ينكر الإيمان ولا يعترف به ولا يفرض له وجوداً ، فكان موقفي من نفسي شديداً خرجاً مزعجاً ، فالعقل كان ينكر الحياة ، والإيمان كان يريد أن يتخلص من طغيان العقل ... فأيهما أختار ؟ ... كلا الأمرين كان مزعجاً . وبالأخص الثاني ... لآثي لو اتخذت الإيمان

وحده ، وعشت به لوحده ، لكان على أن ألقى بعقلي كلية ، وأن أهمله . بينما هو القوة الوحيدة التي كانت تتطلب مني السعى وراء إدراك معنى الحياة ، الذي أحسبت من كل قلبي أن أصل إليه .

ثم تساءلت وهل يمكن أن أفهم أسرار الحياة بدون العقل ؟ ...
أمام هذه الحيرة قلت :

إما أن يكون ما سميته معقولا هو غير معقول ، ولا أثر للعقل فيه ،

وإما أن يكون ما سميته غير معقول هو المعقول والمفهوم !!

لهذا بدأت أراجع طرق تفكيري التي كان أساسها كلها العقل ، ووجدت أنها عمليات عقلية صحيحة ، ووجدت أن النتيجة القائلة « بأن الحياة لا شيء » هي أيضاً على هذا الأساس صحيحة ومتفقة تماماً مع التفكير العقلي ، ولا غبار عليها ، ولكنني وجدت أنني أهملت نواحي أخرى هامة من المسألة ، فعدت إليها وسلطت نور بصيرتي عليها ، فاكتشفت أمراً جديداً ... إن الخطأ كان في محاولة الوصول إلى معنى الحياة الغير محدودة والالانهائية بواسطة عقلي المحدود ، وبواسطة مقاييسه المحدودة ، وبواسطة مقاييس الزمان والمكان المحدودة ، وبواسطة الاعتماد على منطق العلة والمعلول المحدود .

وقد وجدت أن المحدود لا يمكنه أبداً لوحده أن يحيط بهذه المعاني الفائقة متى كان بعيداً عن اللانهاى منفصلاً عنه . فعرفت أنه لا بد من ربط الاثنين والجمع بينهما ، قبل أن تنتظر الحل الصحيح — لا بد من قيام الصلة بين الله والانسان ...

لقد خيل إلى أن العلم والفلسفة قد أجابا إجابة قاطعة حاسمة ، عند ما قررا أن الحياة شر ، ولكن الحقيقة أن هذا الجواب هو جواب سلبى غير إيجابى وغير محدود ، ولم يفسر لنا معنى الحياة ، ولا الغاية منها ، لأنه يقول إن الحياة هي « لا شيء » .

لهذا كانت جميع الإجابات السابقة التي حصلت عليها، على أساس هذا الخطأ البين الفاضح ، هي إجابات حتمية متناقضة مبهمه قاصرة ، لم تهدي إلى الحلول الصحيحة ، رغم إيمان عقلي وفكري ، ورغم انسكبابي ومواظبي على الدرس والدفع في كل نرجس العلوم والدراسات .

إنها لم ترشدي إلى أكثر من أن القوة هي القوة - والمادة هي المادة - والإرادة هي الإرادة - وغير المحدود هو غير المحدود - ولا شيء هو لا شيء

أن التفكير في هذه المسائل المبني على العقل لوحده ، والذي بني عليه «ديكارت» مثلاً فلسفته والذي يبدأ أولاً بالشك في كل شيء ، ويعرض عن كل نتائج الإيمان ، ولا يتمسك إلا بكل ما يلبسه العقل والاختبار - لم يصل إلا إلى ما وصلت إليه أنا «وسليمان» «وشو بنهور» «وبوذا» ، وسائر الفلاسفة من الاجابات المبهمة العمياء المضطربة اليائسة .

بعد كل هذا ، وضعت المسألة على الصورة الآتية ، التي يؤمن بها عامة الناس : —

كيف يجب أن أقضي أيام حياتي على هذه الأرض ؟
كما تقضي شريعة الله .

هل بعد الموت شيء ؟ وما هو ؟

نعم ... بعد الموت حياة ... حياة خالدة ...

هل ثمة معنى سام في حياتي لا يقوى الموت عليه ؟

نعم ... هو اتصالك بآله أبدى غير محدود في سمائه الأعلى

ولما تأملت هذه الأسئلة وهذه الأجوبة ، وجدت نفسي راضياً

هادئاً مستريحاً .

سليت ثانياً بأن هناك معرفة أخرى عظيمة هائلة غير معرفة العقل —

معرفة لا نخضع لسلطان الفكر ولا لمشيتته ولا تنقيده به لوحده .
معرفة منحت لكل إنسان ولا تزال توهب للجميع .
معرفة تساعد الناس جميعاً في الحصول على الغبطة والراحة والاطمئنان .
معرفة يقاوم بها المرء كل ما يقف في سبيل هنائه من عقبات
وصعاب وهموم .
هى الإيمان .

حين كنت أعتد على على القائم على العقل فقط ، كنت أحتقر
حياتي وأستهين بها ، لآثى لم أجد لها مزارقاً ولا طعماً ، بينما كنت أجد
جماهير الناس على عكس فرحين جذلين بحياتهم ، ملهين بمعانيها المفهومة
وبأهدافها الحكيمة ، وذلك بفضل الإيمان الذى منحهم كما يمنحني الآن
الإدراك والفهم الصحيح والصبر والرضى والسلام ، فى كل أحوال
الحياة مرها وحلوها

وجدت أن هذا الإيمان هو السائد ليس فقط فى بلادى بل فى كل
بقاع العالم ، وبين جميع الأقسام ، وفى جميع الأجيال والأزمان ،
فالحياة منذ نشأت على هذه الأرض وهى تسير برفقته ، ملازمة له ، وهو
الذى يصبغها بألوان الفرح والرضى والعزاء والصبر .

والإيمان فى كل صورته يجعل حياة الانسان معنى غير محدود ... معنى
أبدى ... معنى سام خالد ، لا يزول ولا يفنى ... مهما قامت المصائب والبلايا
والأمراض والوحدة والموت لتحاربه وتقاومه

بالإيمان وجد الناس الحياة وفهموا أغراضها ومراميها .
وليس الإيمان هو محاولة كشف المستور الخفى عن أبصارنا وأفهامنا ،
وليس هو وحده الوحي أو الإلهام الذى يهدى قلوبنا وأرواحنا أحياناً
إلى عمل الخير .

وليس هو مجرد الفهم والتسليم بوجرد صلة بين الانسان والله ،
وليس هو الاذعان والخضوع للطقوس الدينية .

وإنما الايمان المنتشر في كل مكان ، هو الذى يؤدى إلى الوقوف على
معانى هذه الحياة الانسانية الحاضرة وتفهمها فهماً صحيحاً حقيقياً ، يدفع
الانسان إلى حبها حباً سليماً من كل القلب ، ومن كل النفس ، ويدفعه إلى
العناية بها والمحافظة عليها ، والسعى فى سبيل غاياتها وأهدافها السامية
بغير الايمان لا يقدر بشر أن يعيش ، لأن من لا يؤمن بغاية عظمى
أبدية ، يعيش من أجلها ويحبها هو فى الواقع ميت

أدركت أن الايمان مهما تناقض مع العقل ، ومهما تورد على شرائعه
ومنطقه ، فإنه يتميز بأن يضع لكل سؤال جواباً مريحاً ، يصل بين المحدود
وغير المحدود (الله والإنسان) ، ويربط بينهما بروابط عدة ، بغيرها
تصبح الحياة معقدة مستحيلة وشقية بائسة ...

« من أنا ؟ »

« أنا جزء من غير المحدود (الله) ... »

هذه الإجابة الوجيزة هى موضع السر كله ، وهى التى ملأت قلبى بالنور ،
لأنها جمعت بين الله والانسان ، ووصلت بينهما ولم تفصلهما أبداً
فى هذه الكلمات القليلة السابقة الحل لقضية الحياة كلها ... إذاً أنا جزء من الله .
عندئذ عدت إلى أفكارى القديمة ألقبها وأتأملها فساءلت نفسى :

ماذا فعلت حين درست وأطلعت وبجشت فى أنواع العلوم الطبيعية
والرياضية لمعرفة السبب الذى نعیش من أجله ؟ !

وجدت أنى درست كل شىء ما عدا شيئاً واحداً هو (نفسى) ، وتعلمت
أموراً كثيرة جداً ، عدا ما كان منها يهم أمر «روحى» .

ماذا فعلت عندما طلبت الحل من الفلسفة ؟ !

وجدت أنى درست أفكار الذين كانوا مثلي تماماً يجهلون الحلول ، فلم أتعلم منهم أكثر مما كانوا يعلمون !!

حقاً إنه مما يدعو إلى السخرية ، أننا كنا في عجبنا بأنفسنا ، وفي غرورنا وإدعائنا ، كالأطفال والصبية الصغار ، ندير ساعاتنا بأيدينا ، ففسير في دقة ونظام ، ثم لا نلبث أن ننتزع بنفس أيدينا إحدى محركتها ، ونلعب بها ، ثم نعجب بعد ذلك لماذا لا تدير الساعة ولا تضبط الوقت !!

عرفت أن جميع الآراء التي وصلنا بواسطتها إلى إيماننا بالحياة وبالخالق وبالحرية وبالصلاح ، لا تقبل أبداً تجارب العقل المادية الصرفة . إن الحل الحقيقي الذي ننشده والذي له أبلغ الأهمية لنا ، هو الذي يفسر لنا الغاية من الحياة ، بحيث يصلنا بها ويقربنا منها ، ويجعلنا نحبها ونحرص عليها ، وهذا لن يكون إلا عن طريق واحد هو « الإيمان » الكائن في كل زمان وفي كل مكان ، وبين جميع الأمم وبين جميع الشعوب ، والذي وصل إلينا فعلاً من أقدم الأزمنة جيلاً بعد جيل ، ولولا هذا الميراث المجيد العظيم ، لتعذر علينا أن نحصل عليه الآن لوحدنا .

لكن بعد أن حصلنا عليه ، عدنا نهمله ولا نسكث له ولا نهتم به !! بل ننصرف عنه إلى دراسة مسائل فلسفية لا طائل تحتها ، ولا فائدة منها !!

إن الإيمان الذي يقول بوجود إله لانهاى ، وبوجود نفس مقدسة خالدة ، والذي يقول بوجود علاقة معروفة بين الخالق والمخلوق ، والذي يرشد الانسان إلى الخير والشر ، كل هذا ميراث خالد ثمين خلقتة لنا الإنسانية بعد جهادها في سبيله أجيالا عديدة . وبغير هذا الميراث ما كانت الحياة ، وما كنت أنا ... ومع ذلك فاني أنا الذي أنكرته ! وأنا الذي ثرت عليه ! وأنا الذي تمردت على الإنسانية بأجمعها ! مدعياً أنى أنا

وحدى وقليلين مثلي، نستطيع بعقولنا أن نحل هذه القضية بغير الحل
الذى وصلت إليه هذه الانسانية الهائلة !!

وضحت لى هذه الآراء فبدأت أدرك جيداً أن الموقف الذى اتخذناه
أنا «وشو بنهور» «وسليمان» بالرغم من كل حكمتنا كان موقفاً سخيفاً جزئياً...
فما دامت الحياة كانت فى عقيدتنا شر ، فلماذا لم نقتل ذواتنا ونخلص من
شرها ؟ !!

وبدأت أدرك وأشعر شعوراً واضحاً ، بأن النتائج التى نستمدّها من
الايمان تتضمن أصفى وأنقى وأسمى ينابيع الحكمة البشرية ، وأنه من الخطأ
البين الشنيع ، أن أرفضها لأن العقل ينكرها !

٦

رغم أني فهمت كل هذا ، فلم أتخلص بعد من كل شقائي ، فقد فتحت قلبي حقيقة لقبول الإيمان ولكنني أردت أن أصل إلى إيمان من نوع خاص لا يتطلب مني إنكاراً ظاهراً مطلقاً لتنتاج العقل ...

درست الأديان الهامة في كتبها الأصلية وهي البوذية والاسلامية والمسيحية بصفة خاصة، ثم اتجهت بعد ذلك للبحث في الأشخاص الذين يلقبون فعلاً بكبار المؤمنين من أبناء بلادي ، وهم علماء الكنيسة الارثوذكسية وعطاء المفكرين من رجال الدين والرهبان والشيوخ ، فسعيت إليهم ، واستوضحتهم ما استشكل علي من أسرار الحياة وعن غايتها وأهدافها ، ومع أني كنت أقصد أن أتجنب الجدل والمناظرات ، ومع أني كنت مستعداً أن أفهم الأمور بغير عناد ، فلم أستطع أبداً أن أقبل إيمانهم لأنه لم يكشف لي عن معنى الحياة الحقيقي ، بل بالعكس زاده ظلاماً وإبهاماً وتعقيداً ، فقد بنوه لأعلى أساس المحاولة النزيهة على حل مشكلات الحياة العملية وتفهم أغراضها والسعي في سبيلها ، ولكنهم كانوا مدفوعين إليه بغايات ودوافع أخرى شخصية غير نزيهة ...

وإنني لازلت أذكر آلامى النفسية المريعة ، حين فشلت في الاهتداء إلى ضالتي ، بين أولئك الذين كانوا يتزعمون الأديان ، والذين كنت على أيديهم أعلل النفس بالخلاص ، فلم أستفد منهم شيئاً ، وعدت بسببهم إلى هوة يأسى الأول أكثر شقاء وأوفر تعسداً

كلما كان هؤلاء الزعماء يبالغون في التحدث والمجادلة عن تفاصيل ودقائق عقائدهم الخفية ، ليظهروا للناس عظمة إيمانهم وعمقه ، كلما كنت أزداد أنا إقتناءً بضالهم ، وبأن عقائدهم هذه كلها عاجزة عن أن تنير لي معنى الحياة ،

ثرت حقاً على ما أضافه هؤلاء الناس من الزوائد التافهة العمياء على الدين البسيط .
الجميل ، ولكن ثورتى هذه لم تكن شيئاً مذكوراً ، أمام عجبى البالغ وأمام
دهشتى الفائقة من هؤلاء الناس ، حين شاهدت حياتهم الشخصية وحين قارنتها
بحياة غير المؤمنين ، فوجدتهم لا يختلفون عنهم إلا بريائهم البالغ ، وسلوكهم فى
الحياة فعلاً بعكس ما يقولون وبالعكس ما يعملون ! ... انهم إنما ينافقون
ويكذبون ويخدعون أنفسهم كما يخدعون الآخرين وأن غايتهم من
الحياة ليست سوى التمتع بالطيبات والاستسلام للشهوات ! !
ولو كان إيمانهم صحيحاً لما رأيتهم يرتعدون فزعاً من المرض والشيخوخة
والموت ! !

سمعت أيضاً إلى الذين يدعون الإيمان من الشقيين أو الاغنياء فألفيتهم
أيضاً مخادعين ، لا ترتفع قلوبهم إلى السماء ولكنها أبداً هابطة إلى الأرض
ومقتنياتهما وسائر مطالبها ، لا يعتمدون إلا على الجسد والسفسطة
والنفاق ، وقد فشل هذا كله فى أن يقنعنى باخلاصهم فى عقيدتهم لانى أردت
أن أشاهد الخير والصلاح والسلام فعلاً فى حياتهم لانى الفاضلهم وأقوالهم ...
ثم عرفت أن إيمان هؤلاء المدعين ، لا يصلح أن يكون إيماناً لعامة
الناس ، الذين لا يعيشون مثلنا بالنفاق على حساب الغير ، وعلى متاعبهم ، بل
خلقوا وعاشوا لينبوا الحياة بأنفسهم ، وليقيموها على كواهلهم ، فهؤلاء
لا بد لهم من إيمان أنزه وأخلص من هذا ...

لهذا شعرت بقوة فائقة تقربنى إلى طبقات الفقراء والمساكين والجهلة
والبسطاء والفلاحين والرهبان والناسكين ، فاتجهت فى الحال إليهم أدرسهم
وأدرس إيمانهم وعقيدتهم ، وأبحث عن ضالتي بينهم ، وكلما توغلت فى
دراستي لهم ، وقربت منهم كلما ، ازدادت ثقة و يقيناً بأن الإيمان الحق
لا يوجد إلا بينهم وفى أعماق قلوبهم

هم كانوا يرون أن الايمان ضرورى لحياتهم ، وبدونه لا يرون لبقائهم على الأرض معنى أو غاية ...

ومن الغريب ، أنى وجدتهم يعتقدون بنفس عقيدة الاغنياء والمتظاهرين بالدين ، وكلاهما كان يمزج الخرافة بالدين ، إلا أنه كان هناك فارق واضح كبير بينهما ، فمدعوا الايمان من الزعماء والاغنياء ، كانوا يمزجونها عمداً ليضلوا بها البسطاء ويخدعوا بهم بها ، أما السذج والعمال فكانوا يعتبرونها بحسن نية جزءاً من إيمانهم الصحيح ...

كل ما وجدته فى هذه الطبقة العامة ، يناقض تماماً ما يوجد فى الطبقة الخاصة التى أتمى إليها من أبناء الأشراف والاغنياء ، الذين يستغنون عن الايمان ولا يهتمون به ، ويرون أن حياتهم يمكن أن تنقضى بدونه ، ولم يكن بين كل ألف منهم أكثر من مؤمن واحد . أما الطبقات الساذجة البسيطة فلم يوجد بين كل ألف منهم رجل ملحد واحد .

وكان أبناء طبقتنا يضربون حياتهم إما فى الكسل أو فى السعى وراء الملذات والشهوات ، أو فى التمرد والعصيان على الحياة ، أما العامة فأغلبهم يعمل ويعمل بجد واجتهاد وهو راض بدنيائه وحياته وبحظه منها .

كان الرجال والنساء من طبقتنا يضربون بالحياة ويتبرمون منها وينزعجون من آلامها ومن أمراضها وسائر بلاياها ، بينما كان العامة يتصفون بالهدوء العجيب والعزاء الوفير ، تجاه المصائب والهموم التى يرونها أمراً طبيعياً ، وأنها تعمل مع بعضها فى النهاية إلى خيرهم وإلى رقيهم .

وكانت الفكرة الغالبة بيننا ، أن المرض والشيخوخة والموت هى من الأقدار الشريرة التى فرضت علينا بغير حكمة . أما أولئك السذج والفلاحون فلم تفارقهم بسمه الحياة ، ولم يفقدوا الثقة بإيمانهم فى شيخوختهم وفى أمراضهم وفى موتهم

حرم الفقراء من جميع الفرص والملاذات التي تجعل للحياة عادة قيمة خاصة في نظر الاغنياء ، والتي تمتع بها فعلا أمثال الملك « سليمان » ، ولسكنهم مع ذلك يحيمون في غبطة وسعادة ، لم يحلم بها هذا الملك في كل مجده ولم يجدها أغنى أغنياء الارض ...

تأملت حولي في أفراد الطبقة العامة ، وفحصت أيضاً حياة الذين ماتوا منهم ، فوجدت أن ليس واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة هم الذين أدركوا معنى حياتهم ورضوا به ، بل إن المئات والالوف والملايين والبلايين عرفوا هذا المعنى بغير فلسفة وبصورة طبيعية عمالية ، ساعدتهم على الحياة في سلام ورضى ، وعلى الموت في سكون وطمأنينة .

جميع هؤلاء الالوف والملايين الذين يختلفون عن بعض ، في الأوطان وفي العادات وفي الاخلاق وفي التعليم وفي التربية ، وفي مراكزهم الاجتماعية ، وفي سائر أوساطهم ومختلف ظروفهم ، عاشوا راضين مغبوطين على عكس ما عشت أنا ، وكانوا على عكس ما كنت أنا ... هم وقفوا على معاني الحياة وعلى معاني الموت فأدوا أعمالهم في صمت ، واحتملوا الفقر والمرض في صبر ، وعاشوا وماتوا وهم يعتقدون بأن كل ما في الحياة من حلو ومن مر ، هو في الحقيقة طيب وصالح ولازم

عند ما قت هذه المقارنات ، أحسبت من كل قلبي هؤلاء الفقراء وتقربت إليهم واندججت في وسطهم ، وتعلمت منهم الدروس تلو الدروس وأحسست برغبة شديدة وشوق حار إلى اقتفاء آثارهم ، وإلى التمسك بأخلاقيهم ...

شعرت أثر ذلك بتغيير كبير في أفكاري ، وفي إيمالي ، وأحسست بشعور خطير طالما كان يتحفز للظهور ، ولكني لم أكن أدري كيف ولا متى أظهره ؟ ، وهو أن حياة طبقتي من الاغنياء والمتعلمين أصبحت أمام

نفسى كريمة ممقوتة ، لم أعد أحبها ولم أعد أهتم لها - إن جميع أعمالنا ومساعدتنا وجميع أفكارنا وفنوننا وأعمالنا ظهرت لى بصور جديدة مختلفة ، هى صور اللعب التى يلعب بها الصبيان ، والتى لا تفيد إلا فى غير هذا الغرض الفارغ ... أما حياة العمال وحياة عامة الناس الذين يعملون بأذرعهم فى البناء وفى التعمير وغير ذلك فقد رأيتها الحياة الحققة الصحيحة

نعم لقد آمنت - آمنت بهذا - وارتضىته لنفسى بمسرة جزيلة ونعمة وفيرة



ثم تساءلت : - لماذا كرهت واحتقرت إيمان العامة فى الماضى ؟ لماذا حسبته قبلاً خالياً من المعنى ؟

آه - لقد اكتشفت شيئاً آخرأ هاماً وتأكدت منه ووضعت أصبعى عليه ، فلم يكن الخطأ كائن فى تفكيرى أو فى ذكائى ، ولم يكن فى عجز العلوم فقط ، ولكنه كان أيضاً فى فساد حياتى الشخصية - إن الحقيقة لم تحجب نفسها عني إلا من أجل استسلامى لشهواتى ومن أجل حياتى الساقطة ...

اليوم عرفت أنى عند ما كنت أصف الحياة بأنها شر لا معنى لها ، كان ذلك يعنى بحياتى أنا الشخصية ، لا حياة الناس كلهم ولا الحياة بأجمعها ، كما هيء لى غرورى وكبريائى ...

لقد آمنت الآن أن من ينبغى الوقوف على معانى الحياة ، عليه أولاً أن يحاول أن يحيا الحياة الصالحة المستقيمة الحافلة بأنواع الفضائل ، ولقد فهمت الآن أن الذى يريد أن يتحدث عن الحياة بأسرها ، وأن يعطى رأيه فيها ، عليه أن ينظر لها نظرة عامة شاملة لكل نواحيها ، ولكل أبنائها فى كل العصور ، لا أن يقصر بحثه على حياة حشرات دنيئة قليلة من أمثالى ممن يعدون على الأصابع !!

هذه حقائق واضحة ، ولكنها غابت عني وقتئذ ، لان ظهورها كان يكشف عن شري وعن فسادى ، أذا اليوم وقد وضح كل شيء أمام عيني ، وعرفت أننى كنت شريراً ضالاً فقد وقفت على الحق وأحببته ...
لقد كان الامر فى غاية البساطة :-

إن سأل إنسان نفسه - وهو يقضى أيامه فى قتل الناس وقطع رؤوسهم وتعذيبهم ، أو فى الخمر والفسق والقمار - ماهى الحياة ؟ فلا بد أن يكون الجواب الواحد هو أنها شر وحماسة ، ولا شك أن هذا جواب صحيح ، ولكن بالنسبة له فقط ...

بعد ذلك فكرت فى أمر آخر ، فقد راقبت الطير ووجدته مخلوقا على صورة تمكنه من الطيران ومن التقاط الحب للطعام ، ومن بناء عشه ، ليضى فيه حياته ، وكلما كنت أراه يؤدى هذه الاغراض ، ويقوم بعمله الذى خلق له ، كنت أرتاح وأرضى ، وكذلك سائر الحيوانات فقد خلقت على نمط عجيب لتعمل وتتمكن من الحصول على الطعام ، ومن الدفاع عن حياتها والمحافظة على جنسها وتربية صغارها ، وهى فى كل هذا سعيدة راضية ، تحيا بغير قلق ولا انزعاج ...

وهكذا الانسان فهو كالحيوان تماما على صورة لا بد معها من العمل والنشاط ليكسب خبزه بعرق جبينه ، ولاكى يحافظ على نفسه وجنسه ، ويدافع عن حياته بغير ضجر ولا ملل ، ولكنه يختلف عنه فى أن الحيوان لا يفكر إلا فى نفسه ، ولا يعنى بشيء ما إلا ما يهم ذاته ، أما الإنسان فهو يعيش وسط الجماعة ، ويقضى كل حياته بينهم ويعمل معهم ، فإن ركز جهده وسعيه على ذاته فقط ، وإن قصد أن يكون أنانياً ، فهو لا يستطيع أبداً أن يحيا حياة طبيعية سعيدة ، لأن طبيعة الوجود تتطلب منه ان يعمل ايضا للغير وللانسانية قاطبة ، وأن يشعر بنوع من التضامن معها ، وهى

من ناحية أخرى سوف تمنحه حتما ثمار اعماله ، وان تجزيه خيراً على سعيه ،
وسوف تهيه بكل تأكيد حياة راضية منسجمة

أما انا فبالأسف فى الثلاثين سنة الأخيرة من حياتى الناضجة ، فلم اقتصر
على عدم معاونة غيرى ، ولستكنى لم أعمل صالحا لنفسى ، لأننى قد قضيت
هذه الأعوام الطويلة ككثرة تافهة ، اصرف جهدى كله فى العبث بحياتى
وبحياة الآخرين

أجل إن حياتى أنا هى التى كانت شراً وضللاً ...

إن فى الوجود إرادة كلية عظمى كل غايتها أن تديره بأكمله ، وان تعنى
بحياته وبحياتنا كذلك ، ولكن قبل ان نطمع فى إدارتها ، وقبل أن يقفز
فيما العقل إلى محاولة فهمها والتساؤل عنها واستقصاء غاياتها الدقيقة — قبل
ذلك يجب أن نقوم بما علينا من الفرائض والالتزامات ، وأنا إذا لم أقم
أولا بنصيبى من العمل ، فلن اعرف شيئاً هاماً عن هذه الإرادة ، ولا عن
هذا الوجود الذى انا قطعة منه ، ولن أحظى بالنور الذى يضئ لى طريق
المعرفة ... الامر تماماً هو كما يأتى :-

إذا أخذ شخص مسكين متسول ، عارى الجسد ، تائه فى الطرقات ،
إلى دار كبيرة فسيحة بها حديقة واسعة ، وأمر بأن يعطى الكساء والغذاء ،
مقابل عمله وهو تحريك يد مضخة الماء ، ففيما يفكر ؟ ... وكيف يجب أن
يتصرف ؟

ليس له فى أول الأمر أن يبحث عن السبب الذى حمل صاحب الدار
إلى استخدامه فى تحريك يد المضخة ، ولا أن يحاول أن يحكم عما اذا
كانت النظم والترتيبات المعمول بها فى هذا المكان معقولة أم غير معقولة ،
ولا عما إذا كانت لها غاية أم لا .

عليه أولا وقبل كل شيء، أن يضع يده على الطالبة فعلا، وأن يديرها فعلا، وهو عندما يقوم بهذا يجد أن المضخة تخرج الماء من باطن الأرض إلى خارجها، ثم يلاحظ أن الماء يجري في الأرض فيسقيها بما عليها من نبات وأشجار، ثم لا يلبث أن يرى ثمارا شهية ناضجة جزيلة الخير والنفع. وبعد أن يظهر كفاءة في عمله هذا، ينقله صاحب الدار إلى عمل آخر مثل جمع الثمر والعناية بالشجر إلى غير ذلك من الأعمال، حتى إذا انتقل من عمل إلى عمل، وقف بالتدريج على النظام الموضوع لتلك الدار وتلك الحديقة، وحظي بنصيبه من الخير فيها بكل سهولة

فلولا العمل والاعتصام به والقيام بواجباته والمواظبة عليها، لما عرف شيئا، ولو أنه اقتصر على الكلام وعلى السؤال والمناقشة والتفكير، ولم يضع يده على المضخة، لما كسب شيئا ولما عرف شيئا...

أما نحن الحكماء وأهل العلم والفهم والفلسفة، فأننا نتمتع بكل خيرات رب البيت، ونأبى أن نؤدي الواجب الطبيعي المفروض علينا من الأعمال، ولا نكتفي بهذا، بل نغصب مراكز العاملين الحقيقيين، ونستوى على مقاعدهم نعم بملء راحتنا عليها، ونتربع فوقها، ثم نأخذ في الكلام والبحث والجدل !! ونظل نسأل ونكرر السؤال :

لماذا يجب أن نحرك يد الطالبة؟؟ ثم نجيب ونناقش ونختلف !!... وبعد قليل نصل، إلى أن هذا عمل بليد تافه، لا يليق بنا ولا يتفق مع كرامتنا !!

ثم نعيد البحث ونعيد المناقشة والجدل، وبعد أن نفرغ من هذه الأبحاث والتأملات السخيفة نصل إلى نتيجة أخرى عظيمة هي : - إن رب البيت نفسه هو البليد !!!

ثم نعود ونفكر ونتكلم ونتناقش ونبحث، ثم نصل إلى أن رب

البيت هذا غير موجود إطلاقاً ، وأننا نحن و-عدنا الموجودون !!!...
حقاً اننا نتحدث بذلك وتنصاع !! ، وندعى أننا لو-عدنا الفلاسفة
الغضاء !! ، ونتفاخر بحكمتنا الوافرة !! ، ولسكننا في نفس الوقت ننال من
جراء هذا التبجح جزاء صارماً شديداً ، هو شعورنا الدائم الذى لا ينقطع
بفراغ الحياء وتفاهتها ، وشعورنا باليأس ، وبعدم صلاحيتنا لشيء مفيد
عظيم عليها، وبأن الموت والالتحار هما خير الوسائل للتخلص منها !!!
بعد أن ينست من عقلى ومناقشاتة ، وبعد أن ينست من علومى
ومعارفى ، وبعد أن اكتشفت فساد حياتى ، وبعد أن اقتنعت باخطائى ،
وبعد أن وقفت على الحقائق السابقة ، اعتزمت أن أخلع عنى هذه الحياة
القديمة، حياة الترف الفاسدة ، وأن أحيا حياة هؤلاء الأشخاص العاملين
الجادين ، الذين يقضون أيامهم فى بساطة ورضى وعزاء ، وأن لا أتمثل
بحياة الحشرة الطفيلية العالقة بجسم غيرها تعيش على حسابه وتمتص دماؤه ،
بل أن أقضى أيامى فى العمل المثمر الصالح لى ولغيرى وللعالم أجمع ، وأن
أواظب عليه متمتعاً بنفس الرضى ، الذى يستشعره هؤلاء الفقراء والفلاحين
الامناء ، الذين يؤلفون بالفعل وبالحق الانسانية الصحيحة المنتجة



ولعلّ أستطيع أن ألخص الموقف بإيجاز في العبارات الآتية :-
كنت في الماضي أفكر بغير انقطاع وبلا توقف ، في الحياة ومعناها ،
وما أهتم على من غوامضها ومن أسرارها ، وكنت في كثير من المرات
أخرج بمسألة نفسى بين دقيقه وأخرى ، عما إذا كان الأفضل لى أن
أتحجر برصاصة أو بحبل حول عنقى ... وبينما كان عقلى مشغولاً بكل هذا ،
كان قلبى متألماً من أعماقه ، معذباً بشعور خفى غامض ، وعاطفة قوية جامئة
تدفع بى إلى البحث عن شيء آخر ... عن شيء لازم ضرورى ...
عن الله

كان هذا الشعور يشبه فى كثير من النواحي ، شعور اليتيم التائه فى
مجاهل لا يعرفها ، ولا يعرف عنها شيئاً ، ومع ذلك يحس بالرجاء وبالأمل
فى مساعدة ما ، لا يفهم ما هى ولا يعرف مصدرها
وأسارع فأقول بكل ما فى من ثقة وتأكيد ، أن هذا الشعور لم يكن
له أى صلة بعقلى الذى كان بالعكس ينكره ويعترض عليه ، وإنما كان
إحساساً مصدره القلب وحده .

ومع أنى كنت قبل ذلك واثقاً بأن الدليل على وجود الإله عن طريق
العقل وحده مستحيل ، كما قرر « كانت » الفيلسوف ، إلا أنى رغم هذا ،
وجدت نفسى ما زلت مدفوعاً إلى البحث عن الله ، مشوقاً إلى الإهتمام
إليه ، مجدّاً فى التفتيش عنه ، ممتلئاً رجاء وأملًا فى العثور عليه

كنت أحياناً أصلى له وأخاطبه ، ولكنى لم أجد من يصغى إلى .
كنت أحياناً أقرأ « كانت » و « شوبنهاور » وأوافقهما أحياناً بأن
البرهان على وجود الله مستحيل ، وأقتنع بذلك ، وأحياناً أخرى كنت

أثور عليهما وأفند أقوالهما ، وأكشف ما فيها من أخطاء وضلال
قلت مرة في نفسى :-

ما دمت أنا موجوداً ، فلا بد من علة لوجودى ، ولا بد أن تكون
هذه العلة هى أصل جميع العلل ، ولا بد أن تكون هى ما يقال عنه «الله» .
لازمنى هذا الرأى طويلاً ، وعمل فى بأقصى حد إلى الشعور فعلاً
والاحساس فعلاً بهذا الإله ، حتى وفقت إليه ، وشعرت بهذه القوة
العظيمة الفائقة التى تسمو على وترتفع على كل شيء

ولكنى مع ذلك عدت ثانياً أشعر بأن الحياة نفسها لا زالت مستحيلة
على كما كانت من قبل ، لآنى سألت نفسى ما هى هذه العلة أو هذه القوة ؟ . . .
كيف يجب أن أدير اتجاهات تفكيرى عنها ؟
ما الصلة التى تربطنى بهذا الإله ؟

فلم أجد غير الجواب القديم بأنه هو الخالق وهو البارئ لجميع
الكائنات وكفى

عدت إلى اضطرابى ، وعدت إلى مخاوفى وإلى شكوكى ، وأعوزتنى القوة
التي تدفعنى إلى الاستمرار فى الحياة والمحافظة عليها ، فشرعت فى الحال
أصلى رغم أنى لم أثق بالصلاة . . . أصلى إلى هذا الإله الذى أبحث عنه . . .
أصلى له ليعيننى ولينجبنى من شكوكى ومن يأسى . . . إلا أن افراطى فى
الصلاة وقتئذ لم يزدنى إلا ثقة بأن صلواتى هذه لم يسمعها أحد ، ولم يصغ
إليها أحد . . . وفهمت بأنه لا توجد قوة ما يستطيع الانسان أن يلجأ
إليها ، ويعتمد عليها وقت محتته وإبان شدته

ملاً اليأس قلبى لعدم اهتدائى الى فهم ألوهية هذا الإله الذى أسعى
إليه . . . وفى يأسى العميق ، صرخت بغير ايمان : « يارب ارحمنى . . . يارب
انقذنى . . . يا الهى اهدنى وأرشدنى » .

ولسكن لم يرحني أحد ، ولم ينقذني أحد ، ولم يهدني أحد ... وعدت الى
يأسى ، ولكنى لم ألبث أن أخذت أقول : -

أنه من المستحيل ألا يكون لوجودى على هذه الأرض ، غاية معينة
ومعنى خاص ، مستحيل مستحيل ...

لا يمكن أن أكون كهذا الفرخ من الطير ، سقط صدقة من عتبة ،
فوق عشب الحقل ، وأخذ يصرخ - وعلى فرض أنى مثله ، فلماذا أصرخ ؟ ...
وما هذا الذى يحملنى على الصياح تاو الصياح ؟
ولمن أصرخ ؟ ...

أليس هذا دليلا على أن هناك أما ولدتنى ، وعنيت بتربيتى وأطعمتنى
وأحببتنى ؟

ولسكن أين هى ؟

أين هى أمى ؟

وان كان قد ألقى بي عمداً فى هذه الحياة ، فمن الذى رمانى ؟
لم أستطع وأنا أردد كل هذا فى نفسى ، الا أن أعترف بهذه
الحقيقة وهى :

ان كائنا ما قد أحبنى ، وكان هو السبب فى وجودى ، وهو هو الذى
أصرخ اليه ، وهو الله ، وهو لا بد يعرف أنى أبحث عنه ، ويعرف أنى
أسعى اليه ، وأصلى له ، ويحس بيأسى ، ويحس بجهادى فى سبيله ، ورجائى
فيه فصحت فى آخر الأمر : -

« انه بالحقيقة موجود » .

وكنت فى كل الاوقات التى أو من فيها بوجوده ، تتجدد حياتى ،
وتنتعش روحي ، وينهض رجائى .

أخذت بعد ذلك أتأمل فى روابطنا وفى علاقاتنا نحن البشر مع هذا

الاله ، فوجدت بعض رجال الدين يفصلونه عني وعن الناس وعن الحياة ، ويقصونه عنها ، ويضعونه في مكان ما مكان سحيق...مكان بعيد... فذاب عندي معنى هذا الاله ، وزال كل أثر لوجوده ولعظمته في نفسي ، وعدت إلى حالي الأول المزعج المرير ، أفكر ثانياً في الانتحار ... ولكني ألهمت إلهاما قوياً شديداً بأن لا أقدم على قتل نفسي ، لأنه عمل فظيع .. غاية في الفظاعة والحق ..

تناوبتني بكل قسوة الآراء المتضاربة والمشاعر المتناقضة عشرات بل مئات المرات ، تدفعني إلى الايمان تارة وإلى الالحاد أخرى ، إلى أن كنت مرة لوحدى في أيام الربيع الجميلة، أسير في غابة ساكنة صامتة، أصغى إلى صوتها وأفكر في هذا الاله فقلت :-

حسناً ... ليس إله ... ليس في الوجود شيء سوى شعوري الذي أحسه ، وليس في العالم شيء سوى حياتي أنا ... لا إله ... لا توجد قوة أو أعجوبة تستطيع أن تبهن علي وجوده .. لان العجائب والمعجزات لا وجود لها إلا في مخيلة ضعاف العقول ! !

ولكن ماهذا الحنين وهذا الشوق إلى إله ؟ .

وما هذا الذي يستحني بالحاح وبغير امهال للبحث عنه ؟ ..

من أين جاءتني كل هذه التصورات عن الله ؟ ..

رددت كل هذا بيني وبين نفسي طويلا ، فشعرت بالاطمئنان يعود إلى ، وأحسست بنوع من الايمان ينسرب إلى قلبي ، وتملكتني موجة هائلة من السرور ، ولكنها سرعان ما تبددت ، وسرعان ماذوت ، وسرعان ما عادت الى فكرة الانتحار ، لأن عقلي عاد الى عمله يضللي ويقول لي : « ان هذا الشعور الذي يحملك على البحث عن الاله ، ليس هو الاله ، بل هو مجرد احساس يعتمل في أعماق نفسك ، ثم هو تحت سيطرتك

واختيارك ، لك أن تظهره ، ولك أن تحجبه كما تشاء ، فهو ليس بالاله الذى تسعى اليه

عدت أقارن تطورات حياتي الماضية كلها ، ولاحظت جميع التقلبات ، وذكرت هذه الحلقة من الافكار التى تدور فى نفسى مئات المرات ، تجلب لى اليأس مرة وتهبى الرجاء أخرى

فحصت حالتى الماضية بكل دقة ، وعدت بالذاكرة إلى أيام يأسى ويؤسى وأيام رجائى وهنائى .

كشفت دخائل نفسى وقلبى ، ووقفت على انفعالاتى الهامة التى مرت بى فى الماضى كله ، ووعيت جيدا تلك الايام السكثيرة ، التى اردت فيه القضاء على حياتى ...

أخيراً عثرت على السر العظيم ووثقت به كل الثقة :-

وجدت أن الايام الجميلة التى عشتها بخير وسلام ورضى ، وأحسست فيها بالحياة الصحيحة والرجاء ، كانت هى الايام التى غمرنى فيها الايمان بالله ، وفيما عداها كنت أحس بفراغ الحياة وببطلانها ...
ما هذا اليأس عندما اعرض عن إيمانى ؟ .

ما هذا الرجاء ؟ وما هذه الحياة القوية المتدفقة بالمعاني عندما يعمر الايمان قلبي ؟

لماذا كلما حاولت قتل نفسى ، وجدت فى أعماقى بقية رجاء قوى يصونى عن ذلك ، ويمنحنى املا فى الاهتداء إلى الله ؟ ...

لماذا ارتبطت حياتى الحقيقية السعيدة ، بشعورى بالله وبوجوده وشوقى إلى الاهتداء اليه ؟ ...

إن صوتا مدويا قويا كان يهتف فى أعماقى قائلاً :-

إن الله الذى تسعى اليه والذى تنشده فى تأملاتك ، هو قريب منك

غير بعيد ... مسيطر على مشاعرك وانفعالاتك ، ومتصل بك وبحياتك ،
وغير منفصل عنها ، وهى لا توجد الا به ، ولا تقوم إلا به ، وإنك لى
تعرفه لا بد أن تعيش وأن تحيا وأن تحب الحياة ، ولا بد لك لى تعيش
وتحيا الحياة الحققة ، أن تعرفه وأن تتصل به ... وأن تدرك ان الله
والحياة واحد ... الله هو الحياة ... هما لا ينفصلان ... لنسعى اليه فى
وسط الحياة ولنجده فى غمارها ... لن تكون الحياة بغير الله ...

آمنت كل الايمان بهذا الصوت وهدأت نفسى واستراحت روحى ،
وعدت الى ما كنت أومن به فى فجر شبابه .

عدت الى ايمانى القديم بتلك الارادة العليا التى خلقتنى فى هذا الوجود ،
والتي فرضت على أن أعمل باجتهاد ، وأن أواظب على عملى من أجل نفسى
ومن أجل غيرى .

عدت الى الايمان بالحقيقة العظمى وهى أن الواجب الاول والغاية الاولى
فى الحياة ، انما تنحصر فى جهاد الانسان كى يصبح اليوم أفضل مما كان
بالأمس ، ولكى يعمل الخير والعدل جهده ، طبق شريعة هذه الارادة العليا .
عدت الى الايمان بأن الله لا يكشف نفسه ولا يظهر ذاته الا للصالحين ،
وعن طريق الصلاح . التى أجمعت الانسانية من قديم الزمان فى تقاليدها
المختلفة ، على حبه وعلى تمجيده وعلى الاهتداء دائماً بنوره .

عدت الى ايمانى كله الذى كان لى فى عهد حدثتى ، ولكن بفارق واحد
هام ، هو أنى كنت أولاً أقبل هذا الايمان بجهل وبغير فهم ، أما اليوم
فإنى أومن بالله والخلود ايماناً مدركاً ثابتاً قوياً صحيحاً ، لا أستطيع أن أتخلى
عنه ولا أستطيع أن أحيا بدونه

وبهذا الايمان عشت وسط العامة من العمال والبسطاء ، وأنسكرت
نهائياً على نفسى وعلى أبناء طبقتى ، حياة البذخ واللهو ، لأن الرخاء

والنعيم الذى ينغمسون فيه ، يعمى بصائرهم ، ويظلم أفهامهم ، ويولد أذهانهم
وعواطفهم

خلق الله الانسان ليختار بين أمرين ، فإما أن يهلك نفسه الخالدة
الابدية ويفسدها، وإما أن يرقى بها ويرفعها

ولا شك أن الأمر الثانى هو هدف الحياة الأول ، وهو لا يتحقق
إلا بأن يحب كل منا الحياة ،

وأن يقوم بنصيبه فيها من العمل بهمة ونشاط ، وأن يواظب عليه ،
وأن يسير فيه وفق شريعة الله ،

وأن نعمل جميعا لأنفسنا كما نعمل لغيرنا ،

وأن نعمل بقلوب تفيض رجاء بالله وبالأبدية ،

وأن نصبر ،

وأن نحتمل ،

وأن نكون ودعاء متواضعى القلب والروح والفكر

هذا هو إيمانى العزيز على نفسى الذى تمسكت به من أعماق القلب

ومن أعماق الروح ، وأن نوره الذى أشرق على حياتى لم يخفت أبدا

اتتهى

تصويب

ص	س	الخطأ	التصواب
٤	١١	عنه	منه
٥	٢٠	المعروف	المعروفين
١١	٢	اجتماعي	اجتماعي لى
٢٣	٥	الابن	ابن
٤٦	١١	« اهرم أعداءه »	« اهرم أعداء القيصر »
٥٠	١٢	وقال أن	وقال بأن
٥٣	١٠	« بماذا يعيش الناس ؟ » التي	« بماذا يعيش الناس ؟ » الذي
			وضعه ضمن ثلاث وعشرين
			قصة في مؤلف
٦١	١٤	السكاه	الكساء
١١٥	٥	لا تقوم بالوطنية	لا تقوم إلا بالوطنية
١١٧	١٦	دين واحد	دينا واحداً
١٤٠	٤	نفس	تفس
١٥٢	١٠	طبلية	(طبلية)
١٥٩	٤	لا يجب	يجب
١٦٠	١	مخلص	مخلص
١٧٤	١٩	زرع	دفن
١٧٩	١٧	للظهور	الظهور
١٩٥	٢١	أنصر	آخرأ
٢٠٠	٨	أنشيد	أنشد
٢٠٨	٥	أصدقاؤه	أصدقاؤه
٢٢٩	١٦	التي	الذي